فريق متميزون
E-BOOK

بطولات من التاريخ

مُصطَفَى زَهرَان

كتوبيا للنشر والتوزيع
KOTOPIA PUBLISHING HOUSE

دراسة

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

بطولات من التاريخ

مصطفى زهران.

اهداء..

إلى: شباب وفتيات الإسلام ليعلموا أمجاد تاريخهم، وعظمة أجدادهم، ووهن أعدائهم.

إلى: أفضل البشر بعد الأنبياء، مصابيح الدجى، ونور الهدى، الصحابة رضوان الله عليهم.

إلى: القادة الفاتحين، والعلماء المصلحين.

إلى: شهداء ومجاهدين هذه الأمة الخالدة.

إلى: كل مسلم حريص على إعزاز دين الله تعالى ونصرته.

إلى: أبي رحمه الله، وأمي حفظها الله، وإخوتي.

أقدم إليهم جميعًا كتابي بطولات من التاريخ.

مصطفي نصر زهران

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مقدمة..

إن الحمد لله، نحمده، ونستعين به، ونستهديه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل الله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمد عبده ونبيه ورسوله، اللهم إنا نعوذ بك من أن نقول زورًا، أو أن نخشى فجورًا، أو أن نكون بك ربي من المغرورين، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى.

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، يا رب لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا، فلك يا ربي الحمد كما ينبغي لجلالك، ولك الثناء كما يليق بكمالك، ولك الحمد كما تستدعيه عظمتك وكبرياؤك.

- أما بعد

بٰسم الله القوي، العزيز، وفي سبيله، وعلى بركته، أضع هذا الكتاب الذي أرجوه أن يكون خالصًا لوجه الله تعالى، بين يدي شباب الإسلام ورجاله وفتياته، الذين اتضحت في عيونهم الرؤية الواعية لتاريخنا العظيم، فأدركوا أنّ ابتعاد الأمة عن دينها العظيم، عقيدة، ومنهاج حياة، هو السبب في كل ما يصيبها من هوان، وتشتت، وتخبط في متاهات العقائد الأرضية المستوردة من هنا ومن هناك، ثم أدركوا من بعد ذلك، أن في العودة إلى الإسلام العظيم، والالتزام الصادق به، والاستقامة الواعية على دربه، هو طوق النجاة الوحيد لهذه الأمة.

- وبعد

إن دراسة التاريخ الإنساني عمومًا، والتاريخ الإسلامي خصوصًا من الأمور الهامة، والتي تعظم إليها الحاجة؛ خاصة عندما تكفهر الأجواء، وتتكاثر السحب، وتنزل الحجب؛ فتضعف الرؤية؛ وأحيانًا تنعدم، ولا يجد الناس ما يستشرفون به المستقبل، ويقيمون به الحاضر؛ عندها يكون التاريخ هو المعيار الأصوب في قراءة الأحداث، فالتاريخ هو ذاكرة الأمة، والذاكرة للأمة كالذاكرة للفرد تمامًا؛ بها تعي الأمة ماضيها، وتفسر حاضرها، وتستشرف مستقبلها.

وتاريخنا الإسلامي حافل بالتضحية والفدائية في سبيل الإسلام، والفوز برضاء الله ورسوله لا طمعًا في مال أو جاه أو سلطان، وإنما مبعثها الإيمان العميق الصادق النابع من القلب، والحب العميق لله ولرسوله.

ولم تكن هذه التضحية والفدائية خاصة بالشباب الأقوياء بل كانت من الشباب والشيوخ الكبار، ولم تكن خاصة بالرجال بل شملت الرجال والنساء، ولم تكن خاصة بالبالغين المكلفين فقد شارك فيها الصبيان وحدثاء الأسنان.

وسترى في كتابنا هذا صورًا مشرقة، وألوانًا متنوعة نرجو من الله أن يتخذ منها شباب وفتيات الأمة نبراسًا يسيرون على ضوئه اليوم.

وإذا تتبعنا الأحداث التاريخية في الإسلام، والمواقف الحاسمة فيه، والملاحم العظيمة في السيرة، والفتوحات الإسلامية، والعصر الحديث نجد من صور الفدائية كثرة كاثرة تزري بتاريخ أي أمة أخرى، ونحن لا ننكر أن معظم أمم الأرض في القديم والحديث في تاريخها ألوان من

التضحية والفداء، لكن مع هذا فالتضحية والفدائية عند غير المسلمين لم تقم على أساس من الإيمان، وشرف الغاية كما هو الشأن عند المسلمين.

لقد قامت ركائز دعوة الإسلام قديمًا وحديثًا على كثيرٍ من بطولات وتضحيات من مجاهدي هذه الأمة، وما زالت تقدم، على امتداد عصور التاريخ الإسلامي، وتحت كل الظروف الصعبة منها، كانت متقلبة بين عسر ويسر، فخرجت الآلاف من نماذج البطولة الخارقة التي تؤكد أن مسيرة الدعوة إلى الله، على درب الجهاد من أجل العودة بالأمة إلى طريق الريادة، ستظل ماضية، ورغم كل المعوقات والمخاطر.

وإن راية الحق التي حملها هؤلاء الأفذاذ عدة قرون ما زالت ترفرف، ومنذ مئات السنين، فوق أركان الدنيا الأربعة، وإن جهادهم وتضحيتهم هما اللذان أبقيا كلمة الحق في كل أنحاء المعمورة حتى الآن، وإننا اليوم في أمسِّ الحاجة إلى دراسة سيرة هؤلاء المؤمنين المخلصين، لِمَ كانت كل هذه التضحيات من جانبهم؟ وكيف كانت؟ ولماذا صبر هؤلاء المغاوير على العذاب والآلام والموت، دون تأوه أو ألم؟ بل إنهم كانوا يستعذبون هذه الآلام في سبيل دينهم.

وهذا الكتاب الذي بين أيديكم يضم عددًا من مواقف البطولة الشامخة التي صنعها الإسلام، وكثيرًا من التضحيات الخالدة التي قام بها المجاهدين، ولقد تعمدت أن لا ألتزم أثناء سردها بالترتيب الزمني لهذه المواقف على حسب كل فترة على حدة، وقد أردت من وراء ذلك أن أشد الانتباه إلى أن البطولات والتضحيات ليست وقفًا على فترة زمنية معينة، وأن الإسلام العظيم قادر على صنع بطولات وتضحيات في أي زمان ومكان، وتحت أي ظرف، وإن أي مسلم ومسلمة، يستطيع أن يسجل موقف بطولة في سبيل الله تعالى، إذا التزم بالإسلام واستقام على الطريق.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

"فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ»

مصطفي نصر زهران

بطل الشام أرجواش

بينما كان العالم الإسلامي يعاني من هذا الصراع العنيف، واليأس المتزايد، والكمد القاتل، إذ تألق في أفقه نجم جديد، سطع في كبد السماء نور يبدّد ظلام الليل، ووجد العالم الإسلامي – كما تعوده في أدق مراحله وأحرج مآزقه – قائدًا جديدًا، ومجاهدًا عبقريًا؛ وبطلًا مغوارًا، لقد برزت طاقة جديدة عملاقة من حيث لم يكن في حسبان أحد، إنه أحد أبطال المماليك المغاوير الأمير الباسل علمُ الدين أرجواش المنصوري رحمه الله.

ولعلك أيها القارئ الكريم قد نزع بك الشوق إلى سماع طرف من أخبار هذا الفارس المغوار، والوقوف على بعض عجائبه؛ فإليك شيئًا منها كما جاءت في كتب السير والتراجم، فتعالوا بنا لنعيش سويًا في هذه السطور مع ملحمة الصمود التي سطرها التاريخ بحروف من ذهب لهذا المجاهد البطل.

لمّا استولى التتار على بلاد الشام عاثوا في الأرض فسادًا هم وأتباعهم من النصارى فقتلوا في دمشق وما حولها عددًا كبيرًا من المسلمين، وسبوا كثيرًا من النساء والأطفال، ونهبوا كثيرًا من الأموال.

وولوا على نيابة الشام سيف الدين قبجق المنصوري الذي لجأ إليهم قبل ذلك لخلاف بينه وبين سلطان مصر والشام محمد بن قلاوون – وهو الاشتراك في مؤامرة قتل السلطان الأشرف خليل بن قلاوون أخو السلطان محمد – وأرسل هذا الخائن لدينه ووطنه إلى نائب القلعة في دمشق، وهو المجاهد علمُ الدين أرجواش المنصوري، ليسلمها إلى التتار.

وكان أرجواش هذا بطل من أبطال المماليك المغاوير، وكان لا يخشى في الله أحدًا من البشر، وكان مجاهدًا لا يشق له في البطولة غبار.

فامتنع أرجواش من ذلك أشد الامتناع، فجمع له قبجق أعيان البلد فكلموه أيضًا لتسليم المدينة للتتار بدون قتال، فلم يجبهم إلى ذلك، وصمم على ترك تسليمها إليهم، وقال: «والله لا أسلمهم بلاد المسلمين وفي عين تطرف».

ولقد كان تصميم أرجواش على المقاومة ثابتًا، فلقد كَلَمه إضافة إلى أمير دمشق قبجق، الأمير حسام الدين لاجين والأمير بكتمر وغيرهما من أمراء المماليك في تسليم قلعة دمشق إلى نائب التتار، وقالوا: «اتقِ الله يا أرجواش في دم المسلمين؛ فدماء أهل الشام في عنقك إن لم تسلمها»،

فأجابهم: «دماء المسلمين في أعناقكم أنتم الذين خرجتم من دمشق وتوجهتم إلى قازان وحسنتم له المجيء إلى دمشق وغيرها من بلاد الإسلام»، ثم وبخهم، ولم يسلم قلعة دمشق.

فأرسل إليه شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله رسالة يقول له فيها: «لو لم يبقَ فيها إلا حجر فلا تسلمهم ذلك إن استطعت».

بعد كلام شيخ الإسلام صمم أرجواش على المقاومة أكثر، وتهيأ للقتال والحصار، واستمر على حفظ القلعة، وجاء الطاغية قازان في ستين ألف مقاتل، وحاصر القلعة حصارًا عنيفًا.

ولما بدأ الحصار، نادى أرجواش في الناس وقال: «احفظوا الأسوار، وأخرجوا ما كان عندكم من الأسلحة، ولا تهملوا الأسوار والأبواب، ولا يبيتن أحد إلا على السور، ومن بات في داره شُنق»، فاجتمع الناس على الأسوار لحفظ البلاد، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية طوال شهور الحصار يدور كل ليلة على الأسوار يحرض الناس على الصبر والقتال ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط.

يا سادة، هذا موقف حزم وعزم من شيخ الإسلام ابن تيمية ونائب القلعة أرجواش، حيث حوَّلا المسلمين في مدينة دمشق إلى مجاهدين، وهكذا ينبغي لكل مسلم أن يكون مجاهدًا إذا احتاجت إليه الأمة، وأن يكون كل أفراد الأمة جنودًا احتياطيين ينفرون إلى الجهاد عند اللزوم.

ولقد ظل الحصار عدة شهور، وفشل التتار في دخول القلعة، وكان أرجواش في كل يوم يخرج في طائفة من الجنود فيقتلون طائفة من التتار؛ ويأسرون فريقًا، وبذلك فشل التتار وأعوانهم من النصارى والخونة في دخول القلعة بعد حصار دام شهور.

وكان في ذلك مصلحة عظيمة لأهل الشام، فلقد حفظ الله لهم هذا الحصن والمعقل الذي جعله الله حرزًا لأهل الشام التي لا تزال دار إيمان، حتى ينزل بها عيسي ابن مريم عليهم السلام .

- عبرة

يا أيها القارئ الكريم، هذا الموقف يكتب بماء الذهب لأرجواش الذي صمم على عدم تسليم القلعة لنائب التتار، مع أن الشام كله قد سقط بأيدي جحافل التتار، فما نسبة هذه القلعة إلى بلاد الشام؟! ومع ذلك ومع محاولة التتار لتدمير القلعة فقد ثبت فيها أرجواش ومن معه من الجنود ثبوت الجبال الراسيات وأبى أن يسلمها وفيه عين تطرف، وهذا يدل على قوة إيمان هذا المجاهد المغوار.

ولقد كان لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تأثير واضح وقوي على أرجواش، حيث ائتمر بأمره القوي الصارم الذي يلزمه بالثبات حتى هدم آخر حجر في تلك القلعة، وهذا الموقف من شيخ الإسلام يدل على روح جهادية عالية تتسم بالقوة والثبات والتصميم على الدفاع عن الإسلام والمسلمين حتى آخر قطرة من دمه ودم أتباعه، هذا مع قلة مؤيديه الذين يأتمرون بأمره، فكيف لو كان معه جيش كبير.

وهكذا يا أيها القارئ الكريم، كان أصحاب القلعة هم الوحيدين الذين صمدوا في وجه التتار وأعجزوهم عن فتح القلعة، وإن المتأمل ليعجب من فتحهم الشام كله وعجزهم عن فتح هذه القلعة، مما يدل على أن سلامة هذه القلعة منهم مع كثرتهم وكثرة ما يملكونه من الأسلحة ووسائل التدمير دليل على نصر الله تعالى أولياءه المؤمنين وخذلان أعدائهم، فيا ترى لو كان قادة بلاد الشام وجنودها من أمثال هذا القائد القوي الحازم وجنوده المجاهدين، هل يكون للتتار وغيرهم من أعداء الإسلام موطئ قدم في بلادنا؟

يا شباب، لقد كان أمل أرجواش كبيرًا في أن يزول التتار وأن تعود بلاد مصر والشام والعراق دولة واحدة، وهذا ما تحقق بفضل الله بعد ذلك حيث جلا التتار عن الشام، وعادت دولة الإسلام القوية، وكانت قلعة دمشق رمز الثبات الذي حطم كبرياء التتار، ومنعهم من دعوى الاستيلاء على الشام كله ثم الهجوم على مصر.

شهيد بسيف رستم

كم يندهش القلب، وينبهر العقل، ويرتاع الفؤاد عند النظر في سير هؤلاء الأكابر العظماء، هؤلاء الذين ملأت عزتهم وعظمتهم سمع الزمان، وعطرت أعمالهم الصالحة نسيم الأيام؛ وطابت بهم الدنيا، وسعدت بقرباتهم القلوب، فهم كالكواكب النيرة، والنجوم الساطع، في سيرتهم ترى السعادة الحقيقية.

لقد سطر هؤلاء العظماء في جبهة الزمن صفحات من نور تشهد بكل معاني النبل والوفاء، وها نحن في هذه السطور نعيش سويًا في رحاب موقف من أعظم مواقف البطولة في التاريخ، لعملاق من أبطال الأمة المجهولين، لم يعرف الرواة له اسم، لكن يكفيه أن يعرفه ربه سبحانه، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد الختامي الرائع لحياة هذا البطل المغوار.

اعتلى رستم أعظم قادة الفرس، صهوة جواده، يحف به قادة جيشه، وكهانة الفرس، ومضى يتفقد جيوشه المجتمعة في القادسية بانتظار ملاقاة الجيش الإسلامي في معركة فاصلة، ويميل رستم بفرسه نحو قائد من قواده يسأله: «كم تظن يصمد رعاع العرب وأوباشهم أمامي، ومعي أكثر من مائتي ألف من صناديد فارس وفرسانها؟»،

فيجيبه القائد، وقد أخذته العزة بالإثم، وغره ما يرى من جموع الفرس: «ما أظن أيها القائد العظيم، أن يجرؤ رعاع العرب على ملاقاتك، وإني لأكاد أجزم أنهم سيسارعون إلى الفرار، حين تقع عيونهم على الفيلة التي تتقدم جيوشنا، وسيحدث لهم ما حدث يوم الجسر، فالأعراب يا مولاي لا عهد لهم بالفيلة، وسيوقع مرآها الرعب في نفوسهم، فيقفلون هاربين».

وما كاد القائد ينهى كلامه، حتى ارتفعت من حول رستم ضوضاء وأصوات، لم تلبث أن انجلت عن ثلة من فرسان الفرس يقودون أسيرًا مسلمًا مكبلًا بالسلاسل والقيود، ينظر رستم إلى قائده ويسأله، وقد تمعر وجه من الغضب: «كيف تقول لي منذ هنيهة أن أوباش العرب سيهربون من أمامي، وهذا واحد من أوباشهم يتجرأ علينا، ويتحسس أخبارنا في عقر دارنا!»،

يلوذ القائد بالصمت، في حين يلتفت رستم إلى الأسير المسلم، ويسأله: «يا أعرابي، ما جاء بكم إلينا؟ وماذا تطلبون منا؟»، فيجيبه الأسير، بشموخ يستصغر القيود والأصفاد: «جئنا نطلب موعود الله بملك أرضكم إن أبيتم الإسلام».

قال رستم: «فإن قتلتم قبل ذلك؟»، فيجيبه الأسير: «من قُتل منا دخل الجنة، ومن بقى منا حيًا، أنجزه الله وعده، ولا يغرنك يا رستم ما ترى حولك من جيوش، فنحن على يقين من نصر الله، واعلم يا رستم، أنك لست تجادل الإنس؛ وإنما تجادل القدر»، ف

قال رستم: "أما تخاف أن أقتلك يا أعرابي؟"، فضحك الأسير المسلم، وقال: "يا رستم، متى كانت آجال الناس بغير يد رب الناس، يا رستم، لو كنت تملك موتًا أو حياة، فامنع الموت عن نفسك!"، هنا بلغ الغضب برستم مبلغًا عظيمًا لا حد له، فاستل سيفه المرصع بالذهب، وهوى به بكل حقد على عنق الأسير المؤمن، فانفصل رأسه عن جسده شهيدًا في سبيل الله.

- عبرة

يا شباب، يا سلالة أولئك الأبطال، أحيوا ما درس من البطولة الإسلامية، ولقنوا العالم اليوم دروسًا في العزة والكرامة وإباء الضيم، والدفاع عن الأوطان، وحماية المقدسات، ولا تلقوا بالًا لإرجاف المرجفين، وتخذيل المتخاذلين، وضعوا نصب أعينكم قول الصديق رضي الله عنه : "احرص على الموت توهب لك الحياة".

أما الجبناء الرعاديد، فلا ينبغي أن يكون لهم مكان في صفوف المسلمين، وبحسب هؤلاء قولة البطل الهمام الذي لم يهزم في جاهلية ولا إسلام خالد بن الوليد: "لقد شهدت مائة زحف أو زهائها، وما في جسدي موضع إلا وفيه ضربة سيف؛ أو طعنة برمح؛ أو رمية بسهم، وها أنا أموت على فراشي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء، وما من عمل أرجى من لا إله إلا الله، وأنا مترس بها، فاعتبروا يا أولي الأبصار".

الفدائي الجسور

إذا تغلغل الإيمان في أعماق قلب المؤمن وملأ عليه كيانه كله، كان أقوى في ثباته وشموخه من الجبل الأشم، لا يزعزعه عن معتقده إرهاب عتل جبار، ولا إغراء خبيث محتال؛ لأن الإيمان طمأنينة لا يجامعها خوف من أحد إلا الله، وسكينة يزداد بها المؤمن إيمانًا مع إيمانه كلما تفكَّر وتدبر في آيات الله الكونية والقرآنية، ومن المعلوم لدينا أن أصحاب النبي ﷺ كانوا من أكمل الناس إيمانًا، وأصدقهم يقينًا، ولا سيما الذين أوتوا حظًا وافرًا من الشجاعة والبطولة، وكثرة ملازمتهم للنبي ﷺ، فإن هؤلاء هم الربانيون الذين أعز الله بهم الإسلام وقوَّى بهم أركانه.

ونحن الآن بصدد التحدث عن موقف لعملاق من عمالقة الجيل الرباني، ضرب فيه مثلًا يحتذى به في الثبات على الحق، وأعطى درسًا لا يُنسى في العزة والإباء، والاستعلاء بالإيمان، إنه الصحابي الجليل عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه ، فتعالوا بنا لنعيش سويًا مع هذا المشهد الأسطوري لهذا الجبل الشامخ.

ففي السنة التاسعة عشرة للهجرة بعث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه جيشًا لحرب الروم فيه عبد الله بن حذافة، وكان إمبراطور الروم هرقل قد تناهت إليه أخبار جند الإسلام وما يتحلون به من صدق الإيمان، ورسوخ العقيدة، واسترخاص النفس في سبيل الله ورسوله، فأمر رجاله إذا ظفروا بأسير من أسرى المسلمين أن يبقوا عليه، وأن يأتوه به حيًا.

وعندما وصلت القوات الإسلامية إلى بلاد الروم دارت معارك طاحنة بين الطرفين، فجاهد ابن حذافة في سبيل الله جهادًا أذهل العدو، ونال إعجاب المسلمين، وشاء الله في إحدى هذه المعارك أن يقع عبد الله بن حذافة أسيرًا في أيدي الروم، ورأوا فيه بطولة نادرة لم يعهدوها في شخص من قبله، وشجاعة أدبية لم يروا لها مثيلًا، وعرفوا من أسرى المسلمين أنه من أصحاب الرسول السابقين، فحملوه ومن معه إلى إمبراطور هرقل، وقالوا: «إن هذا من أصحاب محمد السابقين إلى دينه قد وقع أسيرًا في أيدينا؛ فأتيناك به هو ومجموعة أخرى من الجند»، وقصوا عليه من بطولته وشهامته ونضاله ما قد رأوا.

نظر إمبراطور الروم إلى عبد الله بن حذافة طويلًا ثم بادره قائلًا: «إني أعرض عليك أمرًا»، قال عبد الله: «وما هو؟»، قال: «أعرض عليك أن تتنصر، فإن فعلت؛ خليت سبيلك، وأكرمت مثواك»، فقال الأسير المؤمن في أنفة وحزم: «هيهات، إن الموت لأحب إليّ ألف مرة مما تدعوني إليه»، فقال هرقل: «إني لأراك رجلًا شهمًا، فإن أجبتني إلى ما أعرضه عليك أشركتك في أمري، وقاسمتك سلطاني».

يا سادة، هذا عرض سخي كبير تُصغي إليه النفوس المجبولة على حب الدنيا والمال والجاه، وقد صدر من رجل يملك التصرف، وتحت يده ممالك النصف الغربي من الكرة الأرضية إلى رجل لا يملك من الدنيا إلا ما يبلَغه إلى الآخرة، ولا ندري هل كان هرقل صادقًا فيما يقول، أم قال ذلك على سبيل الاستخفاف والتندر، أيما كان الأمر فبطلنا لا يرضى بدينه بديلًا ولو اجتمعت له الدنيا بأسرها، فماذا كان جواب ابن حذافة؟

لقد كان جواب الرجل الواثق بدينه الذي يؤمن بأن ما عند الله تعالى خير وأبقى، لقد تبسم

الأسير المكبل بقيوده وقال: «والله لو أعطيتني جميع ما تملك، وجميع ما ملكته العرب والعجم على أن أرجع عن دين محمد طرفة عين ما فعلت».

لقد وُفَق ابن حذافة رضي الله عنه حينما أجابه بتحقير دنياه التي يعتز بها ببيان أن مُلْك الدنيا لا يعادل الانخلاع من هذا الدين العظيم طرفة عين؛ ويخرج ابن حذافة من فتنة الترغيب كالذهب الخالص، ويدخل في فتنة الترهيب.

حيث أمر هرقل جنوده بحبسه أيامًا، وأمر بأن يوضع له من لحم الخنزير طعامًا، ومن الخمر شرابًا، ووكل به من يراقبه لينظر ماذا يفعل في هذا الطعام والشراب، ولعله كان يعلم أن الخمر ولحم الخنزير محرمان في الإسلام، فأراد أن يحرجه ويحمله قهرًا على تناولهما.

فمكث عبد الله ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب حتى نحل جسمه والتوى عنقه؛ فسألوه عن السبب في امتناعه عن تناول الخنزير والخمر، فقال: «إن الله أباحهما للمضطر، ولكني أخاف إن تناولتهما أن تشمتوا في المسلمين»؛ فأخرجه الملك من حبسه، وأعاد عليه ما وعده به إن هو استجاب له ودخل في النصرانية، فوجده أشد ثباتًا على دينه من ذي قبل.

فقال: «يا عبد الله إن لم تتنصر فسأعذبك عذابًا أليمًا»، فأجاب عبدالله: «افعل ما تشاء فإنما تعذب بدنًا فانيًا؛ وجسدًا موليًا، أما الروح فلا يملكها إلا الله»، ثم أمر به فصلب، وقال لقناصته: «ارموه قريبًا من يديه»، وهو يعرض عليه التنصر فأبى، فقال: «ارموه قريبًا من رجليه»، وهو يعرض عليه مفارقة دينه فأبى.

عند ذلك أمرهم أن يكفوا عنه، وطلب إليهم أن ينزلوه عن خشبة الصلب، ثم دعا بقدر عظيمة فصب فيها الزيت، ورفعت على النار حتى غلت حتى كاد الإناء أن يحترق من شدة الغليان، ثم دعا بأسيرين من أسارى المسلمين، فأمر بأحدهما أن يُلقى فيها فألقي، فإذا لحمه يتفتت، وإذا عظامه تبدو عارية، ثم فعل ذلك مع الآخر.

ثم التفت إلى ابن حذافة ودعاه إلى النصرانية، فكان أشد إباءً لها من قبل، فلما يئس منه؛ أمر به أن يلقى في القدر التي ألقي فيها صاحباه، فلما ذهب به وقد أمعن في تبكيت ملك الروم والتأكيد على احتقار هذه الدنيا التي من أجلها يتنافس التائهون عن الهداية، ولقد تشكّل هذا المعنى السامي بصورة قطرات من الدمع تهمي من عيني ذلك الرجل العظيم.

ويظن ملك الروم وقومه لفرط تعلقهم بالدنيا ومتاعها أن تلك الدموع تحكي نوعًا من الانجذاب نحو حب البقاء الذي سيكون ثمنًا لخلع ذلك الجوهر السامي، فقال ملك الروم: «ردوه إليَّ»، فلما مثل بين يديه عرض عليه النصرانية فأباها، فقال: «ويحك، فما الذي أبكاك إذن؟!»،

وإذا بهم يُفاجأون بما يذهلهم ويُذلُهم، فقد قال قولًا فتَ في عضدهم وأفزعهم غاية الفزع فقد قال: «أبكاني أني قلت في نفسي، تُلقى الآن في هذا القِدر، فتذهب نفسك، وقد كنت أشتهي أن يكون لي بعدد ما في جسدي من شعر أنْفسٌ؛ فتلقى كلها في هذا القدر في سبيل الله».

يا شباب، إن ابن حذافة يبكي لأنه لا يملك إلا نفسًا واحدة يحوز بها أجر الشهيد عند الله تعالى، ومن أجل ما رسخ في قلبه من تصور ما أعده الله تعالى للشهداء فإنه يبكي على كونه لا يملك أنفسًا بعدد شعره لينال الشهادة بهذا العدد الكبير.

هنا شعر هرقل بتحطُم معنويته وكبريائه وقلة شأنه أمام هذا العملاق الضخم، فأراد أن يستردَ

شيئًا من ذلك المجد الوهمي المحطَم فقال لابن حذافة: «هل لك أن تقبل رأسي؛ وأخلي سبيلك؟»،

وظن أنه سيستحمق ويأبى، ولكن ابن حذافة رجل تعلم من الإسلام أنه إذا فتح له باب خير ولجه قبل أن يغلق دونه، وأن تقبيل رأس هرقل لا يُقدم ولا يُؤخر، وإنها لفرصة سانحة ليعرض عليه مطالبه التي لا تغيب عن ذهنه أبدًا، وهي تخليص أسرى المسلمين من أيديهم، لقد فكر ودبر ودارت هذه الأهداف في ذهنه وفي رأسه فقال: «نعم، أقبلُ رأسك أيها الملك على أن ترد جميع الأسرى إلينا»، فقال: «نعم أفعل»، فقبل رأسه، فصدقه الملك فيما وعده به وأطلق الأسرى، وأجازهم بأموال كثيرة.

إنه من جيل عظيم يا سادة قد بلغ آفاق السمو الأخلاقي فهو لا يعيش لنفسه، وإنما يعيش لإخوانه، فلذلك تذكرهم وشرط فكَ أسرهم معه.

ولكن هل هذه القُبلة تحمل معنى التعظيم والإجلال؟ لا، إنها جاءت عقب ذلك الانتصار العظيم، انتصار المبادئ الإلهية السامية التي يمثلها أزكى العناصر البشرية على المبادئ الأرضية الواهية التي يمثلها التائهون الغاوون، إنها قُبلة تحمل معنى مداراة أهل الباطل لاستخلاص حق المسلمين منهم من غير مداهنة تتضمن التفريط فيما يجب لله تعالى.

ولقد أكبر أمير المؤمنين الفاروق عمر هذا السلوك الرفيع من ابن حذافة فقال هذه المقالة العظيمة: «حق على كل مسلم أن يُقبِّل رأس ابن حذافة وأنا أبدأ»، فقبَّل رأسه، وهي إشادة عظيمة من رجل كبير القدر في نفوس المسلمين لعمل جليل يستحق كل عناية واهتمام.

- عبرة

يا شباب، هذا الموقف دليل على ما كان يتصف به الصحابة رضي الله عنهم من قوة الإيمان، والثبات عند الشدائد، وهذا الموقف وأمثاله يصور لنا أنهم كانوا يعدون الدين أغلى جوهر يملكونه، فهم لا يفرطون فيه ولا يبيعونه بأي ثمن.

وإنها لمساومة خاسرة يقوم بها ملك الروم لينزع بها كرامة المسلم وبهائه في هذه الحياة الدنيا مقابل عرض زائل لا محالة، وهذا العرض وإن كان في نظر أبناء الدنيا سخيًا فإنه في نظر أبناء الخلود شيء تافه حقير.

يا سادة، إنه يبيع نفسه رخيصة في سبيل الإبقاء على هذا الدين العظيم، إن الإنسان حينما ينخلع من دين الإسلام يكون كائنًا حيًا لا قيمة له في الحياة، لأنه يكون قد فقد كرامته الإنسانية، وإنما تكون الكرامة بهذا الجوهر النفيس الذي يصل إلى الهدف الأعلى الذي خُلق من أجله، وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والسعادة في دار الخلود.

جئتُ أحمل رأسي بين كتفي

عندما تذكر رجلًا عملاقًا من عمالقة الإسلام، فالكلمات سُرعان ما تنهمر لتحاول إنصافه بالوصف الذي يليق به، عملاقنا هذا اسمٌ لمع في سماء صافية لا مجال للغبار فيها، رجلٌ هذبته الآداب، وأحكمته التجارب فخاض غمار الموت كالليث لا يرى أمامه إلا هدفه، رجلٌ إذا صمت جلّله الوقار، وإن تكلم سماهُ البهاء، بطلٌ قد طمح بالعلا، وطمع بالمجد، أبى الذُلَ، وتكبر على الطغيان، بذل حياته لرفع قدر دينه وأمته، كان كالعطر قد حضر ورحل لكن بقاياه لا زالت موجودة، وستبقى موجودة، ونعم وستبقى هذه كلمة حق لمن يستحق.

نحن في هذه السطور نعيش مع موقف رائع للسلطان محمد الفاتح أبو البركات رحمه الله، وإليك أيها القارئ الكريم هذه القصة المثيرة من حياة هذا السلطان العظيم، فتعالوا بنا لنعيش سويًا في رحاب هذا الموقف الرائع.

عُرفت الجزر الموجودة في بحر إيجة باسم - جُزر الأرخبيل-، وهي جُزر تجارية ترسو فيها السفن بالموانئ، وتزدهر فيها التجارة إلى جانب وظيفتها السياسية والعسكرية في الصراع الإسلامي الصليبي، وكان يوجد تنافس شديد بين جمهوريتي البندقية وجنوة من أجل بسط النفوذ السياسي والاقتصادي والعسكري على تلك الجزر.

أما من ناحية الجبهة الإسلامية، فقد حدث ما توقعه السلطان الفاتح، ففي الوقت الذي كان يحارب فيه على جبهة البلقان ويحاول دخول بلجراد سنة ٨٦٠ هجرية = ١٤٥٦م، وصل أسطول صليبي أرسله البابا كاليكست الثالث لمحاربة الدولة العثمانية، واتّخذ هذا الأسطول من جزيرة رودس مركزًا له، وانطلق رجال البابا الكاثوليكي في تحريض أهالى جُزر الأرخبيل على قتال العثمانيين، واستجاب الأهالى وخاصة أهالى جُزر لسبوس وليمنوس وإيمبروس وساموتراس وتاسوس لمواجهة الدولة العثمانية.

كان على الفاتح أن يعدَّ العُدة لاقتلاع الوجود الصليبي من هذه الجُزر، فتحرك الفاتح نحو الهدف بجيش قوى، وتمكن من انتزاع أربع جُزر منها، ولم تستعصِ عليه سوى واحدة، وهي جزيرة لسبوس، لأنها كانت حصينة وحولها استحكامات قوية، أي أنها كانت بمثابة قلعة حصينة يسهُل منها الهجوم على الدولة العثمانية، وتوجيه ضربات قوية نحوها، نظرًا لقربها من شواطئ الأناضول.

ولهذا وضع الفاتح خطته المُتقنة لضرب دفاعات هذه الجزيرة، وتحرك بجيشه في أواخر سنة ٨٦٦ هجرية = ١٤٦٢م، واشترك معه الصدر الأعظم محمود باشا في قيادة هذه الحملة.

لقد كان الموقف عصيبًا، وخاصة إذا علمنا أن الفاتح طلب من حاكم الجزيرة القائد نيقولا الجنوي الاستسلام وعدم الزج بنفسه في معركة خاسرة.

وكان الرد من نيقولا بكل غرور: «مهلًا أيها السلطان، انظر أمامك تجد جيشًا قويًا احتشد فيه المقاتلون الجنويون، والبنادقة، وفرسان جزيرة رودس، وجنود البابوية، والكثير من المتطوعين تحت راية الصليب، فكيف تطلب مني الاستسلام؟

ألم ترَ هذا الجيش الجرار؟

أم أن عينيك قد أصابها رمد فأثَر على رؤيتك، فلم تُدرك ما تقول؟!»، لكن

السلطان الفاتح تمسك بالصبر، وأعاد طلب الاستسلام على هذا الحاكم المغرور، وكان رده في المرة الثانية: «هل تخاف مواجهتي يا محمد؟ أم أنك تُدرك أن الهزيمة من نصيبك، وضع في اعتبارك يا فاتح أنني لن أسلم جزيرة لسبوس، وسأدافع عنها بكل ما أُوتيت من قوة ما بقيت على قيد الحياة».

أيقن الفاتح أن القتال لا بُد منه، وأن المدافع لا بُد لها أن تستيقظ، وأن الرعود لا بُد لها أن تعزف لحن الحرب، وأن القذائف لا بُد أن تبدأ في دك أسوار الجزيرة بعد هدوء طويل ظلت فيه هذه القذائف في مواضعها المخبأة بها.

حاصر الفاتح جزيرة لسبوس لمدة سبعة عشر يومًا، كانت فيها القذائف تنهمر على تحصينات الجزيرة ليلًا نهارًا، واستسلم نيقولا الجنوي في دهشة من أمره.

فأين الدفاع عن الجزيرة يا رجل؟!

وأين الدفاع بكل ما أُوتيت من قوة؟!

وأين الهزيمة التي ستكون من نصيب الفاتح؟!

لقد وقف نيقولا خاضعًا ذليلًا أمام الصدر الأعظم محمود باشا قائلًا:

«إنني جئتُ إلى هُنا وحدي، جئتُ أحمل رأسي بين كتفي، وأريدُ مقابلة السلطان محمد، وتركتُ ولدي وابنتي ومالي في الحصن ولا غاية لي إلا مقابلة سلطان الأرض»!

لم يكن السلطان الفاتح بطبيعته الإسلامية يرفض استسلام أي من أعدائه، حتى ولو كان قد سبق لهذا العدو أن تصرف بوقاحة وعجرفة، ولذلك وافق السلطان الفاتح على مقابلة هذا الحاكم المنهار الفاشل، وجاء نيقولا مُعتذرًا، وارتمى تحت قدمي السلطان، وأخذ يبكي بشدة، ويطلب السَماح والغفران!

قبل الفاتح الاعتذار، وعاتب نيقولا على تهوره، ثم عفا عنه وأمَّنهُ على حياته، وأهدى إليه الهدايا، وتركه يمضي مع أسرته في أمان، وانضمت جزيرة لسبوس إلى الدولة العثمانية، واستوطنها العشرات من الأتراك المسلمين مع تعيين أحد القضاة ليقضي فيها بالعدل والتسامح، وهكذا انضمت جزر الأرخبيل كلها إلى الدولة العثمانية في الأسابيع الأولى من عام ٨٦٧ هجرية = ١٤٦٢م.

• عبرة

يا شباب، من الملاحظ على مر التاريخ أن أعداء الأمة لا يتفقون ولا يتحدون إلا في حال وجود عدو مشترك وهو الإسلام، فهم مختلفون حتى ولو ظهر لنا غير ذلك، فقد قال رب العزة سبحانه عن ذلك: {لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ} (الحشر: ١٤).

أي تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين ومتوحدين، وهم ليسوا كذلك في الحقيقة، فهم

مختلفون غاية الاختلاف، ولكن إذا ظهر الإسلام في الأرجاء فيحتشد الأعداء، وينقض الأقرباء، ويجتمع المنافقون؛ لينالوا من أمة كرمها رب الأرض والسماء، وهي خير أمة أخرجت للناس، أمة الإسلام، يجتمعون عليها، وشعارهم المعلن صراحة "دمروا الإسلام أبيدوا أهله".

المغاوير البواسل

تاريخ الإسلام حافل بالتضحية والفدائية في سبيل الإسلام، والفوز برضاء الله سبحانه لا طمعًا في مال أو جاه أو سلطان، وإنما مبعثها الإيمان العميق الصادق النابع من القلب والروح، والحب العميق للشهادة والاستشهاد في سبيل العقيدة، ولم تكن هذه التضحية والبذل والفداء خاصة بالشباب الأقوياء؛ بل كانت من الشباب والشيوخ الكبار، ولم تكن خاصة بالرجال بل شملت الرجال والنساء، ولم تكن خاصة بالبالغين المكلفين فقد شارك فيها الصبيان وحدثاء الأسنان.

وإذا تتبعنا الأحداث التاريخية في الإسلام، والمواقف الحاسمة فيه، والملاحم العظيمة في تاريخنا نجد من صور الفدائية كثرة كاثرة تزري بتاريخ أي أمة أخرى، وها نحن في هذه السطور نعيش سويًا مع واحدة من أعظم ملاحم التاريخ الإسلامي، وهي صد أهل الإسكندرية البواسل أساطيل الصليبيين عند أسوار الإسكندرية، فتعالوا بنا لنعيش سويًا في رحاب هذه البطولة النادرة.

في أواخر سنة ٥٦٩ هجرية تحرك أسطولٌ صليبي ضخم من جزيرة صقلية لغزو مصر، وكان مكون من مائتي سفينة من الحجم الكبير تحمل الرجال، وستة وثلاثين تحمل الخيل، إضافة إلى ستة مراكب كبيرة تحمل آلات الحرب والحصار، وأربعين مركبًا تحمل الأزواد، وكان عدد المقاتلين خمسين ألفًا من المشاة، وألف وخمسمائة من الفرسان، وكانت الحملة بقيادة ابن عم صاحب صقلية وليم الثاني، فوصلوا إلى الإسكندرية في ٢٦ ذي الحجة سنة ٥٦٩ هجرية على حين غفلة من أهلها.

فخرج أهل الإسكندرية بسلاحهم وعدتهم ليمنعوهم من النزول وأبعدوا عن البلد فمنعهم الوالي من ذلك وأمرهم بملازمة السور، حتى لا يقعوا في كمائن الصليبيين.

ونزل الصليبيين إلى البر مما يلي البحر والمنارة، وتقدموا إلى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمنجنيقات، وقاتلوا أشد قتال، وصبر لهم أهل الإسكندرية؛ ولم يكن عندهم من العسكر إلا القليل، ورأى الصليبيين من شجاعة أهل الإسكندرية وحسن سلاحهم ما راعهم.

وسيرت الكتب بالحال إلى صلاح الدين الأيوبي الوزير الأول للدولة في ذلك الوقت، يستدعونه لدفع العدو عنهم، ودام القتال أول يوم إلى آخر النهار، ثم عاود الصليبيين القتال في اليوم الثاني وجدوا ولازموا الزحف حتى وصلت الدبابات إلى قرب السور، ووصل في ذلك اليوم من العساكر الإسلامية كل من كان في أقطاعه وهو قريب من الإسكندرية فقويت بهم نفوس أهلها، وصمموا على القتال حتى الموت.

وفي اليوم الثالث قام المجاهدون من أهل الإسكندرية بهجوم مضاد، حيث فتحوا باب البلد وخرجوا منه على الصليبيين من كل جانب، وكان الهجوم كاسحًا، فارتاع الصليبيين لذلك، واشتد القتال بين الطرفين، واشتد هجوم المسلمين عليهم؛ فتراجع الصليبيون تحت الضغط، حتى وصل المسلمون إلى الدبابات فأحرقوها، ثم تابعوا الهجوم حتى وصلوا إلى معسكر الصليبيين، فصبروا للقتال، فأنزل الله نصره عليهم؛ وظهرت أماراته، ولم يزل القتال إلى آخر النهار؛ ودخل أهل البلد إليها فرحين مستبشرين بما رأوا من تباشير الظفر على عدوهم، وفشل الصليبيين في

صد الهجوم؛ وكثر القتل والجراح في رجالتهم.

وأما صلاح الدين لما وصله الخبر سار بعساكره، وسير ابن أخيه تقي الدين عمر معه ثلاث نجائب ليجدَّ السير عليها إلى الإسكندرية يبشر بوصوله، وسير طائفة من العسكر إلى دمياط خوفًا عليها واحتياطًا لها، فسار تقي الدين عمر فوصل الإسكندرية من يومه وقت العصر والناس قد رجعوا من القتال فنادى في البلد بمجيء صلاح الدين والعساكر مسرعين، فلما سمع الناس ذلك عادوا إلى القتال، وقد زال ما بهم من تعب وألم الجراح وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه فهو يقاتل قتال من يريد أن يشاهد قتاله.

وسمع الصليبيون بقرب صلاح الدين في عساكره فسُقِط في أيديهم فزادوا تعبًا وفتورًا، فهاجمهم المسلمون عند اختلاط الظلام ووصلوا إلى خيامهم فغنموها بما فيها من الأسلحة الكثيرة والتحملات العظيمة، وكثر القتل في رجالة الصليبيين فهرب الكثير منهم إلى البحر، وقرَّبوا شوانيهم إلى الساحل ليركبوا فيها فسلم بعضهم وركب، وغرق معظمهم، وغاص بعض المسلمين في الماء وخرقوا شواني بعض الصليبيين فغرقت فخاف الباقون من ذلك فولوا هاربين، واحتمى ثلاثمائة من فرسان الصليبيين على رأس تل فقاتلهم المسلمون عن بكرة أبيهم، ودام القتال إلى أن أضحى النهار فغلبهم أهل البلد وقهروهم فصاروا بين قتيل وأسير، وكفى الله المسلمين شرهم.

- عبرة

يا سادة، في هذا الخبر صورة جيدة للحروب الدفاعية الناجحة، حيث استطاع أهل الإسكندرية بمعونة بعض أهل القرى المجاورة لهم أن يصدوا حملة بحرية كبيرة مجهزة بأقوى وأضخم العتاد الحربي.

يا شباب، لقد كان أهل الإسكندرية في غاية الشجاعة والإقدام حينما خرجوا لقتال جيش يفوقهم كثيرًا في العدد والعُدد، ولقد أجادوا الخطة الحربية حينما باغتوا رجال العدو وهم آمنين، حيث لم يكن الأعداء يتوقعون أن أهل الإسكندرية يستطيعون مقاومتهم أو يتجرؤون على الخروج لقتالهم.

ونجد أيضًا في هذا الخبر موقفًا فدائيًا في غاية الروعة حينما غاص في البحر بعض المغاوير من المسلمين وخرقوا بعض سفن الأعداء من تحتها فأغرقوها، فهذه عملية في منتهى الخطورة لما يتوقع من هجوم الأعداء بسلاح الرماية عليهم من فوق السفن.

وهكذا استطاع هؤلاء البواسل الأبطال أن يشردوا حملة بحرية كبيرة كان الأعداء قد خططوا لها ليستولوا بها على مصر بعد أن أبادوا كثيرًا من جنودها وعددًا كبيرًا من الأسلحة الثقيلة ووسائل النقل.

وفي هذا الخبر مثل من تطبيق المسلمين لجهاد الفرض العيني، وذلك فيما إذا داهم العدو دار الإسلام، فإن الجهاد يجب على القادر في ذلك البلد ومن حوله حتى تحصل الكفاية في صد الأعداء.

القائد العبقري

برزت شخصيات كثيرة من تاريخنا العظيم، وتألقت في سماء العظائم تطاول عنان السحاب، ولمعت في سجل الخالدين، وبقيت في ذاكرة المحبين تشع بما قدمته لدين الله من جلائل الأعمال ولطائف الأقوال، وفضائل الخصال، ومن الرجال البارزين، والأذكياء النابهين الذين تداركتهم العناية الإلهية، ولاحظتهم عيون السعادة الأبدية، وجعلتهم خدمًا لأفضل البرية، وصار لهم العز الممدود، والخير المعقود الأمير المجاهد والصحابي الجليل عمرو بن العاص رضي الله عنه .

ونحن في هذه السطور نعيش سويًا مع مشهد من أعظم مشاهد التاريخ للأمير المجاهد عمرو بن العاص رضي الله عنه وأرطبون الروم، فتعالوا بنا لنستمتع سويًا بهذا المشهد الفذ الماتع كما جاء في كتب التراجم والسير.

لما انهزم أرطبون في معركة أجنادين الثانية، فر بقواته إلى مدينة إيلياء - بيت المقدس - فنزل أمير الجيش الإسلامي عمرو بن العاص رضي الله عنه أجنادين، ولقد تطورت الأمور بسرعة، وحاصر العدو في موقع واحد هو بيت المقدس، لكن الحصار به قائد تاريخي فذ هو الأرطبون، وسرعان ما تحرك بجيشه نحو هدفه، ونازل الأرطبون القوات الإسلامية المحاصِرة له بقيادة محمد بن عمرو بن العاص رضي الله عنه فتغلب عليها، لكن فجأة جاء الجيش الرئيسي بقيادة عمرو بن العاص فبدأت الحرب من جديد بين أرطبون الروم وأرطبون العرب في القدس بعد هزيمة الأرطبون في أجنادين.

وإيلياء هي قدس الأقداس بالنسبة للنصرانية، والتي يحجون إليها من جميع أنحاء العالم كما يحج لها اليهود، حيث كان هيكل سليمان - فيما يزعمون - فهي عندهما مثل الكعبة عند المسلمين، فلو تخلوا عن كل مواقع في الأرض ما تخلوا عنها ولو ماتوا عن آخرهم، فهي تمثل أقدس ما عندهم في الوجود.

وكتب أرطبون إلى عمرو وقال: «إنك صديقي ونظري أنت في قومك مثلي في قومي، والله لا تفتح من فلسطين شيئًا بعد أجنادين، فارجع ولا تغتر فتلقى ما لقي الذين قبلك من الهزيمة».

وأدرك عمرو من ثنايا الرسالة صدق الأرطبون ترجيحًا، لكنه خشي أن يكون الحديث عن الهزيمة حربًا معنوية نفسية لتحطيم أعصابه، فقرر استعمال الحرب نفسها معه ليصل إلى الحقيقة الناصعة؛ فدعا عمرو بن العاص رجلًا من المسلمين يتكلم الرومية؛ فأرسله إلى أرطبون، وأمره أن يعرب ويتنكر، وقال: «استمع إلى ما يقول حتى تخبرني به إذا رجعت إن شاء الله».

وضرب عمرو في كتابه على الوتر نفسه الذي ضرب عليه الأرطبون في احترام عدوه وتقديره قائلًا له: «جاءني كتابك وأنت نظيري، ومثلي في قومك، لو أخطأتك خصلة تجاهلت فضيلتي، وقد علمت أني صاحب فتح هذه البلاد، وأستعدي عليك فلانًا وفلانًا لوزرائه، فأقرئهم كتابي، ولينظروا فيما بيني وبينك».

إنها حرب الدهاة وتختلف كثيرًا عن حرب الأبطال في المعارك، فقد تنتهي الحرب بينهما بكلمة أو رسالة حرب، عقول تقود أممًا تخطط للسيطرة عليها، لقد اعترف عمرو بفضل الأرطبون أنه

لم تخطئه خصلة من الفضل ولو أخطأته لما عرف فضل عمرو، فلا يعرف الفضل لأهله إلا ذووه.

لكن الدهاء الحقيقي لعمرو ليس في الرسالة، إنما قمة دهائه في أنه يريد أن يستمع إلى المحادثة الخاصة السرية بين الأرطبون ووزرائه، حيث أثاره بهذه الكلمة دون أن ينتبه الأرطبون ثانية إلى احتمال أن يكون الرسول يعرف الرومية، وحين يتكلم مع وزرائه بذات نفسه لا يجد حرجًا في ذلك، بينما يلتقط رجل المخابرات الإسلامي كل خطط العدو وتخطيطاته.

حقًا إن عمرًا شديد البديهة، هذا الدهاء أن يوهم خصمه شيئًا فيدفعه فيه، ليصل من وراء هذا الإيهام إلى شيء آخر، إنها قمة العبقرية التي لم يعرف التاريخ مثيلًا لها، إلا في أمثال هذه القيادات، ووقع الأرطبون ثانية في فخ عمرو، بينما تمكن عمرو في الجولة الماضية في أجنادين أن يفلت من فخ الأرطبون الذي قال عنه: «إنه أدهى الخلق»، ولكن هيهات هيهات أن يفلت الأرطبون من فخ عمرو.

فخرج الرسول على ما أمره به حتى وقف أمام الأرطبون فدفع إليه الكتاب بمشهد من النفر فقرأه فضحكوا وتعجبوا وأقبلوا على الأرطبون فقالوا: «من أين علمت أنه ليس بصاحبها؟»،

وقع الأرطبون في الفخ، ولم يأمر بإخراج الرسول تحرزًا من أن يكون يعرف الرومية، فهذه البديهة البسيطة جدًا خانته، ولم تخن عمرًا من قبل، فأفضى بما عنده من أسرار أمام الرسول، وهو يحس أنه يتكلم مع خاصته وزرائه، فقالوا: «من أين علمت أنه ليس بصاحبها؟»، قال: «صاحبها رجل اسمه عمر - يقصد عمر بن الخطاب - هو الذي سيفتح القدس وليس عمرو بن العاص».

وتحقق هدف عمرو كاملًا، فرجع الرسول إلى عمرو، وقال لن يستسلم القوم إلَا لأمير المؤمنين، ولم يضيع عمرو الفرصة بعد أن عرف الحقيقة عند خصمه اللدود، فكتب إلى عمر يستمده، ويطلب منه ترك المدينة والقدوم إلى الشام ليتحقق الفتح على يديه، وقد كان.

- عبرة

يا شباب، ألا ما أحوج المسلمين اليوم إلى ممثلين لهم بذكاء عمرو ودهائه، خاصة أن معركة المسلمين مع أعدائهم أصبحت في هذا الزمن تعتمد في أكثر مراحلها على التفوق الفكري، ولطالما استفاد القادة المسلمون من العباقرة في تذليل الصعوبات وحل المشكلات وإخضاع الأعداء للخطط التي يريدونها، ولطالما جنَبوا أممهم تضحيات كبيرةَ في الأنفس والأموال بسلوك الخطط التي يرسمها العباقرة وتوجيه أذكيائهم ووجهائهم للتفاوض مع الأعداء.

يا أيها السادة الكرام، إن حسن الصلة بالله تعالى حجر الزاوية في كل الأعمال والأقوال، وهي اللبنة العظمى التي إن اختلت أو ضعفت سقط البناء، وانهدمت الأركان، فالله تعالى يقرب البعيد، ويسهل الصعب، ويفتح الأبواب، ويؤتي العبد سؤاله، وذلك إن صحت النية من العبد، وحسن الإقبال على الله تعالى، وإلا فيا ضيعة الأعمار، ويا خيبة الآمال.

الشهيد الذي خاض البحر

في سبيل ربه

لله رجال ارتسمت على وجوههم سمات العزة والعفة والشرف، وانساقت إليهم المفاخرة من قرونها، ولم تكن لهم أنساب ولا أحساب ولا أموال يتفاخرون بها، ولكن أعزهم الإسلام بعزه الذي لا يرام، وانعكس نور الإيمان من قلوبهم النقية على وجوههم فزانها؛ وإن لم تكن ذات جمال، وظهرت مآثرهم للناس واضحةً جليةً فشهدوا لهم بها، وأحبوهم من أجلها، وخلد التاريخ ذاكراهم فكانوا بعد موتهم أحياء يذكرهم الأخيار في مجالسهم كلما جدَّ الجدّ واحتاجوا إلى القدوة، فالأواخر يكملون ما بناه الأوائل من صروح المجد والشرف، إذا ما أحسنوا القدوة، وأخلصوا النية، وصدقوا الله في القول والعمل، وفي تاريخنا الكثير مثل هؤلاء الرجال الأفذاذ.

ومن هؤلاء الأبطال المغاوير بطل هذه السطور مجزأة بن ثور السدوسي رضي الله عنه أشرس مقاتل في تاريخ، لقد كان رضي الله عنه من أعظم فرسان الإسلام بطولة، وأكثرهم جرأة، وأشجعهم قلبًا، وأعظمهم فدائية، لقد قتل في المبارزة العام في معركة "تُستَر" أكثر من مائة من صناديد فارس وأبطالها، نعم، ألم أقل لكم أنه بطل من أعظم أبطال التاريخ الإسلامي، وفي هذه السطور سنعيش سويًا المشهد الختامي لحياة واستشهاد هذا العملاق العظيم، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد العظيم.

عسكرت جيوش المسلمين حول خندق مدينة تُستر ثمانية عشر شهرًا لا تستطيع اجتيازه، وخاضت مع جيوش الفرس ثمانين معركة، وقد أبلى مجزأة بن ثور في المبارزات قبل المعارك بلاءً أذهل العقول، فقد تمكن من قتل مائة من فرسان الأعداء مبارزة، فأصبح اسمه يثير الرعب في قلوب الفرس، وفي آخر معركة من تلك المعارك الثمانين حمل المسلمون على عدوهم حملة باسلة صادقة فأخلى الفرس لهم الجسور المنصوبة فوق الخندق، ولاذوا بالمدينة، وأغلقوا عليهم أبواب حصنها المنيع.

انتقل المسلمون بعد هذا الصبر الطويل من حال سيئة إلى أخرى أشد سوءًا، فقد أخذ الفرس يمطرونهم من أعالى الأبراج بسهامهم الصائبة، وجعلوا يدلون من فوق الأسوار سلاسل من الحديد، في نهاية كل سلسلة كلاليب متوهجة من شدة ما حميت بالنار، فإذا أراد أحد جنود المسلمين تسلق السور أو الاقتراب منه، علقوها فيه وجذبوه إليهم، فيحترق جسده، ويتساقط لحمه، ويقضى عليه، اشتد الكرب على المسلمين، وأخذوا يسألون الله بقلوب ضارعة خاشعة أن يفرج عنهم، وينصرهم على عدوه وعدوهم.

وبينما كان أبو موسى الأشعري يتأمل سور تُستر الضخم؛ يائسًا من اقتحامه، سقط أمامه سهم قذف نحوه من فوق السور، فنظر إليه فإذا فيه رسالة تقول: «لقد وثقت بكم معشر المسلمين، وإني أستأمنكم على نفسي ومالي، ولكم عليّ أن أدلكم على منفذ تنفذون منه إلى المدينة».

فكتب أبو موسى أمانًا له، وقذفه إليه بالسهم، فاستوثق الرجل من أمان المسلمين، وتسلل إليهم تحت جنح الظلام، وأفضى لأبي موسى بحقيقة أمره فقال: «نحن من سادات القوم، وإن الهرمزان قتل أخي الأكبر، وعدا على ماله وأهله، وأضمر لي الشر، فما عدت آمنه على نفسي

وأولادي، فآثرت عدلكم على ظلمه، وعزمت على أن أدلكم على منفذ خفي تنفذون منه إلى تُستر، فأعطني إنسانًا يتحلى بالجرأة والعقل، ويكون ممن يتقنون السباحة حتى أرشده إلى الطريق».

استدعى أبو موسى مجزأة السدوسي وأسر إليه بالأمر وقال: «أعنى برجل من قومك له عقل وحزم، وقدرة على السباحة»، فقال مجزأة: «اجعلني ذلك الرجل أيها الأمير»، فقال له أبو موسى: «إذا كنت قد شئت، فعلى بركة الله»،

ثم أوصاه أن يحفظ الطريق، وأن يعرف موضع الباب، وأن يحدد مكان معسكر الهرمزان ، وأن يتثبت من شخصه، وألا يحدث أمرًا غير ذلك.

مضى مجزأة بن ثور رضي الله عنه في الظلام مع دليله الفارسي، فأدخله في نفق تحت الأرض يصل بين النهر والمدينة، كان النفق يتسع تارة حتى يتمكن من الخوض في مائه وهو ماش على قدميه، ويضيق تارة أخرى حتى يحمله على السباحة حملًا، وكان يتشعب ويتعرج مرة، ويستقيم مرة ثانية، وهكذا حتى بلغ مكان الهرمزان، فلما رأى مجزأة الهرمزان، هم بأن يرديه بسهم في نحره، لكنه تذكر وصية أبي موسى له بألا يحدث أمرًا، وعاد مجزأة من حيث جاء قبل ساعات من طلوع الفجر.

أعد موسى على الفور ثلاثمائة مجاهد من أشجع المسلمين منهما البراء بن مالك، وجعل عليهم مجزأة بن ثور، وجعل التكبير علامة على دعوة جند المسلمين لاقتحام المدينة، أمر مجزأة رجاله أن يتخففوا من ملابسهم ما استطاعوا حتى لا تحمل من الماء، وحذرهم من أن يأخذوا معهم غير سيوفهم، وأوصاهم أن يشدوها على أجسادهم تحت الثياب، ومضى بهم في الهزيع الأخير من الليل.

ظل مجزأة وجنده الأبطال نحوًا من ساعتين يصارعون عقبات النفق الخطير، ولما بلغوا المنفذ المؤدي إلى المدينة، وجد مجزأة أن النفق قد ابتلع مائتين وعشرين رجلًا من رجاله، وأبقى له ثمانين مجاهدًا فقط.

ولما وطئت أقدام مجزأة وصحبه أرض مدينة تُستر حتى جردوا سيوفهم، وانقضوا على حماة الحصن، ثم وثبوا إلى الأبواب وفتحوها وهم يكبرون، فتلاقى تكبيرهم من الداخل مع تكبير إخوانهم من الخارج، وكان تدفق المسلمون على المدينة عند ساعات الفجر، وضاعت على المسلمين صلاة الفجر في هذا اليوم.

ودارت بين المسلمين والفرس معركة ضروس قلما شهد تاريخ الحروب مثلها هولًا ورهبة، وكثرة القتلى فيه، وبينما كانت المعركة في أعنف مرحلها، رأى مجزأة الهرمزان في ميدان المعركة فاتجه إليه، فما إن اختفى بين المقاتلين وأخفاه عن ناظريه، ثم إنه بدا له مرة أخرى فاندفع نحوه وحمل عليه، وتصاول الرجلان مجزأة والهرمزان بسيفيهما فضرب كل منهما صاحبه ضربة قاضية، قام مجزأة بضرب الهرمزان لكنه لم يصبه، لكن سيف الهرمزان أصاب البطل المغوار - وقيل بل قذفه الهرمزان بسهم - الذي خر صريعًا على أرض المعركة، وعينه قريرة بما حقق الله على يديه من الفتح، ووقع الهرمزان في أيدي المسلمين أسيرًا.

- عبرة

يا شباب، لقد انتدب هؤلاء الأبطال لمغامرة الدخول من مخرج الماء، وكانوا يتسابقون إلى

الموت، فإما الظفر وإما الشهادة، وإن دخول هؤلاء الأبطال وهم يسبحون في الماء يعرضهم لنار العدو، ولكن هؤلاء القوم ألفوا حياة الأهوال، وأصبحت الشهادة أمنية غالية لهم، فهم يتعرضون لمواطنها، والظاهر أن الأعداء لم يتوقعوا من المسلمين الجرأة على اقتحام مدينتهم من ذلك المدخل الخطير، لأن الإقدام على ذلك أشبه بالانتحار، فكان دخول المسلمين منه مفاجأة كبرى مذهلة أطارت صوابهم ومزقتهم شر ممزق.

ولقد كان في هذه المغامرة العظيمة نهاية بطلين من أعظم أبطال المسلمين، وهما البراء بن مالك ومجزأة بن ثور رضي الله عنه حيث رماهما الهرمزان، ولكن هذه النهاية جاءت بعد انتصار المسلمين، وبعد أن قدَم كل واحد منهما سجلًا حافلًا من التضحيات والنكاية بالأعداء، حيث قتل كل واحد منهما في تلك الأيام مائة من الأعداء مبارزة مع من قتلا أثناء المعارك نفسها.

وهكذا قدم أولئك الأبطال تضحيات ضخمةٍ في تلك المعارك التي استمرت عامًا ونصف، وقدموا في غيرها الكثير، وأصبح المسلمون يتفيئون ظلالها ويعيشون ثمراتها قرونا عديدة، وهم ملوك الدنيا وقادة الأمم، إن هذا المُلك العريض الضخم لم يتكونَ إلا بالتضحيات والدماء، لا يجوز أبدًا أن يفرَط فيه الوارثون، فيضعُفوا عن حمايته، ويستسلموا لأعدائهم الذين يتربصون بهم الدوائر.

شجاعة فوق الخيال!

إن التاريخ الإسلامي يزخر ويفخر بكثير من البطولات الحقيقة التي تكون قدوة للشباب المسلم، ولا ينقصنا سوى أن نقلب صفحات التاريخ الإسلامي للتعرف عليها، وذلك عكس الحضارات والأمم والدول الأخرى التي لا يوجد لديها مثل ما لدينا، فنحن لدينا كنز ولكن نجهل قيمته الحقيقة، ولذلك تجد هؤلاء يعمدون إلى خلق قدوات ولو وهمية لشبابهم حتى يسيروا عليها وعلى نهجها، فتاريخنا كنز عظيم مهيب، لكن أهله للأسف يجهلون طريقه؛ ويتركون الأعداء يعيثون فيه بالتغيير والتحريف والتشويه.

ونحن في هذه السطور نعيش مع بطل من أصحاب البطولات الخارقة في تاريخ، نعم رجل مغمور من عامة الجيش، لكنه كان من أحد أهم الأسباب في فتح أحد أهم مدن الشام وهي مدينة حمص الباسلة، فتعالوا بنا لنعيش سويًا مع المشهد الختامي في حياة بطلنا شرحبيل بن حمير رضي الله عنه .

خرج أهل حمص في جمع عظيمٍ لمواجهة المسلمين فرماهم أبو عبيدة بن الجراح بخالد بن الوليد رضي الله عنه ، فأقبل خالد بقواته ناحية حمص، فلما نظر خالد إلى قوات الروم الهائلة، قال: «يا أهل الإسلام الشدة الشدة»، ثم حمل خالد عليهم؛ وحمل المسلمون معه، فولوا منهزمين حتى دخلوا مدينتهم.

وقد بعث خالد بن الوليد مسروق العبسي رضي الله عنه في فرقة من خيالة المسلمين فاستقبل خيلًا لهم عظيمة عند نهر قريب من حمص، واقتتلوا في معركة عنيفة، استطاع المسلمون فيها هزيمة الروم هزيمة نكراء، ولقد أبلا شرحبيل بن حمير في هذه المعارك أعظم البلاء، وكان كنقمة القدر على الروم.

وهكذا كان النصر حليف المسلمين إلا في الشاذ النادر مهما قلوا وكثر أعداؤهم، وإن يكن ذلك عجيبًا فأعجب من ذلك، أن فارسنا البطل شرحبيل بن حمير رضي الله عنه انفرد عن بقية الجيش، فعرض له بعض فرسان الروم، فحمل عليهم فقتل منهم سبعة، ثم جاء إلى نهر قبل حمص عند دير مسحل؛ فنزل عن فرسه وسقاه.

وجاءه نحو من ثلاثين فارسًا من فرسان أهل حمص، فلما رأوه رجلًا واحدًا أقبلوا نحوه وراء النهر، فأقحم فرسه في الماء، وعبر إليهم، ثم ضرب فرسه، وحمل عليهم في كل حملة يقتل رجلًا حتى قتل أحد عشر رجلًا منهما، وفروا منه حتى انتهوا إلى دير مسحل، فاقتحموا جوف الدير، واقتحم شرحبيل معهم، فرماه أهل الدير بالحجارة حتى سقط شهيدًا.

- عبرة

يا شباب، إن مثار العجب كيف يتصدى فارس واحد لمجموعة من الفرسان فيقتل منهم ويفر بقيتهم أمامه، ثم تأتى مجموعة أخرى يحول بينه بينهم النهر فيطمعون فيه فلا ينتظر حتى يعبروا إليه، بل يقحم فرسه ويعبر إليهم، ولا شك أن إقدامه هذا أوقع الرعب في قلوبهم فصار يقتل منهم حتى فروا ولجؤوا إلى ذلك الدير، وأخيرًا غدروا به كفعل الجبناء الذين لا يواجهون في الميدان إنما يدافعون من الأبراج المحصنة.

وإذا كان هذا خبر فارس مغمور ليس له ذكر في التاريخ فكيف بالفرسان المسلمين الذين ملئوا صفحات التاريخ بطولة وفداءً؟ وإن جيشًا يكون هذا أحد أفراده العاديين لا يمكن أن يُغلب بإذن الله تعالى.

العلم الرباني

الثبات حتى الممات، هو شعار علماء الأمة الربانيين، الذين لا يتنازلون عن الحق ولا يحيدون عنه قيد أنملة، مهما تقلبت بهم الأحوال، وعظمت عليهم الخطوب، فهم حماة الدين، وحراس الشريعة، وجند الحق، يعلمون أن أعظم المهام المنوطة بهم هي الحفاظ على معالم الدين، والتصدي للمخالفين للأمور الدين، ومواجهة من يخالف أي أمر للشريعة حتى لو كان أعظم سلاطين الأرض.

أخطُ في هذه السطور قصة رجلًا لا يخشى في الله لومة لائمة، رجلًا من عمالقة التاريخ الإسلامي ليس سلطانًا أو فاتحًا، بل كان مجاهدًا بقلمه ولسانه لا بسيفه، إنه شيخ الإسلام علاء الدين علي بن أحمد الجمالى الشهير في التاريخ ب»زنبللي علي أفندي» رحمه الله، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد الخالد لهذا الشيخ العظيم.

كان السلطان سليم الأول شديد البطش بأي خارج على القانون، ففي يوم أمر بقتل مائة وخمسين رجلًا من حفاظ الخزائن في قصر توب كابي بسبب تقصيرهم في أمور الدولة، فقد اختلس بعضهم من مال الدولة، فلما سمع شيخ الإسلام علاء الدين علي بن أحمد الجمالى زنبللي علي أفندي ذهب إلى السلطان سليم في الديوان العالى فورًا، فقام الوزراء له احترامًا وأجلسوه في رأس المجلس، وقال للوزراء: «أريد أن أقابل السلطان»، فعرضوا الأمر على السلطان، فوافق على مقابلة الشيخ فورًا.

فلما دخل عليه قال: «مولاي السلطان، بالإضافة للوظيفة الموكلة لشيخ الإسلام في بيان الفتوى الشرعية في أمور الدنيا والدين، فإن من وظيفة أرباب الفتوى أيضًا أن يحافظوا على آخرة السلطان ومصيره، والتحذير من الوقوع في المنهيات في أمور الدنيا؛ وقد بلغني أنك أمرت بقتل مائة وخمسين رجلًا لا يجوز قتلهم شرعًا، فيجب يا مولاي أن تعفو عنهم، لأن بالنظر إلى سبب الإعدام فهو ليس بسبب شرعي».

غضب السلطان سليم من كلام الشيخ، وقال: «إنك يا شيخنا، تتعرض لأمر السلطان وليس ذلك من وظيفتك»، فأجابه الشيخ علي أفندي: «يا مولاي بل أتعرض لأمر آخرتك، وإنه من وظيفتي التدخل فيه، فإن عفوت فلك النجاة، وإلا فعليك عقاب عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين».

فانكسرت عند هذا القول حدة السلطان وعفا عن الموظفين، وتحدث مع المفتي ساعة في أمور الدين، ولما أراد المفتي أن ينصرف قال للسلطان: «مولاي تكلمت معك في أمر آخرتك، وبقي لي كلام متعلق بالمروءة»، قال السلطان: «ما هو؟»، قال المفتي: «إن هؤلاء من رجال السلطان، فهل يليق بعرض السلطنة أن يتكفّفوا الناس؟»، فقال السلطان: «لا»،

فقال الشيخ: «مولاي قرهم في مناصبهم»، فقال له السلطان: «نعم، إلا أني أعزرهم في تقصيرهم في خدمتهم للأمة»،، فقال المفتي: «هذا جائز لك، لأن التعزير مفوض إلى رأي السلطان».

وفي مرة أخرى أمر السلطان بقتل أربعمائة رجل، كانوا قد اشتروا الحرير خلافًا لأمر السلطان،

فعارضه المفتي علاء الدين علي في ذلك، فغضب السلطان أيضًا، وقال: «أيها المولى أما يحل قتل المخالفين لأمر السلطان لنظام الباقي؟»؛ فقال: «نعم، لكن إذا كان هناك خلل عظيم، وهذا الأمر صغير»، فقال السلطان: «ليست هذه من وظيفتك يا سيدي»، فقال له: «بل هي من وظيفتي لأنها متعلقة بالآخرة»، وانصرف المفتي علاء الدين علي ولم يُسلّم على السلطان، فبقي السلطان واجمًا مدة طويلة من تقريع المفتي له، وعدم السلام عليه، ولكنه عاد فعفا عنهم، إجابة لطلب المفتي، ثم فكر في استقامة هذا المفتي وولاه قضاء العسكر، وقال له: «يا سيدي، إني تحققت أنك تتكلم بالحق، ولا تخشى في الله أحدًا».

- عبرة

يا سادة، لقد عاش المولى علاء الدين علي رحمه الله متواضعًا خاشعًا، طاهر القلب، عفيف اللسان لا يذكر أحدًا بسوء، وكانت أنوار العبادة تتلألأ على صفحات وجهه الطاهر، وكان رحمه الله يقعد في أعلى داره وله زنبيل معلق فيلقي المستفتي ورقته في الزنبيل ويحركه فيجذبه المولى علاء الدين ويأخذ الورقة ويكتب جوابها، وذلك حتى لا ينتظر الناس لأجل الفتوى.

يا شباب، إن الحياة لا تخلو من الشدائد، وإن الأمل والأمن، والرضا والحب، والسكينة النفسية، ثمارٌ شهية لغراس العقيدة في نفس المؤمن، وذخائر لا تنفد لإمداده في معركة الحياة، وإنها لمعركة طويلة الأمد، كثيرة التكاليف، محفوفة بالأخطار والمشقات، وذلك أن طبيعة الحياة الدنيا، وطبيعة البشر فيها، تجعلان من المستحيل أن يخلو المرء فيها من كوارث تصيبه، وشدائد تحل بساحته، فكم يخفق له عمل، أو يخيب له أمل، أو يموت له حبيب، أو يمرض له بدن، أو يفقد منه مال، أو... أو... إلى آخر ما يفيض به نهر الحياة.

أحياهم الله بالجهاد

من لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد، كان هذا شعارهم، قوم اختارهم الله ليقودوا السفينة، كانت نفوسهم كبيرة تعبت بمرادها الأجسادُ، اختاروا العيش بحياة كريمة، وإلا فالموتُ لهم سبيل، لقد غامروا لطلب شرف رفيع، وأيقنوا أنَّ الموت لا بُدَ منه فرأوا من العيب أن يموتوا جُبناء، لذلك طلبوا الموت بعزة، وطلبوا المعالي، والمعالي ليست رخيصة.

فانتصروا وسطروا تاريخًا عقم الزمان أن يأتي بمثله، كانوا يقولون للصخر أفسح المجال لنا، فنحن أعمدة الفداء، نحن رجال الخلود من سُؤدد المجد طريقنًا، لن نقف قبل تحقيق المنى ونبذل الروح دونه، نُسطر في التاريخ صفحات ساطعات بسيوفنا، نحنُ كالأسود لا نهاب شيئًا، نخوضُ غمار الحرب نريد الموت ثمنًا لديننا، هكذا كان كلامهم، ولم يكن كلامًا فحسب بل كان فعلًا وعملًا سجَله التاريخ وخلده.

ونحن هنا في هذه السطور مع عملاق من هؤلاء الرجال، رجلًا كان شجاعًا في زمان الجبناء، بطل في زمان الأنذال، لقد كان رحمه الله رجلًا كريمًا في زمان اللئام، رجل عاش حياته لربه ودينه ووطنه، إنه الأمير السلجوقي العملاق شمس الدين الطغرائي رحمه الله، فتعالوا بنا لنستمتع بقصة هذا الرجل العملاق مع التتار.

يعلم القارئ للتاريخ أن التتار بدأوا حربهم بالصين، ومروا بكازاخستان، وأوزبكستان، وتركمانستان، وأفغانستان، وأذربيجان، وأرمينيا، وجورجيا، ثم شمال العراق، كل هذا في سنة واحدة فقط، وهي سنة ٦١٧ هجرية، حتى ألفيتُ ابن الأثير – وهو شاهد عيان على اكتساح التتار الأول للعالم الإسلامي فقد مات ٦٢٨ هجرية – يذكُرُ هذا ويقول: «هذا لمْ يُسمع بمثلهُ من قديم الزمان وحديثه، وقد يأتي من بعدنا، ويرى الحادثةَ مسطورة فيُنكرُها، لكن العالم والجاهل عندنا يستوى في معرفتها لشهرتها».

وكان التتار عندما يدخلون البلاد يضعُون السيف في أهلها، ولا يُبقون أحدًا لا امرأة ولا طفلًا ولا شيخًا، لا فرق عندهم بين صغيرًا ولا كبيرًا، حتى إن المرأة منهم كانت تدخل الدار، فتقتل جماعة من الرجال، بل إن تتريًا واحدًا دخل ساحة فيها مائة مسلم، فما زال يقتلهم واحدًا بعد آخر، ولم يمُدَ أحدٌ يده إليه بسوء، فإذا انتهوا حملوا ثروات البلد معهم، وما عجزوا عن حمله كالحرير الثمين فإنهم يجعلونه كأمثال التلال، ويُضرمُون فيه النار!

وظل السيل العارم في اجتياح الدول والمدن حتى وصل التتار إلى مدينة تبريز المدينة الإيرانية الكبيرة، وكان التتار قد رضوا سابقًا بالمال والثياب والدواب من صاحبها المخمور أوزبك بن البهلوان، ولم يدخلوها لأنهم جاءوا إليها في الشتاء القارس، أما الآن وقد تحسن الجو، وصفت السماء، فلا مانع من خيانة العهود، ونقض المواثيق.

ولكنهم في طريقهم إلى تبريز علموا بأمر قد جدّ على هذه المدينة الباسلة، لقد رحل عنها صاحبها المخمور أوزبك، وتولى قيادة البلاد رجل بطل مغوار هو شمس الدين الطغرائي، وقد كان رحمه الله رجلًا مجاهدًا يفقه دينه ودنياه، فقام رحمه الله يحمس الناس على الجهاد في

سبيل الله، وعلى إعداد القوة لهذا العدو الغاشم، وقوّى قلوبهم على الامتناع، وحذرهم عاقبة التخاذل والتواني، وعلمهم ما عرفوه نظريًا ولم يطبقوه عمليًا في حياتهم على الإطلاق،

علمهم أن الجهاد يحيي العباد ولا يميتهم، وأن الإنسان لا يموت قبل ميعاده أبدًا، وأن رزقه وأجله قد كُتبا له قبل أن يولد، وأن المسلمين مهما تنازلوا للتتار فلن يتركوهم، إلا إذا احتمى المسلمون وراء إيمانهم وسيوفهم ودروعهم، أما بغير قوة فلن يُحمى حق على وجه الأرض.

فسمع الناس له، وتحركت الحمية في قلوب أهل تبريز، وقاموا مع قائدهم البار يحصنون بلدهم، ويصلحون الأسوار، ويوسعون في الخندق، ويجزون السلاح، ويضعون المتاريس، ويرتبون الصفوف، لقد تجهز القوم للمرة الأولى منذ زمن للجهاد.

سمع التتار بأمر المدينة، وبحالة العصيان المدني فيها، وبحالة النفير العام لكل شعب تبريز، وسمعوا بدعوة الجهاد التي دبت في أرجاء المدينة، والتجهيز للقتال حتى الموت لآخر إنسان في المدينة؛ سمع التتار بكل ذلك، فماذا فعلوا؟!

قد يعتقد البعض يا سادة أن التتار قد غضبوا وأرعدوا وأزبدوا، وغلت الدماء في عروقهم، وعلت أصواتهم، وجمعوا جيوشهم من البلاد المجاورة، وعزموا على استئصال المدينة المتهورة.

أبدًا لم يحدث أي شيء من ذلك، لقد أخذ قائد التتار قرارًا عجيبًا، لقد قرروا عدم التعرض للمدينة، وعدم الدخول في قتال مع قوم قد رفعوا راية الجهاد في سبيل الله، لقد ألقى الله الرعب في قلوب التتار على كثرتهم من أهل تبريز على قلتهم.

لقد فعل الجهاد فعله المتوقع، بل إن القوم لم يجاهدوا، ولكنهم فقط عقدوا النية الصادقة، وأعدوا الإعداد المستطاع، فتحقق الوعد الرباني، وهو وقوع الرهبة في قلوب أعداء الأمة، وهذا درس لا يُنسى.

- عبرة

يا شباب، هذا الذي حصل للمسلمين في الرعب من التتار، وعدم الإقدام على مواجهتهم يعتبر مثلًا للإخلاد للراحة والنعيم، والبعد عن الحياة الجهادية، فهؤلاء المئات من الألوف في إيران ومن قبلهم مئات الألوف من المسلمين في بلدان المشرق لو أنهم كانوا متدربين على القتال ويملكون الروح الجهادية لاستطاع أهل كل بلد أن يدافعوا عن أنفسهم ولضعُف التتار عن مقاومة جميع أهل تلك البلاد، ولقد رأينا في هذا الموقف عندما أعلن أهل تبريز الجهاد فقط، ألقى الله الرعب في قلوب جيوش التتار.

يا شباب، للإيمان أثر في النفوس، وطعم في القلوب، أطيب لدى المؤمنين من الماء العذب البارد عند الظمأ، وأحلى من طعم العسل بعد طول مرارة المذاق، وهذه المحبة وذاك الطيب، لا يشعر بهما ولا يجد لذتهما إلا من استكمل إيمانه، وصدقت محبته لله تبارك وتعالى ولرسوله ﷺ، وأثمرت في جوانب نفسه، فأصبح لا يحب إلا لله، ولا يبغض إلا لله، ولا يعطي إلا لله، ولا يمنع إلا لله، فحلاوة الإيمان معناها الصبر على المشقة، واستعذاب العذاب في سبيل الله عز وجل، وهكذا عاش هذا البطل.

أسد ميافارقين الثائر

إن السر في عظمة المقاتل الذي يقاتل في سبيل إعلاء كلمة لا إله إلا الله أنه أحرص على الموت مثل حرص أعدائه على الحياة، وكان هذا هو السر في عظمة هذا البطل المغوار، فإن من يرى هذا البطل وهو غيره من المجاهدين وهم يقاتلوا لا يستطيع أن يصدق نفسه من أول وهلة، فهو يرى رجالًا لا يقاتلون من أجل الفوز والنصر فحسب، بل يقاتلون من أجل الفوز بالشهادة، فكل منهم يبحث عن الجنة أينما كانت، وكيفما كان الطريق إليها شاقًا وصعبًا وشعارهم في ذلك الله والجنة، لذا يجب علينا أيها الأخوة أن يكن شعارنا دائمًا الله والجنة.

ومن هؤلاء المغاوير الأبطال بطل قصتنا الأسد الباسل حفيد بطل حطين المغوار صلاح الدين الأيوبي أمير مدينة ميافارقين الكامل محمد الأيوبي رحمه الله – وهو غير الكامل محمد حاكم مصر -، فتعالوا بنا لنستمتع في هذه السطور مع قصة هذا البطل الباسل في مواجهة التتار.

بعد سقوط عاصمة الخلافة العباسية بغداد على يد التتار، وقتل أكثر من مليون إنسان من أهلها، بدأ المنبطحون من الأمراء المسلمين يؤكدون ولاءهم للتتار ويعقدون الأحلاف معهم؛ مثل: بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل، وكيكاوس الثاني، وقلج أرسلان الرابع من منطقة الأناضول – وسط وغرب تركيا الآن -، والأشرف الأيوبي أمير حمص، والناصر يوسف الأيوبي أمير حلب ودمشق – وهو حفيد السلطان صلاح الدين، ويحمل نفس اسمه -، وعلى الرغم من أن هؤلاء الأمراء يمثلون معظم شمال العراق وأرض الشام وتركيا، إلا أن هناك مشكلة ظهرت أمام هولاكو وهي أحد الأمراء الأيوبيين الذي رفض أن يرضخ للتتار، وقرر أن يجاهدهم إلى النهاية.

كان ذلك هو الأمير الكامل محمد الأيوبي أمير منطقة ميافارقين – وهي مدينة تقع الآن في شرق تركيا – وكانت جيوش الكامل محمد كذلك تسيطر على الشمال الغربي من العراق، وعلى الشمال الشرقي من سوريا، وكان هولاكو يريد أن يحتل سوريا، فليس أمامه إلا أن يجتاز المنطقة التي تحت سيطرة الكامل محمد، وبالتالي لا بُد من إخضاع إمارة ميافارقين بالقوَّة خاصة أنها مدينة حصينة جدًا.

حاول هولاكو إرهاب الكامل، فأرسل إليه رسولًا عربيًا نصرانيًا يدعوه إلى التسليم بدون شروط، وكان يدعى قسيس يعقوبي، وقد أرسله هولاكو لأنه يستطيع التفاهم مع الكامل محمد بلغته، ولينقل له قوة هولاكو، وهو من ناحية أخرى نصراني، وذلك حتى يلفت نظر الكامل محمد إلى أن النصارى يتعاونون مع التتار كغيرهم.

وهكذا أصبح الكامل محمد الأيوبي كالجزيرة الصغيرة المؤمنة في وسط خضم هائل من الأعداء والعملاء؛ فمن الشرق أرمينيا النصرانية، ومن الشمال الشرقي مملكة الكُرْج - جورجيا الآن - النصرانية، ومن الجنوب الشرقي إمارة الموصل وصاحبها العميل بدر الدين لؤلؤ، ومن الغرب إمارات السلاجقة وصاحبها العميل قلج أرسلان، ومن الجنوب الغربي إمارة حلب وصاحبها الخائن الناصر يوسف ابن عم الكامل.

أعلن الكامل الحرب على هولاكو بقتل الرسول، فجهز هولاكو على الفور جيشًا كبيرًا، ووضع على رأسه ابنه أشموط، وتوجه الجيش إلى ميافارقين مباشرةً، ومعه جيوش مملكتي أرمينيا

والكُرْج وقد بدأ حصار المدينة في شهر رجب سنة ٦٥٦ هجرية، وكان ذلك بعد تدمير حاضرة العالم وعاصمة الخلافة العباسية بغداد بأربع شهور فقط، وصمدت المدينة الباسلة وحدها، وظهرت فيها مقاومة ضارية، وقام الأمير الكامل محمد يشجع شعبه، على الثبات والجهاد حتى الموت.

لقد كان رحمه الله كريمًا في زمان اللئام، شجاعًا في زمان الجبناء!، وبعد حصار استمر عامًا ونصف سقطت مدينة ميافارقين الباسلة، واستبيحت تمامًا فقد جعلها أشموط - لعنة الله عليه وعلى أبيه وجده - عبرة لكل بلد يقاوم، فقتل التتار كل سكانها، وحرَّقوا ديارها، واحتفظوا بالأمير الكامل محمد حيًّا، وذهب به قائد التتار إلى أبيه هولاكو، وهو في حصار مدينة حلب.

فقيده هولاكو، واستجمع هولاكو كل شره في الانتقام من الأمير البطل بعد أن قيده أخذ يقطع أطرافه وهو حي بل أنه أجبره أن يأكل من لحمه، وظل هذا التعذيب البشع إلى أن أذن الله عز وجل لروح هذا المجاهد أن تصعد إلى بارئها، وعُلِّقَ رأسه فترة على باب الفراديس بدمشق، ثم دفن بالمسجد الذي عُرف بالرأس بعد ذلك.

- عبرة

يا شباب، إن الإخلاد إلى الراحة والبعد عن الحياة الجهادية من الأمور المخالفة لسنة رسول الله ﷺ وسنة أصحابه، حيث لم يكن في عهدهم أناس مخصوصون للقتال وبقية المسلمين لا شأن لهم بذلك، بل إن الصحابة رضي الله عنهم كانوا كلهم مجاهدين، وحينما داهمت جيوش المشركين المدينة في أُحُد والأحزاب خرج المسلمون بقيادة النبي ﷺ للقتال حتى إنه قد خرج الكثير من الشيوخ الكبار والنساء وبعض الأطفال.

ولقد ظلت هذه الروح الجهادية والمقدرة على القتال عند المسلمين في عصورهم الأولى، وقد تقدم ذكر أمثلة كثير في هذا الكتاب، ثم خبتْ هذه الروح الجهادية شيئًا فشيئًا حتى نسى كثير من المسلمين الجهاد، وأصبحوا عاجزين حتى عن الدفاع عن أنفسهم، وقد ظهر هذا العجز جليًا في استسلامهم وتذللهم للتتار بدون مقاومة تذكر.

السلطان الذي ألقى بخوذته على الأرض

إنَّ الإنسان لا يستطيع أن يعيش حاضره، ولا أن يدرك مستقبله إلا بعد أن يأخذ الدروس والعبر من ماضيه، ونحن أمة قد امتن الله عليها بباقة عطرة من الرجال الأفذاذ الأتقياء الذين يندر وجودهم في أي أمة من الأمم على مدى العصور والأزمان، وإني والله كلما قلَّبت الصفحات في سير العمالقة والعظائم في تاريخنا، كنت أتعجب وأقول في نفسي: «كيف لأمة عندها كل هذه الذخائر من العظائم أن تكون في ذيل الأمم، وكيف لا يعلم شبابنا وفتياتنا تلك الأخبار لتكون لهم قدوة ونورًا يضئ لهم الطريق إلى عز وجل، بل وليقتدوا بهم في أفعالهم وأقوالهم فإن التشبه بالرجال فلاح».

ونحن في هذه السطور نعيش بقلوبنا مع موقف عظيم لقائد من أعظم قادة الإسلام، وبطل من أكبر أبطال الحروب في تاريخ، إنه سلطان مصر المظفر سيف الدين قطز رحمه الله، فتعالوا بنا لنعيش سويًا مع هذا الموقف البطولي العظيم الرائع في معركة سهل عين جالوت الخالدة.

حينما أحاطت قوات المسلمين بالتتار إحاطة السوار بالمعصم في موقعة عين جالوت، وتم حصار قوات التتار داخل سهل عين جالوت، وكانت المعركة ضارية بشعة، أخرج التتار فيها كل إمكانياتهم، وبدءوا يقاتلون بحمية بالغة والمسلمون صابرون ثابتون، هنا ظهرت قوة وتفوق ميمنة التتار - كما ذكرت الاستخبارات الإسلامية قبل المعركة -، وبدأت الميمنة التترية تضغط على الجناح الأيسر للقوات الإسلامية، وبدأت قوات المسلمين تتراجع تحت الضغط الرهيب للتتار، وبدأ التتار يخترقون الميسرة الإسلامية، وبدأ الشهداء يتساقطون على أرض المعركة.

ولو أكمل التتار اختراقهم للميسرة فسيلتفون حول الجيش الإسلامي، وتتعادل الكفتان بذلك، وقد ترجح كفة التتار، ويصبح إغلاق السهل كارثة على المسلمين.

وكان قطز رحمه الله يرى المعاناة التي تعيشها ميسرة الجيش فدفع إليها بفرقة من القوات الاحتياطية، ولكن الضغط التتري استمر، والمسلمون يتساقطون، وبدأ البعض يشك بالنصر، ولا ننسى السمعة المرعبة لجيش التتار الذي قيل عنه إنه لا يهزم، لكن الموقف تأزم جدًا رغم نزول القوات الاحتياطية إلى أرض المعركة.

هنا لم يجد السلطان قطز إلا حلًا واحدًا لا بديل عنه هو أن ينزل إلى المعركة بنفسه في هذا الوقت، لا بُد أن يتثبت جنوده بالطريقة التي اعتادها معهم - وهي طريقة القدوة -، لا بُد أن يوضح لجنوده بطريقة عملية أن الموت في سبيل الله أغلى ما يحصل عليه المؤمن في هذه الحياة، نحن نريد الآخرة وهم يريدون الدنيا وشتان بين الفريقين.

لقد ألقى السلطان بخوذته على الأرض تعبيرًا عن اشتياقه للشهادة، وعدم خوفه من الموت، وأطلق صيحته الشهيرة التي تتردد حتى الآن: «وإسلاماه... وإسلاماه»، والتي قلبت موازين المعركة.

لقد ألقى قطز بنفسه وسط الأمواج المتلاطمة من البشر، وفوجئ الجنود بوجود السلطان المظفر في وسطهم، يعاني مما يعانون، ويشعر بما يشعرون، ويقاتل كما يقاتلون، هنا التهب حماس الجنود وهانت عليهم جيوش التتار وحملوا عليهم؛ وانطلقوا في جسارة نادرة يصدون

الهجمة التترية البشعة على الإسلام، واشتعل القتال في سهل عين جالوت، وعلا صوت الفلاحين بتكبير على كل شيء، ولجأ المسلمين إلى ربهم في هذا اليوم المجيد، الذي لن ينسى في تاريخ البشر إلى قيام الساعة.

وقاتل قطز رحمه الله قتالًا عجيبًا قتال من يبحث عن الشهادة، وقد صوب أحد التتار سهمه نحو قطز فأخطأه ولكنه أصاب الفرس الذي كان يركب عليه فمات الفرسُ، فترجل السلطان رحمه الله وظل يقاتل على الأرض ماشيًا لا خيل له، وما تردد لحظة، وما نكص على عقبيه، وما حرص على حياته قط، وقد رآه أحد الأمراء وهو يقاتل ماشيًا فجاء إليه مسرعًا، وتنازل له عنه فرسه إلا أن قطز رفض ذلك وقال: «ما كانت لأحرم المسلمين نفعك!»،

وظل رحمه الله يقاتل ماشيًا إلى أن أتوه بفرس من الخيول الاحتياطية!

وقد لامه بعض الأمراء على ذلك وقالوا له: «لماذا لم تركب فرس فلان؟ فلو أن بعض الأعداء رآك لقتلك؛ وهلك الإسلام بسببك»، فقال السلطان رحمه الله في يقين رائع: «أما أنا كنت أروح الجنة، وأما الإسلام فله رب لا يضيعه، وقد قُتل فلان وفلان» حتى عدّ خلقًا من الملوك مثل عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين وغيرهم رضوان الله عليهم، فأقام الله للإسلام من يحفظه غيرهم ولم يضع الإسلام.

على أكتاف أمثال هؤلاء يا سادة تنهض الأمم، ونتيجة لهذا الموقف الرائع أدت القوات الإسلامية أداءً راقيًا جدًا في القتال، وأخرج الجنود كل إمكانياتهم، فلم تكن القضية عندهم قضية موت أو حياة كالتتار، بل كانت إما نصرًا أو شهادة.

• عبرة

يا شباب، هذا الموقف الجليل لهذا السلطان البطل دل على تواضعه وعدم اهتمامه بحظ نفسه في سبيل مصلحة المسلمين العامة، كما يدل على تذكره عظمة الإسلام والهدف العالى الذي ينشده المؤمنون حقًا وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والجنة.

لقد تبين لنا الدور العظيم للمظفر قطز رحمه الله في نجاح المسلمين في تلك المعركة حيث كانوا من قبل إذا انهزمت طائفة منهم انهزموا أمام التتار، ولكنه استطاع بمن معه من الأبطال أن يسدَ تلك الثغرة التي انفتحت بانكسار ميسرة جيش المسلمين، ولقد كان لتشجيعه الجيش – وهو القائد والسلطان – الأثر الكبير في ثبات أفراده حتى تحقق لهم النصر بإذن الله تعالى.

لقد دخل المظفر قطز تلك المعركة وهو على يقين قوي وثقة كاملة بنصر الله تعالى له ولجنده، كما كان الصحابة رضي الله عنهم يدخلون المعارك وهم يحملون في أفكارهم وعد النبي ﷺ لهم بالتمكين في الأرض.

ولقد كان الأمراء والجنود كذلك على درجة عالية من الثقة واليقين بالنصر، فقد كان ذلك دافعًا قويًا لهم إلى بذل كل ما يستطيعون من طاقة في سبيل الله تعالى، وبذلك انتصروا على أعدائهم، وبعد هذه المعركة الخالدة تجرأ المسلمون على أعدائهم من التتار، وكانت لهم معهم مواقف جهادية مشرفة.

السلطان المجاهد

لا شك أن أعلى وجوه الفداء وأكثرها خيرًا وأثرًا، هو أن يكون قائد المجاهدين أحرصهم على روح البذل والفداء، حتى يعطي القدوة من نفسه فإذا الذين من ورائه يسارعون إلى مواطن التضحية بلا تردد ولا إبطاء، وتاريخ الإسلام العظيم يعرض علينا الكثير من نماذج القادة الذين كانوا أسوة حسنة لجنودهم في الحرص على صدق الجهاد، وروعة التضحية والفداء، ومن هؤلاء الرجال كان العملاق العظيم محمد الفاتح رحمه الله، الذي كان من أكبر أبطال المسلمين وحماتهم، فقد كان رحمه الله لا يحب الابتعاد عن الميدان والجهاد، وقد ناضل نضالًا كريمًا طوال حياته حتى لقى ربه وهو في طريقه لفتح إيطاليا.

وها نحن في هذه السطور نعيش سويًا مع أحد أعظم مشاهد الفداء والتضحية في التاريخ لهذا العملاق العظيم، فتعالوا بنا لنستمتع بهذا المشهد البطولي الفريد.

في أوائل الربيع من سنة ٨٨٠ هجرية = ١٤٧٦م خرج السلطان محمد الفاتح بجيش عملاق لتأديب حاكم البوغدان استفان الأكبر - وكان طاغية مجرم يصفه المؤرخون بأنه أخدع وأمكر من الشيطان - لما قام به من أعمال اللصوصية والتخريب في بلاد المسلمين.

زحف السلطان بجيشه حتى دخل منطقة البوغدان فوجدها خاوية، فقد انتهج استفان طريقته الأولى في الحرق والتدمير فلم يبقِ على أخضر ولا يابس ورحّل السكان إلى الجبال والشعاب وكل متمنع من الأرض ثم اتخذ له مكمنًا في وادي رسبوكني مع جنده بين الأشجار الكثيفة المتلاصقة، ولولا أن السلطان الفاتح قد أعد لهذه الحملة الزاد الكثير والميرة الوفيرة لهلك الجيش ونفقت الخيل جوعًا.

أحس المسلمون وهم يجتازون البقاع الجرداء المقفرة التي أكلتها النار أن شيئًا هائلًا سيحدث وقتالًا عنيفًا سينشب، ولم يكادوا يتقدمون بعد ذلك خطوات أخرى حتى انهمرت عليهم نيران المدافع الشديدة من بين الأشجار وانبطح جنود الانكشارية على وجوههم، وكاد الاضطراب يسود صفوف الجيش لولا أن سارع السلطان الفاتح وتباعد عن مرمى المدافع.

وعنَف رئيس الانكشارية محمد الطرابزوني على تخاذل جنده، ثمَ صاح فيهم بمقولةٍ عظُمت في نفوسهم وأعطت لهم كلماتُه الجأش والعزة فرموا الخوف وراءهم ظهريا وربطوا النصر المؤكد في ساحتهم فقال: «أيها الغُزاةُ المجاهدون كونوا جُند الله ولتكُن فيكم الحمية الإسلامية»،

وأمسك السلطان بالترس واستلَ سيفه وركض بحصانه واندفع به إلى الأمام لا يلوى على شيء وألهب بذلك نار الحماس في جنده فانطلقوا وراءه واقتحموا الغابةَ على من فيها ونشب بين الأشجار قتالٌ عنيف بالسيوف استمر من الضحى إلى الأصيل.

ومزق العثمانيون الجنود البوغدانية شرَ ممزق، ووقع استفان من فوق ظهر جواده ولم ينج إلا بصعوبة بالغة وولى هاربًا إلى بولندا، وترك جنوده طعمة لسيوف العثمانيين تطوح برؤوسهم حتى امتلأت بجثثهم ساحة القتال، وانتصر العثمانيون وغنموا غنائم وفيرة.

- عبرة

يا شباب، هذا مَثل من التضحيات العجيبة التي يقدمها المجاهدون عبر التاريخ، حيث ينسى هؤلاء الأبطال أنفسهم ومستقبلهم الدنيوي، وتضخم في أعينهم الأهداف الجهادية السامية لتكون هي الحاضر والمستقبل في حياتهم وهم يتعرضون للشهادة يسابقون الزمن، حيث يريدون الظفر بالمقامات العالية في الجنة في زمن قصير، هذا في عالم الآخرة أما في عالم الدنيا فكم هي العائدات الضخمة التي تعود على الأمة من تضحيات هؤلاء الفدائيين، فلقد رأينا ما قام به السلطان رغبة في الفوز بالشهادة أو الظفر، فكان النصر حليف جيشه بسبب شجاعته الخارقة.

يا شباب، إنَّ الإنسان الحقيقي هو رجلُ الموقف والكلمة، هو الرجل الذي يكون عند أي موقف ثابت الجنان مبني ذلك على أخلاق حسنة، وقيم ومبادئ أخلاقية رفيعة، وهو الرجل المتمتع برزانة العقل الممعن بالتفكير قبل البت بأي أمر، وهو الذي لا يتسرع في أموره فيكون حازمًا وهذا ما رأيناه في هذا الموقف من السلطان الفاتح، فلقد كان حازمًا للأمور عندما غلب على ظَنه أن الجنود خافوا الموت، فعنَّف القائدُ الجنودَ، ثم صاح فيهم ببعض الكلمات التي ألهبت الحماس حتى أنزل الله عليهم النصر.

الشيخ الجبل

نحن إذا تصفحنا مواقف تاريخنا الحديث نجد لأعلام الأزهر في الذود عن الحق والوقوف في وجه الباطل آيات رائعة يفوح منها الشذى العاطر، وتؤكد وراثة الأنبياء في قوم يخشون الله حق خشيته، ومن المؤسف أن هذه المواقف الخالدة – على كثرتها – لم تجد من أحصاها في كتاب أو دونها في تاريخ، ونحن في هذا الكتاب نخطّ بعض منها حتى يتعرف الجيل الجديد على هؤلاء العظائم، فتعالوا بنا لنتعرف في هذه السطور على هذا المشهد الرائع لهذا الشيخ الجليل حسن العدوي رحمه الله.

عزل السلطان عبد العزيز الخديوي إسماعيل من على عرش مصر، وعين ابنه توفيق باشا مكانه، وقد بدأ توفيق باشا عهده ببعض الإصلاحات التي أراد من خلالها أن يخفف المعاناة عن الشعب، ويجمع حوله النخبة منه، لكن موقفه من التدخل الإنجليزي في شئون البلاد، وترك أمور الجيش في أيدي الشراكسة، وقصر الترقي عليهم أغضب العسكريين المصريين ومعهم الغيورين على بلدهم، وكان في مقدمتهم العالم الكبير حسن العدوي الذي كان رغم تقدم العمر به ما يزال على العهد والاقتناع الكامل بأن «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» كما قال الرسول الكريم ﷺ.

فما أن قدَّم الضباط المصريون شكواهم إلى الخديوي توفيق بتحسين أحوال الجيش حتى دب الخلاف بينهم وبين الخديوي الذي رغم إذعانه لطلباتهم؛ وفتح باب الترقيات أمامهم، وتكوين مجلس نواب؛ وتشكيل وزارة مصرية برئاسة محمود سامي البارودي، وكان عرابي وزيرًا للحربية فيها، إلا أنه وبمشورة الإنجليز انقلب ضد الضباط، وجرت محاولة لتصفية عرابي وأتباعه، ثم تطورت الأمور إلى نزول الإنجليز بالإسكندرية.

في هذه الأوقات العصيبة من تاريخ الأمة تُعرف أقدار الرجال، هنا هب الشيخ العدوي مشاركًا في صفوف الثائرين يجمع الكلمة ويوحد الرأي المؤيد للشعب، وعندما غالى الخديوي في مواقفه الموالية للإنجليز والمحبطة للشعب، لم يتوانَ الشيخ عن الإفتاء بأن الخديوي بتصرفاته هذه يكون خارج عن الإسلام، وبالتالي لا بُد من عزله عن حكم البلاد وذيَّل هذه الفتوى هو والشيخين محمد عليش ومحمد الخلفاوي من علماء الأزهر، وأصر الثلاثة على نشر وإذاعة هذه الفتوى بين الناس، رغم ما فيها من تحدَي القوى المؤيدة للخديوي دون خوف أو رهبة.

فلما حلت الهزيمة وقبض على عرابي والعرابين، كان العدوي واحدًا من الذين قدموا للمحاكمة، التي كانت مؤلفة من لفيف من الباشوات من رجال الخديوي، وعدد من الإنجليز.

وقف الشيخ الذي قارب سِنَّ الثمانين أمام المحكمة في مهابة وإجلال لم يتطرق الخوف إلى قلبه، وقد كان ثابت الجنان، ثبات ثبوت الجبال الراسيات، فقد أقدم على ما أقدم عليه وهو لا يبغى إلا نصرة الحق مهما كانت النتائج.

سأله رئيس المحكمة إسماعيل باشا أيوب بصوت غليظ جاف: «هل وقّعت باسمك، أو ختمت بخاتمك قرارًا يقضي أن أفندينا المعظم سُمُو الخديوي توفيق باشا يستحقُ العزل؛ لأنه مارق عن الدين ويتعاون مع الإنجليز أعداء البلاد؟»،

وإذا بالشيخ الطاعن في السن يستعيد حمية الشباب وحماسته، فنظر إلى أيوب باشا نظرة ثابتةَ حادة، واتكأ بذراعيه على منضدة أمامه، وقال: «أيها الباشا، إنني لم أرَ الورقة التي تتحدث عنها، ولهذا فلن أجيب على سؤالك عما إذا كنت قد وقّعتها، ولكني أقول لك ما يأتي، إذا أحضرت لي الآن ورقةً تحتوي على مثل هذا المعنى الذي ذكرته، فإنني لن أتأخر عن توقيعها باسمي وأختمُها بخاتمي في حضورك، الآن أيها الباشا».

ونظر الشيخ إلى أعضاء المحكمة قائلًا: «إذا كنتم مسلمين، فهل تستطيعون أن تنكروا أن توفيق باشا - وقد خان بلاده، وذهب إلى الإنجليز وانضم إليهما - لم يعدْ جديرًا بأن يكون حاكمًا لنا؟»،

واصفر وجه الباشا رئيس المحكمة، الذي كان يظن أنه يخيف المحكومين، وأن بالشيخ رهبة من العقاب الذي ينتظره يمكن أن يتراجع أو يُنكر ما حدث منه، ولكنه أمام شجاعة الشيخ لم ينطق بكلمة واحدة يرد بها على الرجل المسن الجريء، وأومأ إلى حراس المحكمة أن يأخذوه ويخرجوا به من قاعة المحكمة، ثم نقلوه إلى قريته، واعتقلوه فيها حتى مات.

- عبرة

يا سادة، لقد وقر في قلب وعقل هذا الشيخ الجليل منذ أن أخذ العلم على أيدي شيوخه ومعلميه أن العلماء ورثة الأنبياء ما داموا على الحق وما داموا يعلمون به ويدعون الناس إليه، ولم يكن يؤمن بذلك قولًا فقط، وإنما كان يبدأ بنفسه، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

يا شباب، هكذا ينتصر الحق ويثبت ورثة الأنبياء على هذا الحق في أصعب اللحظات وأدقها، هذه اللحظات الفاصلة في حياة الأمة، فهذا الشيخ الجليل الطاعن في السن لم يخشَ أن يواجه الباطل بكل ما يملك حتى دفع حياته ثمنًا للحق الذي يدافع عنه، إنه شموخ العزة بالدين يا سادة في نفس هذا العالم فقد صغر أمامه أي منصب أو سلطان أو ملك، إنه اليقين بما عند الله للصالحين، فرحم هذا الشيخ الجبل الذي احتمى بالدين ورفض الانحياز للباطل رغم جبروته، وانحاز للحق رغم قلة الاتباع.

بطل في مستنقع الأذلاء!

من خلال الزيارات المتكررة لحدائق التاريخ، رُحتُ أداعبُ أغصانها، لتجود علينا بأزاهر المعلومات عن السلطان البطل ركن الدين بيبرس البندقداري رحمه الله، فعلمت أنه لا بُد لي من مصافحة أوراق الورد لأشعر بوخز شوكه، لأحصل على الرائحة الزكية، فلكل بطل من أبطال الإسلام موقف عرف به، وكان مهبط الشرف في حياته، ومعقد الفخر من سيرته التي تصاحبه في حياته، وتروى عنه بعد مماته، وليس هناك أملك للقلب، وأملك للنفس، وآثر في التاريخ من موقف السلطان بيبرس حينما نكس الجبناء عن مواجهة إعصار التتار على العالم الإسلامي، فكان كطود الشامخ، أمام هذه الأعاصير، فتعالوا بنا لنتقرب في غبطة من حدائق التاريخ لنرى هذا المشهد العظيم.

كان الناصر يوسف الأيوبي حفيد السلطان صلاح الدين - والذي لم يكن مثل جده إلا في الاسم فقط، فقد كان جبانًا خائنًا للأمة -، قد عقد مجلسًا استشاريًا بعد سقوط مدينة حماة في يد التتار، وجاء الدور الآن على عاصمة ملكه وزهرة الشام دمشق، كان المجلس يضم معظم أمراء الجيش، وعلى رأسهم الأمير زيد الدين الحافظي وكان المجلس به أيضًا الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري.

وهو رحمه الله من أمراء المماليك البحرية الذين فروا قبل ذلك من مصر أثناء فتنة دارت بين المماليك هناك بسبب مقتل قائدهم فارس الدين أقطاي الكبير، واستقبله الناصر يوسف وضمه إلى قواده لما له من الكفاءة العسكرية العالية جدًا والقدرات الهائلة، بدأ الاجتماع ولم يكن يخفى على الحضور مظاهر الرعب والهلع التي يعاني منها الناصر يوسف والتي انتقلت إلى معظم أمرائه.

وبدا واضحًا أيضًا أن الناصر يوسف لا يميل لموجهة التتار، ولا يقوى على اللقاء؛ وكذلك أمراؤه، فبدأ معظم الحضور يتخاذلون ويتحدثون عن الفجوة الهائلة بينهم وبين التتار، ثم انتقل الحديث إلى قائد الجيش الأمير زين الدين الحافظي وكان أجبن من الناصر يوسف فقام يعظم من شأن التتار، ويهون من شأن المسلمين، ويشير على الناصر يوسف ألا يقاتل.

هنا انتفض الأمير ركن الدين بيبرس، وكانت فيه حميّة كبيرة للدين، وحماسة عالية للقضاء على خطر التتار ورغبة جارفة في المواجهة، لكنه وجد نفسه وسط مجموعة من المتخاذلين والخونة.

صرخ الأمير بيبرس في وجه قائد الجيش زين الدين الحافظي ثم سبه سبًا عنيفًا؛ ولم يتمالك نفسه فقام وضربه، وقال له: «أنت سبب هلاك المسلمين»، - طبعًا كان المقصود الأول من كلام بيبرس ليس زين الدين الحافظي بل الملك الجبان الناصر يوسف فقد كان هو من أهم أسباب هلاك المسلمين فلقد ساعد التتار كثيرًا قبل ذلك، ولم يسلم منه ابن عمه الأمير المجاهد الكامل محمد أمير ميافارقين وبعث ابنه بفرقة من جيشه لمساعدة التتار -.

لكن بيبرس كان يخاطب مجموعة من الأموات، والموتى لا يسمعون، أخذ الناصر يوسف القرار المناسب وهو الفرار، الفرار ولا شيء آخر، الأمير يوسف سيفر، والأمراء سيفرون، والجيش

سيفر، وستبقي دمشق وشعبها الكبير دون حماية ولا دفاع، لقد خلت دمشق من الجيش والأمراء، وتم تسليم المدينة للتتار، ودخل هولاكو المدينة بدون قتال.

- عبرة

يا سادة، إن المجاهد في سبيل الله عز وجل يتحصل له بجهاده تزكية كريمة لنفسه، تدخله على ربه، وتدنيه منه، وتقربه إليه، وتصيره محبوبًا له، فيمنحه الله عز وجل كمالًا بشريًا مشتقًا من مقتضى الكمال الإلهي، فإذا كانت مقومات الإبداع الجهادي القدرة والقوة، والعزة والمال، والحياة والقيام بتكاليف الجهاد، فإن الله بفضله ومنه يسربل المجاهد بما أراد فيكسبه قدرة من قدرته، فإنه القادر، وقوة من قوته، فإنه القوي، وعزة من عزته، فإنه العزيز، ورزقًا من خزائنه، فإنه الغني، وحياة جليلة، فإنه الحيّ، وقيامًا جريئًا بأمر الله دون خشية لائم، وذلك من قيومته، فإنه القيوم.

مهمة انتحارية

كلُ من يطلع على تاريخنا المجيد يجد أن فيه رجالًا عظماء، عظماء بكل ما تعنيه تلك الكلمة، رجال حملوا الأثقال، ليبلغوا المنال، لا تصمد أمامهم الجبال، تهابهم الأسود في ساحات الوغى، إذا سار أحدهم إلى العدو يسير كالزلازل، يُقاومون الكفر باستبسال، لا يخشون أحدًا إلا الله، صدقوا ما عهدوا الله عليه، ومن هؤلاء المغاوير الأبطال، الأسد الجسور، والقائد الهمام، الوزير البطل حاجي إل بي رحمه الله.

ولعلك أيها القارئ الكريم قد نزع بك الشوق إلى سماع طرف من أخبار هذا الفارس المغوار، والوقوف على بعض عجائبه؛ فإليك شيئًا منها كما جاءت في كتب السير والتراجم، فتعالوا بنا لنعيش سويًا في هذه السطور مع هذا الموقف الرائع، والبطولة النادرة.

لما نجحت القوات العثمانية في فتح مدينة أدرنة، جعلها السلطان مراد الأول عاصمة لدولته، وذلك من أجل الاستفادة من موقعها الاستراتيجي، ودفاعاتها الحصينة في نقل العمليات الجهادية إلى قلب الجبهة الأوروبية، ولما بدأت القوات العثمانية بالإغارة على البلقان استنجد ملك الصرب بالبابا، فدعا البابا إلى تشكيل تحالف صليبي لطرد العثمانيين من أوروبا.

فجاءت جموع المتطوعين تحت راية الصليب من كل انحاء أوروبا بقيادة ملك المجر الصليبي لايوش الأول، وتحرك التحالف الصليبي المكون من ٦٠ ألف مقاتل نحو مدينة صوفيا عاصمة بلغاريا، وكان ذلك عام ١٣٦٤م.

لم تصل أخبار هذا التحالف إلى القائد العام للقوات العثمانية في البلقان لالا شاهين باشا إلا متأخرًا حيث جاءه خبر اجتماع التحالف الصليبي في صوفيا، فبعث بخبره إلى السلطان، وطلب دعمًا سريعًا فقد كان قلقًا من الدخول في مواجهة مع التحالف الصليبي بالعدد القليل من القوات التي بين يديه.

أدرك لالا شاهين باشا بأنَّ الدعم الذي طلبه من السلطان سيتأخر فعقد اجتماع واستشار قادة الجند فتوصلوا إلى قرار مفاده، أن يتم إرسال القائد حاجي إل بي رحمه الله إلى المواجهة برفقة مجموعة كبيرة من نخبة الجيش العثماني لإشغال العدو عن موصلة الزحف إلى أدرنة، فيقومون ببعض الغارات على العدو، في خلال هذا الوقت يقوم لالا شاهين باشا بالإعداد للدفاع عن أدرنة.

استقبل القائد المغوار حاجي إل بي هذا القرار بكل سرور، وانطلق برفقة أربعة آلاف مجاهد، وسار بهم على طول وادي نهر مريج، واقترب من موقع جيرمان قبيل الغروب، ولما علم أنَّ العدو معسكرٌ هناك اختار عدة أشخاص من المغاوير فأرسلهم إلى الأمام خفية للاطلاع على الأوضاع فأدوا مهامهم بكل نجاح دون علم أحد.

كانت نتائج الاستطلاع مفاده أنَّ الأعداء يقيمون احتفالاتهم قبل أن يخوضوا المعركة ويشربون الأقداح فرحًا بالنصر القادم، وبتحرير أدرنة والقضاء على العثمانيين جميعًا، هنا قرر القائد حاجي بك القيام بالهجوم على قوات التحالف في ليلة الفرح هذه.

فربما يكون هذا القرار قرارًا مستعجلًا وارتجاليًا، ويسقط الجنود الأربعة آلاف جميعًا شهداء تحت سنابك خيول الصليبيين، وإما أن يُشتتوا الأعداء وينتصروا عليهم، وينقذوا الروملي فجمع القائد الجنود وخاطبهم قائلًا: «

أيها الإخوة لم يأت أعداؤنا إلى هنا من أجل القتال، بل أتوا من أجل الاحتفال، فهم يمضون ليلتهم بالسُكر لأنَّهم ليسوا جنودًا بل جمعًا من السُكارى، وقطيعًا من الغنم، وقطيع الغنم لا يمكنه أن يفعل شيئًا أمام ذئب واحد، ولكن الذئب الواحد يمكنه أن يُشتت قطيع الغنم، فما بالكم إذا كان المغيرون على ذلك القطيع أبطال أمثالكم يملكون أفئدة الأسود، إنَّ الأعداء لن يصمدوا أمامنا، وسيذوبون كما يذوب الثلج تحت أشعة الشمس».

«يا أيها الجنود البواسل سنتفرع إلى أربعة أقسام، ونُغير عليهم جميعًا في جنح الليل إغارة رجل واحد، وسنضربهم ضربة واحدة، ثم ننسحب، وسيتشتت العدو ويتضعضع، ثم نجدد الإغارة عليهم، والله تعالى معنا، فلقد أتينا إلى هنا لإعلاء كلمة الله، ومن أجل نشر الإسلام، فلن نبالي بكثرة الأعداء فقد سبق أن قهر أجدادنا الجيوش الكبيرة، وأسروا ملوكهم، وأنا مؤمن بأن الشمس ستزيل الظلام، وتسطع على الدنيا بأنوارها، وأنَّ جبال البلقان فتحت أذرع النصر لاستقبالنا».

بعد هذه الخطبة الحماسية قسّم الباشا قواته إلى أربعة أجنحة فوجههم شرقًا وجنوبًا وشمالًا وغربًا، وقال لهم: «حين يأتي ظلام الليل سأوقد شعلة من نار وفور مشاهدتها ستغيرون على العدو في آن واحد»، ولما أظلم الليل ركب حاجي إل بي وجنوده خيولهم، وأوقدت النيران من الجهات الأربعة، وأخذوا الصليبيون على حين غرة، وأصيبوا بالذهول، وركبوا خيولهم، وبدأ الصراع فيما بينهم وأخذ يضرب بعضهم بعضًا لا يدري من يضرب منْ، ومن أراد منهم الفرار غرق في نهر ميريج، ومن أراد الصمود تناولته أسهم قوات القائد المغوار حاجي إل بي.

ولم يشرق الصباح إلا وقد وضعت الحرب أوزارها، وتشتت قوات التحالف الصليبي، واستطاع ملك المجر وأمير الأفلاك – وهي الجزء الشمإلى من رومانيا - الفرار بصعوبة كبيرة من هذا الكمين، وهكذا لقى التحالف الصليبي هذه الهزيمة الساحقة من أحد فرق الجيش العثماني.

- عبرة

يا شباب، هذه صفحة من تاريخنا نابضة بالحياة، شاهدة بالعظمة ناطقة بجلال وصدق الإيمان والتضحية عند هؤلاء الأبطال المغاوير، وما أعظم ما يصنعه الإيمان بالنفوس المؤهلة له، فإنه يخلقها خلقًا جديدًا، ويصوغها صوغًا مجيدًا، ويرفعها عن الدنيا إلى مواطن النبل والشرف ويحلق بها في سماء الروح بعد أن يخلصها من طينتها الأرضية، وهكذا رأينا في هذا الموقف كيف يعمل الإيمان حينما يتوغل ويتمكن من النفوس.

عملة نادرة

ربما يعيش الإنسان زمانًا طويلًا على هامش الحياة لا يدرى له هدفًا ولا يعلم لنفسه وجهة، مع أن الخير الذي بداخله تحتاج إليه أمة بأسرها في الوقت الذي لا يعلم فيه هذا الإنسان قدر نفسه، فإذا جاء الموعد الذي أراده الحق جل جلاله فإن هذا الإنسان تستيقظ فطرته من سُباتها العميق، وإذا به يعلم هدفه ويحدد وجهته وينفض غبار الغفلة ليحمل أمانة هذا الدين ويعز الله به الإسلام وأهله، ونحن هنا نتعايش مع عملاق من عمالقة تاريخنا العظيم، بطل لا يهاب الموت، مقدام لا يخشى العدو.

بطل هذه السطور كان من أوائل الأبطال الذين تصدوا للخطر الصليبي في المشرق الإسلامي، وأول من إلحاق بهم هزيمة نكراء من أمراء المسلمين، إنه البطل المقدام سقمان بن أرتق التركماني رحمه الله، فتعالوا بنا لنستمتع بهذا المشهد الرائع الذي هو من أعظم المشاهد في التاريخ الإسلامي.

اتفق الأمراء الصليبيين بلدوين دي بورج زعيم الرُها، وتابعه على مدينة تل باشر جوسلين دي كورتناي، وبوهيموند أمير أنطاكية، وغيرهم من الأمراء الصليبيين المحليين، للقيام بعمل عسكري مشترك في غاية الخطورة، وهو الاستيلاء على مدينة حرَان – وهي مدينة في جنوب تركيا الآن -، وكان هذا العمل لو تم لفتح الطريق لهم إلى عاصمة الخلافة الإسلامية بغداد.

ولما علم أمير الموصل - في شمال العراق الآن - جكرمش بأمر التحالف الصليبي تبادل الرسائل مع أخيه سقمان بن أرتق أمير حصن كيفا - وهو حصن إلى الشرق من حران -، وطلب منه نسيان الخلافات القديمة بينهم، وطلب أيضًا التعاون العسكري المشترك ضد الصليبيين، فأعلن كلا الزعيمين الوحدة.

تحرك الجيش الصليبي إلى مدينة حران، وفرض عليها الحصار المحكم، وهو لا يعلم باتحاد الجيشين المسلمين للموصل وحصن كيفا، ولذلك كانت مفاجأة كبيرة جدًا للصليبيين من ظهور الجيش الإسلامي، وعلى ضفاف نهر البليخ، في يوم ٧ مايو ١١٠٤م دارت موقعة شرسة بين المسلمين والصليبيين، تحطم فيها الجيش الصليبي وقُتل منهما أكثر من اثني عشر ألف مقاتل، وتمَّ أسر بلدوين دي بورج صاحب الرها، وابن عمه الأمير جوسلين دي كورتناي.

ولم يتعرض المسلمون أثناء القتال إلى أزمة حقيقية، فقد كانت السيطرة لهم من بادئ الأمر رغم قلة العدد، إلا أنهم تعرضوا لأزمة كبيرة بعد الموقعة، لكن بفضل الله كتب الله لهم منها النجاة؛ذلك أن معظم الغنائم والأموال – وكذلك الأسيرين الثمينين – وقعوا في يد سقمان بن أرتق وجيشه، وخرج جكرمش خالي الوفاض من المعركة، وغضب جيش جكرمش وهم يشاهدون الثروات تقع في يد الجيش التركماني، وأغروا جكرمش بأخذ نصيبه منها، واقتنع جكرمش بذلك، وذهبوا للمعسكر التركماني، وقد وجدوا أن سقمان كان في مطاردة الصليبيين مع جزء من جيشه، فدخلوا خيمة الأسرى، واستطاعوا أن يأخذوا بلدوين دي بورج أمير الرها، الأسير الأعظم، وعادوا به إلى معسكرهم.

وعاد سقمان من مطاردته، وعرف بما حدث، وحضَه جيشه على قتال جكرمش لأخذ الأسير

الثمين، إلا أن سقمان رحمه الله، وقف موقفًا لله هو من أعظم المواقف في حياته، ويدل دلالة واضحة على طيب معدنه، وصدق نيته، لقد قال سقمان لجيشه: «لا يقوم فرح المسلمين في هذه الغزاة بغمهم باختلافنا، ولا أوثر شفاء غيظي بشماتة الأعداء بالمسلمين».

الله أكبر هكذا تكون أخلاق المجاهدين!

إنه رحمه الله لا يريد أن يضيع سعادة المسلمين بالنصر باختلافهم على الغنيمة، ولا يريد أن يشفي صدره من جكرمش ويسبب شماتة الأعداء في المسلمين، هذا هو التجرد الذي يُرجى من ورائه النصر!

- عبرة

يا سادة، هكذا انتصر المسلمون على الصليبيين انتصارًا كبيرًا، وذلك لما اجتمع أميران منهم وصدقا في جهادهما، ولقد كان موقفًا عاليًا يذكر لهذين الأميرين سقمان وجكرمش حينما تناسيا ما كان بينهما من خلاف وتوجها معًا لصد الخطر المشترك على الإسلام، ولو أن أمراء المسلمين آنذاك فعلوا فعلهما لم يبقَ في أرض المسلمين أحد من الأعداء، ولا استطاعوا أن يُخضعوا أمم الأرض لحكم الإسلام، وإنما يُؤتى المسلمون من الشقاق والتناحر فيما بينهم.

وفي هذا الموقف أروع البيان لحرص عمالقة الإسلام على الجهاد في سبيل الله، ودخول هؤلاء الأبطال المعارك الإسلامية لإعلاء شأن راية لا إله إلا الله، لا للدنيا، وقد رأينا هذا المشهد الخالد لبطلنا سقمان بن أرتق بعد المعركة عندما رفض الدخول في معركة مع أخيه جكرمش بسبب الغنائم والأموال، وهذا دليل على تجرد وتقوى هذا الرجل.

وفي هذا الموقف يا شباب، نرى التزهيد في الدنيا، والترغيب في بذل النفس بالجهاد لعظم ثوابه عند الله تعالى، والإخلاص في الجهاد ينيل صاحبه إحدى الحسنيين إما الجنة، أو الرجوع بالثواب الأخروى، والغنيمة الدنيوية، وصدق النية يتجلى في الشدائد، والبشارة بدخول الجنة، والنجاة من النار لمن مات مجاهدًا في سبيل الله تعالى.

واحجاجاه

في كل يوم يُقلّب المرء صفحات تاريخنا المجيد، ويتدبر كتابنا العظيم، ثم ينظر لواقعنا، ويقارنه بماضينا يتحسر، يتحسر عندما يجد البوْن شاسعًا؛ والفرق عظيمًا، يتحسر عندما يرى تلك الأمة وقد كانت قائدة؛ وإذا بها قد أصبحت تابعة في ذيل الأمم، ثم يدرك أن السبب هو بُعدنا عمَا كان عليه أسلافنا، ويتساءل المرء متى ينزاح هذا السواد الحالك من الذل والمسكنة متى ينْبري للأمَة أمثال خالد وصلاح والفاتح والقعقاع؟، متى تُحيا في القلوب آل عمران والأنفال وبراءة؟ {وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا} (الإسراء: ٥١).

وحينما نعود إلى الماضي المجيد لنستلهم منه الدروس والعبر في هذا الحاضر العاثر، عودًا لسيرة من لم يعرف التاريخ بطل مثله، إنه فاتح بلاد السند الشاب المغوار محمد بن القاسم الثقفي رحمه الله، فتعالوا بنا لنعيش في هذه السطور مشهدًا من أعظم مشاهد التاريخ الإسلامي.

في عام ٩٠ هجرية وقعت حادثة كان لها أثر كبير على السياسة العامة للدولة الإسلام في ذلك الوقت جعلت الوزير الأموي الشهير الحجاج بن يوسف الثقفي يعقد العزم على فتح بلاد السند، فقد أهدى ملك جزيرة الياقوت – ويطلق عليه أيضًا سرنديب سيلان فيما بعد، وهي الآن سيرلانكا - إلى الحجاج والخليفة تحفًا نادرة، وهدايا ثمينة من الدرر والجواهر، وكثيرًا من الغلمان والجواري، وحمل كل ذلك على ثماني عشرة سفينة كبيرة، ووجهها نحو العراق، وبعض هذه السفن كانت سفنًا تجارية عربية.

وكانت بعض تلك السفن تحمل مجموعة من النساء المسلمات اللاتي وُلدن في بلاد سيلان وقد مات أباءهن وكانوا تجارًا بها، وبعضها كانت تحمل الحجاج العرب والنسوة العربيات كانوا يقصدون مشاهدة دار الخلافة وزيارة بيت الله الحرام، فقد أراد الملك السيلاني أن يتقرب بذلك من الحجاج والخليفة ويعبر عن تقديره للمسلمين.

وبينما كانت السفن تسير في طريقها إلى العراق مارة بالقرب من ميناء الديبل ببلاد السند، خرجت جماعة من اللصوص يقال لهم تكامرة من سكان الديبل واستولوا على السفن ونهبوا الأموال وأخذوا النسوة المسلمات والجواري والتجار، فنادت امرأة من بني يربوع: «يا حجاج».

واستطاع أحد التجار في السفن من الهروب، وذهب إلى الحجاج، الذي سمع القصة منه، فتضايق وغضب حين علم بوقوع النسوة المسلمات في أيدي هؤلاء اللصوص القراصنة السند وقال: «يا لبيك يا أختي».

وكان الحجاج متضايقًا منذ سنين عديدة من تصرفات هؤلاء القراصنة وهجومهم على السفن التجارية العربية بين حين وآخر، ومن حماية ملك بلاد السند للعلافيين العرب المتمردين ضد الدولة الأموية، وهذه الحادثة أشعلت نار الغضب في نفس الحجاج، إلا أنه قرر أن يسلك طريقة دبلوماسية لإنقاذ تلك النسوة، فإن لم تنفع فعليه تدبر الأمر بالقوة.

وأرسل الحجاج مبعوثًا مع رسالة إلى واليه محمد بن هارون في مكران وأمره أن يبعث المبعوث المذكور إلى دار ملك السند، وسلم المبعوث العربي رسالة الحجاج إلى الملك داهر بشأن

الإفراج عن السيدات المسلمات والتجار العرب وإعادة السفن.

ولكن ملك السند داهر أجابه برد جاف شديد بأن الذين استولوا على تلك السفن جماعة من القراصنة اللصوص ولا يستطيع القبض عليهم، وكان الملك قادرًا على إعادة النسوة والتجار.

وقد ثبت بعد سنتين من الحادثة أن هؤلاء النسوة والتجار العرب كانوا في سجن الديبل، وأن بعض النسوة كن في العاصمة السندية نفسها، مما يدل على تشجيع الملك للقراصنة واشتراكه في العملية ضد المسلمين، وكذلك تشجيعه بتقديم المساعدات إلى العرب المتمردين كالعلافيين للعمل ضد الحكم الإسلامي في إقليم مكران من بلاد السند.

وعلى أي حال، اشتد غضب الحجاج ونفذ صبره وازداد غيظًا حين سمع رد الملك السندي، ذلك الرد السلبي الذي لا يقبله المنطق، فكيف لملك قوي مثله لا يستطيع القبض على أولئك القراصنة، إن صح ذلك بأنهم كانوا قراصنة وليسوا من التابعين له، وأين يختفي هذا العدد الكبير من النسوة المسلمات والتجار وتلك الأموال والبضائع الكثيرة في مدينة صغيرة كمدينة الديبل؟

ولذلك أصبح من حق الحجاج أن يتأكد من سوء نية الملك داهر نحو العرب، وأن على الحجاج أن يفكر في كيفية إنقاذ تلك النسوة المسلمات ولو بإرسال جيش إلى الديبل، فبعث الحجاج عدة حملات عسكرية كبرى بقيادة محمد بن القاسم.

ولقد استطاع محمد بن القاسم رحمه الله بعد عامين من الجهاد أن يصل إلى السجن الكبير الذي كان ملك السند قد احتجز فيه جمعًا من المسلمين والمسلمات، بعضهم من التجار ونسائهم، وبعضم من أسرى الحرب، ونساء فقدْن أولياءهن من التجار الذين هلكوا في تلك البلاد وما حولها، فأفرج عنهم وتركهم فترة للراحة، ثم أعادهم إلى وطنهم الإسلامي، وحقق ابن القاسم في ذلك إجابة الحجاج حينما قال: «يا لبيك»، لنداء تلك المرأة المسلمة التي قالت من وراء القضبان: «يا حجاج».

- عبرة

يا سادة، هكذا كان المسلمون أعزَةً باعتزازهم بدينهم، واهتمامهم بأمور إخوانهم المسلمين، فليس من شأن المؤمن الحق أن ينام قرير العين هادئ البال، وأن ينعم بالطيبات والأمن والرحلة وإخوانه المسلمين يقتَلون ويشرَدون ويعذبون، وتُملأ بهم السجون، وينالون فيها أنواع الإذلال والتعذيب.

ولقد كان الحجاج بن يوسف من قساة القلوب الذين اشتهروا بالقوة والجبروت وفي بعض الأحيان بالظلم، ومع ذلك جهز تلك الجيوش لإنقاذ أولئك المسلمين من أيدي أعدائهم، لأن المسلمين في ذلك الزمن لوعيهم الديني يدركون أن إذلال الكفار للمسلمين يعتبر إهانة للإسلام نفسه، فالمسارعة لإنقاذ المسلمين تعتبر إعزازًا للإسلام بالدرجة الأولى، ورحمة بالمسلمين بالدرجة الثانية.

المهمة المستحيلة

لا ريب في أن الإيمان بالله عز وجل يقف على قمة البواعث التي تبعث النفس على البطولة والتضحية، ذلك لأن الإيمان الحق، قوة مبدعة خلاقةٌ إذا مسَّت القلوب بسحرها، اهتزت بأروع الشمائل، وربت بأجل الخصائل، وأنبتت من البطولات أجلها تضحيةً وفداءً، وأسخاها بذلًا وعطاءً، وأبقاها على الدهر، وتاريخنا الإسلامي حافلٌ بهذا اللون من البطولات، غنيٌ بها غنى يفوق كل تقدير، فلقد عرفها المسلمون منذ الأيام الأولى التي بزغ فيها فجر الدعوة المحمدية في بطحاء مكة، وازدهار في أرجاء الكون الفسيح على مر الدهور والأيام.

كان طارق بن زياد قد ولى قائده مغيثا الرومي على فرقة من جيشه، ليفتح مدينة قرطبة، ومضى هو بمعظم قواته إلى عاصمة القوط الغربيين طليطلة ليفتحها، وسار مغيثٌ على رأس فرقة مؤلفة من سبعمائة مجاهد كلهم من الفرسان، إذ كان المسلمون قد غنموا خيل القوط بعد معركة وادي لكة، ولم يبقَ فيهم راجل، وسار مغيث على رأس فرقته، فكمن بقرية شقندة في غيطة أرز، تقع بين قرية شقندة وقرية طرسيل على الضفة اليسرى من نهر الوادي الكبير.

رأى مغيث أن يبعث بعض أدلائه من الإسبان إلى المنطقة المجاورة، ليسترشدوا الناس عن سور المدينة، فألفوا راعي غنم، فأتوا به إلى مغيث وهو في الغيضة فسأله عن قرطبة، فقال له: «انتقل عنها عظماء أهلها، ولم يبقَ فيها إلا بطريق في أربعمائة فارس من حماتهم ومعهم ضعفاء أهلها».

ثم سأله عن حصانة سورها فأخبره أنه حصين، إلا أن فيه ثغرة فوق باب الصورة، وهو باب القنطرة، ووصف لهم الثغرة وكان لزامًا على مغيث وأصحابه أن يعبروا الوادي سباحة، فقد كانت القنطرة الموصلة بين مدينة وربضها الجنوبي المعروف بشقندة، مهدمة في ذلك الوقت، وآثر مغيث أن يفاجئ حامية المدينة ليلًا، فيتخذ من ظلام الليل ستارًا له ولجنوده حين يعبرون النهر، ويبدو أنه كان يزمع مفاجأة الحامية القوطية ويدخل المدينة عنوة، وهذا يفسر عبوره الوادي ليلًا مستترًا بظلامه.

فلما جنَّ الليل أقبل على نهر قرطبة، وقد أغفل حرس السور حراسته من شدة البرد والمطر وأخفى سقوط المطر دقدقة حوافر الخيل، مما ذلل للمسلمين عملية العبور فلما توافى الجند على الضفة اليمنى للنهر، تجمعوا في الفضاء الواسع بين السور والنهر، وكان لا يزيد على ثلاثين ذراعًا، فراموا التعلق بالسور، فلم يجدوا متعلقًا، وتعذر عليهم تسلقه، فأخذوا يبحثون نحوه بحثًا عن الثغرة التي أخبرهم بها الراعي، فلم يجدوا إلا سورًا مرتفعًا غاية في الحصانة والوثاقة واضطروا إلى استحضار الراعي الإسباني، فدلَّهم على موضع الثغرة.

فإذا بها غير سهلة التسنم، إلا أنهم وجدوا بأسفلها شجرة تين مكنت أفنانها رجلًا من المسلمين من التعلق بها، فصعد إلى أعلاها، ونزع مغيث عمامته، فناوله طرفها، وأعان بعض الناس بعضًا حتى كثروا على السور، أما مغيث فقد ركب فرسه وتأهب لدخول المدينة من باب القنطرة بعد أن أمر رجاله بالهجوم على حراس باب الصورة، وانقض المسلمون على الحراس، فقتلوهم وكسروا الأقفال، ثم فتحوا الباب المذكور، وعلى هذا النحو نجحت الخطة نجاحًا لم يكن في الحسبان، وتدفق فرسان المسلمين على المدينة.

ويذكر سافدرا أن قرطبة كانت مقسمة في ذلك الوقت إلى قسمين، يفصلهما سور حاجز أقامه الرومان لفصل الأهالي الذين يسكنون القسم الشرقي عن القسم الغربي، الذي يشتمل على المؤسسات الحكومية، مثل قصر الوالى وثكنات الجند، وهو القسم الذي عرف في العصر الإسلامي باسم المدينة، ويضيف سافدرا مستندًا على ما ذكره صاحب أخبار مجموعة، أن المسلمين حين دخلوا المدينة استولوا على القصر، ففر الحاكم في مجموعة رجاله، وهم نحو أربعمائة، وخرجوا من باب إشبيلية - وهو الباب الغربي -، وتحصنوا في كنيسة تقع في غربي المدينة كانت تعرف باسم سان أسيكلو، ويسميها صاحب أخبار مجموعة باسم شنت أجلح.

ومما سبق ذكره، نلاحظ أن فتح مغيث لقرطبة في الحقيقة لم يقابله صعوبات، وأن حاكم المدينة لم يعمل على مقاومة المسلمين داخل المدينة، وإنما سارع بالتحصن في كنيسة شنت أجلح، وكانت حصينة ذات بنيان وتقانة يأتيها الماء من تحت الأرض من عين في سفح جبل، ولو لم تكن حصينة لما بادر حاكم قرطبة ورجاله بالتحصن فيها، ولما طال حصار المسلمين لها إلى ثلاثة أشهر، ويبدو أن المسلمين اهتدوا إلى مصدر المياه التي تمد الكنيسة، فقطعوها وسدوا منافذها.

ويذكر المؤرخون أن حاكم المدينة تسلل من الكنيسة ذات يوم وحده، وهو ينوي التحصن في جبل قرطبة ليلحق به أصحابه فأبصر مغيث، فانطلق وراءه فأحس الحاكم بمطاردة مغيث له، فأسرع في فراره حتى تجاوز قرية قطلبرة، ثم تعثر فرسه فجأة فسقط على الأرض وأسره مغيث، وحبسه عنده ليقدم به على الخليفة الوليد بن عبد الملك، ولم يؤسر من أمراء الأندلس غيره.

- عبرة

يا شباب، في هذا الموقف صورة من الفدائية والتضحية في تاريخنا العظيم، وهي لون من ألوان المخاطر بالنفس التي هي أعز شيء على الإنسان في سبيل العقيدة والغاية الشريفة، فها هم هؤلاء الأبطال السبعمائة قدموا أرواحهم في سبيل ربهما، فأنزل عليهم نصره بفتح مدينة من أعظم مدن التاريخ قرطبة.

وإن التاريخ ليذكر لهؤلاء المجاهدين ويذكر أضرابهم الذين أبلوا بلاءً حسنًا في الفتوحات الإسلامية في بلاد الأندلس وغيرها من الفتوح في صفحات كتبة بماء الذهب لما قدموا من خير للبشرية في غرس بذور أعظم حضارة عرفتها البشرية.

الأسد المغوار

إذا ذكرت الشجاعة ذكر بذكرها البطل المجاهد المجالد صاحب المجد التليد خالد بن الوليد، وعندما يريد المرء أن يتحدث عن شجاعة خالد بن الوليد رضي الله عنه يتحيَر فيما يريد أن يتخيَر ومما يدهش اللب ويبهر العقل، هذا الموقف الخالد لخالد يوم مؤتة حيث استطاع البطل المغوار أن يعيد دفة المعركة من هزيمة نكراء للمسلمين إلى هزيمة ساحقة ماحقة للروم، وحتى تقف على ضراوة القتال، وشدة النزال، وروعة الشجاعة والثبات تأمل هذا الحديث الذي يرويه البخاري في صحيحه عن خالد بن الوليد رضي الله عنه فقد قال: «لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف فما بقي في يدي منها إلا صفيحة يمانية».

إن الحديث عن سيف الله خالد بن الوليد يملأ القلب بالعزة، ويملأ النفس بالحماسة والشجاعة كيف لا وهو سيف الله المسلول الذي قُوِّمت وأُدبت به ممالك الكفر، وتساقطت على يديه أساطير الضلال، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد الخالد للأسد المغوار الذي كان ولا يزال قدوة للأبطال الشجعان.

كانت معركة مؤتة أول معركة يشترك فيها خالدٌ بعد إسلامه، وبعد قتل قادة الجيش الثلاثة وانكشاف صفَ المسلمين كما قال أبو عامر: «انهزم المسلمون أسوأ هزيمة رأيتُها قط، حتى لم أرَ اثنين جميعًا»، ودفع ثابت بنُ أقرم اللواء إلى أبي سليمان خالد بن الوليد رضي الله عنهم قائلًا: «خذ اللواء يا أبا سليمان»، فقال خالد: «أنت أحق باللواء يا ثابت»، قال: «أنت أدرى بالقتال مني، والله ما أخذتُه إلا لك».

وتلقَّى خالدٌ اللواء، وأصبح قائدًا عامًا لقوات المسلمين في أصعب ظروف المعركة، جيشٌ أنهكه القتالُ الشديدُ الضاري طيلة ستة أيام، ثلاثةُ آلاف مجاهد يواجهون أعتى جيوش الأرض قوامُه مئتا ألف مقاتل، جيشٌ قد انفرط عقدهُ وفقد تنظيمُه، موقفٌ جعل هذا الجيش مُهيأ لأن يُدمر تدميرًا كاملًا، أو يقع بكامله أسيرًا في قبضة الرومان وأحلافهم من العرب.

واعتلى العبقري جواده، ودفع الراية بيمينه إلى الأمام، كأنما يقرع بها أبوابًا مغلقةً آن لها أن تفتح، على طريق طويل لاجب يقطعه البطل وثبًا وثبًا من حياة الرسول ﷺ وبعد مماته، حتى تبلغ المقادير به أمرًا كان مقدورًا ليصبح أعظم قائد عسكري في تاريخ.

وقد كانت خطة انسحاب خالد بالجيش رائعة بكل المقاييس، فقد قام بتبديل كليّ في الميمنة والميسرة والقلب من جيشه، فجعل رجال ميمنة الجيش مكان رجال الميسرة، كما جعل رجال الميسرة مكان رجال الميمنة، كما استبدل رجال القلب برجال آخرين، كل هذا في ظلام الليل، وجعل مقدمة الجيش ساقةً، وساقته مقدمة، أي أنه سحب جيشه من ساحة المعركة.

وأبقى ساقة تحمي الانسحاب، ثم نشر هذه الساقة ليحتل فرسانها مساحة شاسعة من الأرض، وأمرهم أن يحدثوا أصواتًا مرتفعة بما لديهم من أبواق وطبول حربية وإثارة الغُبار بالخيل، لتدورُ بسرعة في دوائر ضيقة، كل هذا ليدخل في نفوس قادة الروم ويُوهمهم أن جيشًا جديدًا؛ ومددًا كبيرًا جاء من المدينة.

هذه هي الخطة التي وضعها القائد المحنك الفذ، فأنقذ بها جيش الإسلام من فناء محقَق، فقد

وجد الرومان أنفسهم أثناء تقابل الصفوف في اليوم السابع أمام قادة وجنود وهيئات ورايات غير التي كانوا يوجهونها في الصفوف الأولى أثناء القتال في الأيام الستة الماضية.

ووجد الرومان غُبارًا يسدُ الأفق من بعيد ناحية الجزيرة خلف ظهر الجيش الإسلامي، ودوَت أصوات التهليل والتكبير، مُنبعثة من بين ثنايا ذلك الغبار الذي حجب الأفق، ثم انشقَ هذا الغبار عن كتائب من الفرسان، تتبع إحداهما الأخرى في تنسيق وإحكام، راكضة نحو المسلمين في مؤتة، فقد رجفت الأرض رجفًا لوقع حوافر خيلها المنطلقة، وأصوات فرسانها تصم آذان الرومان بالتهليل والتكبير، واهتزَ معسكر المسلمين بالتهليل والتكبير، ودب الفزع في نفوسهم الروم، وسادهم الهرج والمرْجُ، ولسانُ حالهم يقول: «إذا كان ثلاثةُ آلاف قد فعلوا بنا كل هذه الأفاعيل طيلة الأيام الستة، فما عساهم فاعلين بعد مجيء هذا المدد؟!».

وأدرك خالدٌ بحسَ القائد المحنك ما أصاب الرومان وحلفاءهم من خوف ورعب نتيجة خدعته الحربية البارعة المحكمة، فاغتنمها فرصةً، فأمر في الحال بالهجوم على خطوط الرومان، وبأسلوب عامَ صاعق كاسح، فتم له ما أراد.

وتضعضعت خطوط الروم الأمامية، وركبهم المسلمون، وأحدثوا فيهم مقتلةً عظيمة، ولقد وصف الواقدي في كتابه المغازي بقوله: «فرُعبوا فانكشفوا منهزمين، فقُتلوا مقتلة لم يُقتلها قومٌ قط».

وقال ابن سعد في طبقاته: «ثم أخذ خالدٌ اللواء، ثم حمل على القوم، فهزمهم الله أسوأ هزيمة رأيتُها قط، حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاءوا».

كان القتال ضاريًا، خاضه المسلمون بحنق وغيظ، وكان الرومان في تراجعهم أمام هجوم خالد يُقاتلون بشراسة، وليس أدل على عُنف المعركة من قول خالد: «لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعةُ أسياف، فما بقي في يدي إلا صحيفة يمانية».

ولما كان هدف خالد من كل هذه الأعمال، والخُدع الحربية التي لجأ إليها هو أن يؤمن لجيش الإسلام انسحابًا منظمًا من مؤتة، اغتنم فرصة ارتباك الرومان واضطرابهم واعتقادهم أن المسلمين قد تلقَوا نجدة من المدينة، فأصدر أوامره إلى قادة الفرق والكتائب في جيش الإسلام بالارتداد بالجيش نحو الجنوب على تعبئة وانتظام، كما هو متَفقٌ عليه بينه وبين هيئة أركان حربه عند وضع الخطة لهذا الانسحاب في الليل.

فأخذ الجيش الإسلامي يغادرُ ميدان المعركة في مؤتة منسحبًا بكل هدوء وضبط وانتظام ويقظة، وأشرف خالدٌ نفسه على عملية لانسحاب، فكان يجولُ بفرسه بين الكتائب والفرق المنسحبة ليظل النظام قائمًا أثناء الانسحاب، ولتظل رُوحُ الجُند والقادة ومعنوياتهم عالية، فلا يدركهم الخوف فيسودهم الاضطراب والفوضى.

وتَمّت عملية الانسحاب من مؤتة كما قدَّر وأراد القائد خالد، فتمت على أدق نظام، ودونما أية خسارة، وذُهل الروم أمام هذه المفاجأة والخُدعة الحربية البارعة، وما استطاعوا أن يتعقَبوا المسلمين أثناء انسحابهم مسافة ستَمائة ميل، وخافوا أن يكون الانسحاب مكيدة حربية جديدة يُديرها القائد خالد لإيقاع الجيش الروماني إذا ما تتبع المنسحبين المسلمين في كمائن قد أعدَّها مُقدَّمًا، فأحجمت القيادة الرومانية لذلك عن تعقب المسلمين.

ووصل الجيش سالمًا إلى ضواحي المدينة – عند منطقة الجُرف – وجعل أهل المدينة يصيحون بالجيش يا فرار فررتم، ويحثون في وجوه الجُند والقادة التراب، وأتت كلمة الوحي ناصعة تردُ الأمر إلى موضعه، فقد قال الرسول ﷺ: «ليسوا بالفرار، ولكنهم الكرار في سبيل الله»، وتكفي شهادة الرسول ﷺ شهادة لهم.

- عبرة

يا سادة، في هذا الموقف يبين لنا براعة خالد بن الوليد رضي الله عنه الحربية حيث جعل مقدمته ساقته وساقته مقدمته وميمنته ميسرته وميسرته ميمنته، فأوهم العدو أن المسلمين قد تلقوا مددًا جديدًا وأصبحت كل طائفة من الأعداء ترى وجوها غير التي رأتها بالأيام الماضية، وهذا مثل من أمثلة عبقريته القيادية، فلقد كان لخُطَته هذه بعد توفيق الله تعالى أبعد الأثر في إثارة الرعب لدى الأعداء وإصابتهم بالفشل، حتى وقع ما يشبه خوارق العادات من انتصار جيش صغير على جيش ضخم يفوقه في العدد بأكثر من ست وستين مرة.

ولقد بذل سيف الله المسلول جهدًا عظيمًا في تلك المعركة، وقد صور هذا الجهد بقوله: «لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف وصبرت في يدي صفيحة لي يمانية»، وهذا يدل على ضراوة هذه المعركة، والجهد الكبير الذي بذله الصحابة فيها.

وما فعله خالدٌ في انسحابه يُمثِّل أعلى درجات النصر، هذه حقيقة تؤكد صحتها كل الأعراف والمقاييس العسكرية في كل زمان ومكان.

وعلم المسلمون بعد ذلك قدر تضحية خالد وبذله، وأن انسحابًا كهذا كان من الاستحالة بمكان، ولكن لا مستحيل على القلب الشُجاع، ومَن أشجعُ قلبًا من أبي سليمان، وأروع عبقرية وأنفذُ بصيرة؟!

لقد برهن الرسول الأعظم ﷺ على أنه قمة في المعرفة بأقدار الرجال حين منح القائد خالد بن الوليد لقب سيف الله في الوقت الذي تلقَّى فيه جمهور المدينة خالدًا وجيشه يقذفونهم بالحجارة ويحثون التراب في وجوههم ساعة عودتهم من المعركة.

المغامرة الفاشلة

«إنَّ النصر مع الصبر» قاعدة علمنا إياها الإسلام في دستوره، فقد علمنا ديننا الحنيف أن اليأس محذوفٌ من معاجمنا، علمنا الإسلام أن نعمل في سبيل ربنا، وأن نعمل في سبيل ديننا، نعمل في سبيل العقيدة، وأخيرًا لا بُد أن نصل إلى الطريق، وفي التاريخ الإسلامي أمثلة كثيرة على ذلك، وسأتحدث الآن عن مثل واحد ممن علموا للإسلام، وصبروا على الشداد، وصدقوا النيّة لله، فرفعوا من شأن الأمة، نحن في هذه السطور نتحدث إليكم عن موقف لعملاق من عمالقة تاريخنا، إنه حسن باشا بن خير الدين بربروسا رحمهما الله، فتعالوا بنا لنتعرف على هذا الموقف الأسطوري عن قرب.

أراد شارل الخامس - شارلكان - إمبراطور ألمانيا وإسبانيا وزعيم التحالف الصليبي الموجة ضد الدولة العثمانية أن يخفف من الآثار السلبية التي خلفها تراجع قواته في وسط أوروبا أمام القوات العثمانية بعد هزيمة موهاج – موهاكس -، إضافة إلى الهزيمة القاسية التي مُنيت بها القوات البحرية في معركة بروزة الخالدة، ورأى شارلكان أن ذلك من الممكن تحقيقه من خلال القيام بعملية حربية هجومية يستطيع بواسطتها أن ينتزع السيطرة على الجزائر في الشمال الإفريقي.

ولكي يوفر لمغامرته عوامل النجاح اختار توقيتًا ارتآه ملائمًا؛ فقد اختار الوقت الذي كان فيه أمير البحار الباشا خير الدين بڕبروسا قائد البحرية العثمانية، بعيدًا عن الجزائر، وفي الوقت نفسه لم تكن توجد في الجزائر قوة دفاعية كافية لصد الأساطيل الضخمة؛ لا على المستوى البحري؛ ولا على المستوى البري.

وفي المقابل ذلك كان الأسطول الصليبي كبيرًا بدرجة هائلة، وكان يقوده شارلكان نفسه، ومعه القائد الصليبي الشهير أندريا دوريا، والذي اعتبر في أوروبا في ذلك الوقت أكفأ القادة البحريين على الإطلاق، ومن أكثر القادة الصليبيين حقدًا وعداوة للإسلام والمسلمين.

وإيغالًا من شارلكان في الثقة بأن النصر سيكون إلى جانبه لا محالة أخذ معه كبار الأشراف من الإسبان والقطالون والإيطاليين والألمان، ليس هذا فحسب بل إنه أخذ مع كبار الأشراف زوجاتهم الدوقات والماركيزات والكونتيسات؛ أحضر شارلكان هؤلاء جميعًا معه ليشاهدوا بأم أعينهم انتصاره الساحق على المسلمين.

وعلى الجانب الآخر، كان يتولى شؤون الجزائر بيوك حسن رئيس، الابن الأكبر لخير الدين بڕبروسا، وكان يوجد تحت إمرته ستمائة جندي تركي، وألفان من العرب والأمازيغ المتطوعين.

كانت الدلائل تشير إذن إلى أن النصر سيكون لا محالة في جانب الصليبيين، وفوق ذلك فإن النصر لن يكلفهم الكثير، إن هي إلا جولة سريعة وخاطفة ويتم تطويق المغرب الإسلامي من خلالها، وبعدها تخفق الرايات الصليبية على أرض الجزائر الإسلامية مؤذنة بانتصار كبير لشارلكان، وبهذا يكون القائد الصليبي قد وجه للدولة العلية وسلطانها صفعة تفوق تلك التي تلقاها في قلب القارة الأوربية عند موهاج، هذا ما كان يعتقد شارلكان بناءً على حسابات القوى الماثلة معه.

هناك على أية حال، فقد بدأت القوات الصليبية بالهجوم، وتحقق لها بالفعل نوع من التفوق، غير أن الهجوم الإسلامي المضاد، والذي قاده بيوك حسن رئيس، قلب كل شيء رأسًا على عقب؛ إذ سرعان ما سرت روح الهزيمة بين الصليبيين من قوة الهجوم، وأخذ مسار المعركة ينقلب ضد الأعداء، وعندئذ لم يجد الإمبراطور شارلكان بُدًا من إصدار الأوامر إلى جنوده بالانسحاب إلى السفن الراسية في عرض البحر.

بدأت السفن الصليبية في التقهقر أو الانسحاب، غير أن قائد المجاهدين لم يقنع بهذا القدر من النصر، بل أمر جنوده بمطاردة المنهزمين، وفي هذه المطاردة، كما تؤكد المصادر التاريخية، سقط الآلاف من الجنود الصليبيين.

ومع إطلالة الصباح لأحد الأيام في الأسبوع الأول من جمادى الثانية سنة ٩٤٨ هجرية = سبتمبر ١٥٤١م كانت المعركة قد أسفرت عن هزيمة مروعة للأعداء الصليبيين.

ويكفي للتعرف على حجم هذه الهزيمة أن نعرف أنهم فقدوا عشرين ألفًا من الجنود في ساحات المعارك، وعشرين ألفًا غرقًا في البحر، وهذا العدد يتجاوز الثلاثين ضعفًا بالنسبة لمجمل القوات البحرية التي كان يقودها حسن رئيس، وإضافة إلى العدد الهائل من القتلى وقع في أسر المسلمين قرابة عشرين ألفًا، من بينهما كبار القواد والأمراء والأميرات، وصفوة المجتمع الأوربي من السيدات الإسبان والألمان والإيطاليين.

وقد وقع في أسر المسلمين كل هؤلاء والذين سبق لشارلكان أن جاء بهم معه ليروا انتصاره، فتشاء إرادة الله تعالى أن يشاهدوا هزيمته المفجعة.

بل إن شارلكان نفسه لم ينج من القتل أو الأسر إلا بصعوبة بالغة؛ فلا غرابة إذن أن يسجل التاريخ عنه أنه بكى بحرقة، بل وألقى بالتاج الذي كان يضعه على رأسه في مياه البحر، وهذا يعني أنه رأى نفسه أنه لم يعد جديرًا بالتاج الذي يزين مفرقه، والذي يفيد أنه إمبراطور أوروبا وزعيم التكتل المعادي للدولة العثمانية.

وختامًا، إن قصة غزو شارلكان للجزائر وما آلت إليه تبدو أقرب إلى الأساطير منها إلى الواقع التاريخي، ولولا أن المصادر الصليبية سجلتها بكل ما فيها من تفاصيل لقلنا عنها إنها من نسج خيال بعض المغرقين في التفاؤل من المسلمين.

وهكذا جاء شارلكان إلى مياه البحر المتوسط لكي يحقق انتصارًا يحسن به صورته نظرًا لما لحقه من هزائم في قلب أوروبا، غير أن النتيجة جاءت مخيبة لآماله، لقد فشل فشلًا ذريعًا، وبالتالي أطلق على محاولته العسكرية اسم المغامرة الفاشلة.

- عبرة

يا شباب، إن مما يذكر لبطل حسن رئيس رحمه الله والجيش والمتطوعين العرب والأمازيغ ثباتهم الراسخ أمام هجوم الأعداء العنيف، بالرغم مما اعترى بعضهم من الانكسار المؤقت في أول المعركة، ولكن كان لشجعان المسلمين أثر في صد هذا الطوفان الهائل من الأعداء، وصمد هؤلاء الأبطال رغم تراجع بعض المجاهدين، ثم صبروا لأعدائهم الذين استقتلوا وأظهروا التحدي حتى أنزل الله تعالى نصره على عباده المؤمنين، وخذل أعداءه المعتدين رغم كثرة عددهم.

وهكذا انتصر ألفان وستمائة من المسلمين على أكثر من سبعين ألف من التحالف الصليبي، لما صبر المسلمون واستعانوا بربهم، وكانوا يدًا واحدة على أعدائهم، وإنما كان المسلمون يُخذلون دائمًا أمام الصليبيين لشدة فزعهم وعدم صبرهم واختلاف قلوبهم، وكانت هذه المعركة الهائلة بداية جديدة للسيطرة العثمانية على بلاد المغرب الإسلامي ووقف الزحف الإسباني البرتغالي على بلاد الإسلام.

الأمير الباسل

إن الشجاعة قوة عقل قبل أن تكون قوة جسد، وسلامة قلب قبل أن تكون سلامة خطة، وعظمة خلق قبل أن تكون عظمة نسب، وعزة إيمان قبل أن تكون عزة جاه ومنصب، شجاعة تراعي فيها المبادئ القويمة التي عرفها أقطاب الرجال الموصوفون برجاحة العقل، وسداد الرأي، وسلامة القلب، ووضوح الهدف، وتقدير الأمور قدرها في الوقت المناسب، مع صدق الهدف، ونبل الغاية، وفي تاريخنا من هذا الصنف من الرجال الكثير، ومنهم كان الأمير البطل سافجي ابن الغازي أرطغرل رحمهما الله تعالى، فتعالوا بنا لنعيش سويًا مع المشهد الختامي من حياة هذا الأمير البطل.

كانت عشيرة قايي تتجه بسرعة صوب منطقة طومانيج، بضع مئات من الفرسان يقودهم الأمير عثمان بن أرطغرل غازي، وحوله أخواه الكبيران كوندوز آلب وسافجي ، لم يظهر العدو حتى الآن في المكان، كانت طائفة من الفرسان نائمة في الخيام، وأخرى خارجها، فغدًا عند لقاء العدو سينال بعضهم شرف الشهادة هنا، ولن يستطيعوا العودة إلى مدينة سوغوت.

وعندما انبلج الفجر في جبال طومانيج، نهضت أفراد العشيرة جميعًا، وبعد صلاة الفجر تكلم الغازي عثمان وقال: «جنودي، فلندعو الله جميعًا أن ينصرنا في هذه الحرب، ففي هذا اليوم سيقدم بعضنا دماءه هنا، وسيقدم الآخرين أرواحهم، فليسامح كل منا أخاه»، وكأنها ليست بصلاة الصبح بل كأنها صلاة العيد، فقد تعانقوا جميعًا.

وعندما اقتربت ساعة الظهيرة، تراءى للعيون غبار من بعيد، فقد جاء الجيش الروماني، فبعث عثمان بك أحد رجاله سفيرًا إلى نيقولا قائد جيش الروم البيزنطيين، لعرض الإسلام عليه، أو الجزية أو الحرب، فالتفت نيقولا إلى جنوده وقال: «هل سمعتم عثمان الذي لا يبلغ جنوده جزءًا صغيرًا من جيشي يتحدانا؟»، ثم قال للرسول: «انظر إليّ أيها الرسول، اذهب إلى سيدك، فمن يناطحنا نقطع رأسه، وقل له، استسلموا الآن، وإلا فالعاقبة وخيمة، ولن نُبقي من عشيرتكم رجلًا واحدًا».

رجع رسول عثمان إليه وأخبره ما حدث، فقال عثمان: «هيا يا أبطال، بقي شيء واحد سنفعله، إنه قتال الكافرين».

هاجمت وحدة سافجي جيش الروم البيزنطيين بسرعة فائقة، وفقًا للخطة المطروحة، وكانت نداءات الله... الله، الصوت الوحيد المسموع في نواحي منطقة طومانيج، ترجع الجبال، ووجد صليل السيوف، وجلبة المعركة، وتعانق الأبطال في الأرض، وسقط الكثير من جنود الروم بسبب عنف الهجوم، ثم بدأت الوحدة المهاجمة في التراجع بسرعة، وتعقبها أمير قلعة قرجة حصار ومعه أمير مدينة إينكول بجنودهما، يركضون وهم يتصايحون:

«هربت عشيرة قايي، هيا فلنقبض عليهم، وليأتي من يريد حظًا من الغنيمة»، ثم قال نيقولا: «لا تتركوا أحدًا من عشيرة قايي، وليعلموا كيف يتجرؤون على الخروج ضد نيقولا»، فعدوا خلفهم حانقين مغتاظين، من يدري كم نفس ستسيل على ظبا السيوف الصارمة في أيديهم ثم يرجعون بالغنيمة؟ وكم سيغنمون؟!

ذهل جيش الروم المتعقب بخطى حثيثة وحدة عشيرة قايي، إذ توقف الهاربون فجأة عائدين، ووقف الروم كذلك من الصدمة، كان ذلك الصمت الذي يسبق العاصفة، لم يسمع صوت سوى عاصفة تهب من جبل يرجة من الجنوب، علاوة على صهيل الخيل، أشهر قائد الروم سيفه، وصاح على جنوده: «اهجموا»، ولما أشهر سيفه في الهواء، أشار إليه أحد الجنود بجواره إلى أمر غريب سيحدث.

لقد أحيطوا بمقاتلي عشيرة قايي، ثم تراجع فرسان العشيرة قليلًا، حينئذ ظهر رماة السهام عن أيمانهم وعن شمائلهم، وسقط الروم في الكمين، فأمر عثمان غازي قواته بالهجوم، وهجم كوندوز آلب، وتورجوت آلب، وعبد الرحمن غازي، قائلين: «هيا يا الله»، كان تورجوت آلب يقتحم بصحبة رجاله صفوف الأعداء مثل الصقر، وقضى قضاء مبرمًا على جنود أمير إينكول، ثم اتجه نحو قوات أمير قرجه حصار، وحدثت لهم نفس المأساة، وقد فر نيقولا مع بعض جنوده، وقد نجا من الموت بأعجوبة، بعد أن أصبح جيشه في ذمة التاريخ.

وكان عثمان غازي يردد: «اللهم لك الحمد والشكر»، وهنأ قادته واحدًا بعد آخر، لكنه لم يرَ أخوه سافجي، وظل يبحث عنه، وجاء أحد جنود الأمير، وأخبر عثمان أن أخوه قد استشهد أثناء الهجوم الأخير، فارتفع صوت الفرسان جميعًا: «إنا لله وإنا إليه راجعون».

- عبرة

يا سادة، بمثل هذا الاستبسال والفداء عادت إلى أبناء الإسلام روحهم المعنوية، ورجع إليهم رشدهم وصوابهم، وأخذوا سلاحهم، وانطلقوا يهاجمون تيارات الإعصار الصليبي التتري، الذين يحاولون الوصول إلى قلب العالم الإسلامي، ولما تأكد المسلمون من أن الحياة والعزة في الجهاد فازدادوا به قوة، وتمكنوا من الإفلات من التطويق الصليبي التتري، وتجمعوا حول راية القرآن بعد أن باشروا القتال المرير، وجالدوا بضراوة بالغة، وثبتوا ثبوت الجبال الرواسي، ولم يتمكن العدو من زحزحتهم، وإبعادهم عن راية الجهاد والحق.

المجاهد البطل

عندما نتحدث عن التاريخ الإسلامي العظيم يتبادر إلى الذهن دائمًا القادة العمالقة العظام، الذين حاربُوا، وفتحوا، وانتصروا، وتوسعوا، وننسى دائمًا أنَّ هناك جنودًا مجهولين كان لهم الدور الأبرز والأعظم فيما وصل إليه هؤلاء القادة الأبطال من قوة وعزة، فالرجال المجهولون يتمثّلون في علماء، وقادة، وجنود، وقد يتحتم عليهم الأمر في موقف من المواقف فيثبتون صامدين في وجه الإعصار، فيكونوا عمالقة حقَيقين ولكنهم مجهولين لأكثر أبناء الأمة رغم ما قدموا للأمة من تضحية وفداء وبذل، لقد تركوا كل شيء في سبيل ربهم.

وفي تاريخنا من أمثال هؤلاء الرجال الكثير والكثير، منهم أسد الجزائر الثائر حسين باشا الجزائري رحمه الله، فتعالوا بنا نعيش سويًا في هذه السطور مع هذا المشهد الأسطوري الرائع.

كان الروس يعملون ضد الدولة العثمانية على عدة جبهات عسكرية، فبالإضافة إلى جبهتي القرم وآسيا، كانت هناك جبهة البلقان، ومن المعلوم تحريض الروس لنصارى البلقان ضد الدولة العثمانية، حتى اضطرت الدولة استبقاء حامية ضخمة هناك، وقد لجأت الدولة في محاولة منها للوقف في وجه هذا الخطر، إلى إدخال سفنها ميناء جشمة الصغير، بعد أن تلاقت مع أسطول الروس قبالة الساحل الأناضولي قرب جزيرة ساقز وحققت بعض النصر وأحرقت سفينة الأميرال الروسي.

وكان التجاء الدولة العلية إلى ذلك عمل غير صائب لضيق الميناء، واستحالة المناورة والتحرك في داخلها، ممَا أدّى إلى ضياعها، وخاصة فقد لجأ الروس إلى استئجار بعض الضباط الإنكليز من أمهر قادة البحار، فاحترقت السفن العثمانية ورجمت بالمدفعية وقبض الروس على ملاحيها، وقد ألح بعض الضباط الإنجليز على دخول مضيق الدردنيل لكنهم فشلوا، فبادر الأميرال الروسي أورلوف إلى محاصرة جزيرة ليمنى والاستيلاء عليها.

لكن هنا يجدر بنا التوقف عند نقطة تظهر روح الاستبسال لدى الجندي والقائد العثماني، إذ عندما احترقت سفينة الأميرال الروسي أو فجّرت بعد إخلائها أثناء معركة جشمة، أُصيب القائد العثماني القبودان الثاني حسين باشا الجزائري ببعض الجراح من شظايا الانفجار المذكور، وأُخرج إلى البر لتضميد جراحه.

لكنه عاد بعد شفائه وطلب من الصدر الأعظم التصريح له باسترداد جزيرة ليمنى وقال له: «يا باشا إني لا أرغب أخذ مراكب حربية لهذا العمل، بل فقط أرجو التصريح لي بجمع بعض الأهالي»، ولمَّا صرَّح له الصدر الأعظم بذلك، جمع من أهالى الآستانة نحو أربعة آلاف رجلٍ، وسلَّحهم بالبنادق وسار بهم سريعًا.

ورغم نصيحة فرنسا للصدر الأعظم ومحاولة إقناعه بعدم جدوى هذا العمل، إلّا أن حسين باشا توجه للتو إلى جزيرة ليمنى، وهجم على الروس بغتة وأوقع بهم خسائر جسيمة فولوا الأدبار وأخلوها، وخاب أملهم وارتدوا خائبين خاسرين، واستردها العثمانيون.

ولجأ الروس بعد هزيمتهم الكبرى وتدمير أسطولهم في بحر الأرخبيل إلى العمل على صعيد آخر، فقد حرضوا علي بك الكبير في مصر، حتى يشق عصا الطاعة ويعلن الاستقلال عن الدولة

العلية، وكذلك الشيخ ضاهر العمر شيخ عرب عكا الذي أمدوه بأربعمائة مقاتل من رودوس، فقتلتهم الدولة العثمانية عن آخرهم وشتت جموع المتمردين، لكنهم فشلوا في مواصلة الزحف وطرد الروس من المناطق التي قاموا باحتلالها في بداية الحرب بسبب هذه الخيانة.

- عبرة

يا شباب، لقد رأينا محاولات الفرنسيين بث روح الانهزام بين صفوف حلفائهم العثمانيين، ومحاولة إقناعهم بعدم إرسال قوة الكوماندوس بقيادة حسين باشا الجزائري لاسترداد ليمنى وتلك خطة يلجأ إليها أعداؤنا دومًا، كلما شعروا بتيقظ روح الشهادة والاستبسال عندنا، حتى يوهنوا عزيمتنا، وتضطرب آراؤنا، ويوهمونا بخطأ تصرفاتنا مع أنَّها قد تكون الصائبة.

المجاهدة الصبور

لم يكن الجهاد في الإسلام مقصورًا على الرجال، ولكنه كان فريضة على الرجال والنساء معًا إذا استدعى الأمر ذلك، وحتمت الضرورة خوضهن المعارك أو وقوفهن خلف من يجاهد؛ فنصرة الإسلام ضرورة تتطلب حشد كل الطاقات في المعارك الحاسمة التي يخوضها الأبطال في عزة وإباء من أجل حفظ الدين، وحماية الأنفس، وصيانة الأعراض والحرمات، ونحن هنا يطيب لنا أن نتكلم عن امرأة من نساء الصحابة كان لها في البطولة شأن عظيم؛ فقد أظهرت في الحرب شجاعة نادرة أذهلت قواد الحرب وفرسان القتال، وأضحت فيها مضرب الأمثال، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد الأسطوري.

كانت أسماء بنت يزيد بن السكن رضي الله عنه تحب أن تشارك الرجال في جميع الأعمال التي يثابون عليها غيرة منهم، والغيرة في مثل هذه الأمور محمودة، حتى إنها أرادت أن تشاركهم في أخص خصوصياتهم، وهو القتال والجهاد في سبيل الله عز وجل، لكن الوقت الذي يحتم عليها ذلك طال انتظارها له، حتى جاء يوم اليرموك.

لما توفي رسول الله ﷺ وهو راض عنها، أحبت أسماء بنت يزيد رضي الله عنه أن تتابع رحلة الجهاد في صفوف الفاتحين الذين خرجوا يجاهدون في مشارق الأرض ومغاربها.

ولما كانت السنة الثالثة عشرة للهجرة جمعت الروم جموعها لحرب المسلمين في معركة اليرموك الشهيرة في أرض الشام.

كانت أسماء بنت يزيد ونساء المسلمين يشاركن في هذه المعركة الضارية يحْمين ظهور المقاتلين، ويردون الفارين من المسلمين، ويقتلن من تسلل من العدو إلى صفوف المسلمين من الخلف، وكانت يومئذ زعيمتهن، تعظهن وتذكرهن بالله، وتحثهن على القتال، وكانت تعظ الرجال أيضًا، وتذكرهم مغبَّة الفرار وسوء المنقلب وضياع الدين والأهل والولد.

بدأت المعركة حامية الوطيس، وقاتل المسلمون يومئذ قتالًا تعجز عنه أسود الفلا، ولما احتدم القتال، واشتجرت الرماحُ، ولمعت بوارق السيوف اشتركت النساءُ من وراء فرسان المسلمين، وكنَ يشجعنهم، ولكن شدة المعركة وضراوتها جعلت بعض رجال المسلمين يتراجعون قليلًا إلى الخلف، فكانت النساء المجاهدات لهؤلاء الفارين بالمرصاد فيضربنهم بالحجارة وبالخشب، كي يعودوا إلى جلاد الروم البيزنطيين.

فقد كانت أسماء رضي الله عنه يومئذ كما ذكرنا تناول السلاح، وتسقي الماء، وتضمد الجراح، وتقاتل مع المقاتلين ببسالة نادرة، وبطولة فذة، ولقد روى المؤرخين أنها قتلت تسعة من الروم بعمود خيمتها في اليرموك.

وها نحن نحضر المعركة يومئذ، ونحن الآن نترك الكلام للشيخ المؤرخين ابن كثير رحمه الله ينقل لنا صورة حية عن جهاد المؤمنات، ودورهن يوم اليرموك، فيقول: «وقد قاتل نساءُ المسلمين في هذا اليوم وقتلوا خلقًا كثيرًا من الروم، وكن يضربن من انهزم من المسلمين ويقلن أين تذهبون عنا، وتدعوننا للعلوج؟»، فإذا زجرنهم لا يملك أحد نفسه حتى يرجع إلى القتال.

وما زالت المعركة مستعرةَ ستة أيام، فما كان من أسماء إلا أن اقتلعت عمود خيمتها، وراحت تضرب به رؤوس الروم حتى قتلت يومئذ تسعة من الروم، ونقلتهم إلى النار وبئس القرار.

- عبرة

هنا يا أيتها الأخوات المؤمنات يتبين لنا أن قوة الإرادة من قبل النساء في هذه المعركة وفي غيرها من فتوح المسلمين كانت عاملًا هامًا من عوامل النصر، وحافزًا من حوافز الإقدام والتضحية في ميادين القتال ببسالة وشراسة، وهكذا كانت المرأة في العصور الأولى للإسلام رمز للتضحية والفداء والكفاح، وكانت كل منهما نموذجًا فريدًا يُحتذى به.

يا أيتها الأخوات الكريمات، إننا نرى في هذه المرأة المسلمة المؤمنة مثلًا رائعًا لكل من تريد أن تكتب نفسها في عداد المجاهدين في سبيل الله؛ لتلحق بهؤلاء اللاتي ضربن بسهم وافر في نصرة دين الله عز وجل، وفي إحقاق الحق، وإبطال الباطل، وجمعن لأنفسهن بين خيري الدنيا والآخرة، وفزن فوزًا عظيمًا بحب النبي ﷺ لهن تقديره ولشأنهن، وحب أصحابه الكرام البررة لهن ولأمثالهن ممن حذون حذوهن هنا وهناك.

وإذا كنا نرى في المجتمع كثيرات من النساء قد تمردن على آداب الإسلام، وتنكرن لتعاليمه السمحة، وألفن حياة اللهو والعبث في حياتنا الدنيا، فإن تاريخنا العظيم يعرض علينا نماذج كثيرة من السيدات المؤمنات اللواتي عرفن طريق الهدى والتُقى والحق، ومهدن أمام أبنائهن طرق المكارم والعلا، ووضعن أمام الرجال والأبطال صورًا تبقى على مر الأجيال في الصبر والاحتمال.

قاهرة الروس

مهلًا مهلًا أيها التاريخ قف قليلًا قف عند محطة عظيمة، قف لتُخبر صُناع الجريمة، قف وحدثهم عن فتاتنا الكريمة أخبر حُشود الروس أنَّ رجالهم أذلتهم امرأةٌ لنا جريئة، وُلدت من صُلب الإسلام، وتربت في دولة الكرام، ولما رأت الظلم كان حتامًا عليها الانتقام، هي امرأةٌ من دولة آل عثمان، ضربت أروع الأمثلة في البطولة والتضحية والفداء، بالفأس أثبتت لدينها الولاء، بدم الروس كتبت لأخيها قصةَ الوفاء.

فتعالوا بنا لنستمتع بهذه السطور التي تروي لنا عن عمالقتنا هذه لمحةً من يوم الملحمة مع جحافل الجيش الروسي، إنَّها المرأة الباسلة التي سجلها التاريخ بحروف من ذهب، إنها المجاهدة نينه خاتون رحمها الله.

كانت نينه خاتون رحمها الله تعيش في حي من أحياء مدينة أرضروم – شمال شرق تركيا – في الدولة العثمانية يُعرف باسم العزيزية، وكان هذا الحي يقع بالقرب من أحد الحصون الهامة التي كانت تُدافع عن المدينة ضد جحافل الجيوش الروسية، وفي ليلة السابع من نوفمبر عام ١٨٧م، قام الجيش الروسي بالاستيلاء على حصن العزيزية بعد أن قتل كل الحامية العثمانية التي استبسلت في القتال دفاعًا عن هذا الحصن.

وكان لدى بطلتنا نينه خاتون شقيقٌ يُدعى حسن توفي مُتأثرًا بجراح شديدة دفاعًا عن هذا الحصن، وفي الصباح عندما وصل إلى نينه خبر استيلاء الروس على حصن العزيزية قبَّلت شقيقها الشهيد، وأقسمت أن تثأر لكن لرب ودين، فتركت وراءها في المنزل ابنتها الصغيرة ذات الأشهر الثلاثة ودموعها تمتزج بدموع ابنتها التي ستفارقها، وانضمت إلى الأهالي الذين قرروا لقاء العدو جهادًا في سبيل الله لحماية بلدهم ودولتهم.

اصطحبت نينه خاتون معها بندقية شقيقها الشهيد بالإضافة إلى فأس صغيرة، ومع أنَّ الهجمات التي قام بها المدنيون العثمانيون ومعظمهم من النساء وكبار السن المسلحين بالفؤوس ومعدات الزراعية إلا أنَّها كانت في عيون الجيش الروسي أقوى من جيوش الدنيا، حيث زحف الأهالي بسلاحهم البسيط ليواجهوا الترسانة الروسية وفي مقدمتهم نينه خاتون التي أخذت تركض حتى سبقت الأهالي في الهجوم، في نظر الأعداء هي فتاةٌ تحمل معها فأس وبندقية فقط، لكنها ترى أنَّ الله معها ضد الظلم والاحتلال.

تجهز الجيش الروسي وهو يرتجف فهو لا يقابل جيشًا ولا أسلحة ثقيلة، إنه يُقابل قلوبًا كالجبال الراسيات تحمل الإيمان واليقين، بدأ القتال، وقُتل مئاتٌ من المدنيين العثمانيين برصاص الاحتلال الروسي، ولكن غلب الإصرار والحق في النهاية، واستطاع الأهالي العثمانيون دخول الحصون بعد أن كسروا أبوابها الحديدية، وأسفر القتال الذي دار بالأيدي والفؤوس والسكاكين عن مقتل نحو ٢٠٠٠ جندي روسي وهرب بقية الجنود الروس.

وعندما عُثر على المجاهدة نينه خاتون كانت فاقدة الوعي ومصابة، وكانت يداها المخضبتان بالدماء لا تزال تقبضان بشدة على فأسها، وكانت نينه خاتون باعتراف الجميع هي الأكثر بطولة في هذه المعركة الشرسة، فأصبحت رمزًا للشجاعة ليس في بلدها فقط بل في العالم أجمع.

- عبرة

يا أيتها الأخوات الكريمات، لم تكن نينه خاتون هي المرأة الأولى في تاريخ أمتنا التي تُسطر الأمجاد، بل إنَّ النساء كُنَّ في خدمة الأمة منذ أن بزغ فجر الإسلام قبل أربعة عشر قرن، فخديجة وأسماء وعائشة والسميراء وأم عمارة وأم سليم من أروع الأمثلة على المرأة المسلمة، كُنَّ في خدمة الإسلام دومًا، وهكذا مع مرور الحقب الزمنية نجد الكثير والكثير من النساء يرحلن ويتركن خلفهنَّ بصمةً في التاريخ، لعلَّ نساءنا اليوم يقرأن التاريخ ويقتدين بمن سبقهنَّ من النساء الباسلات الطاهرات.

وبعد يا أخت الإسلام، يجب عليكم أن تتعلموا من هؤلاء القدوات الذين زينوا سماء تاريخنا، وكن كالنجمات في كبد السماء، لقد كانوا في الإسلام القدوة والمثل الأعلى، فلهذا يجب علينا أن نقرأ سير العظيمات في تاريخنا فهنَّ قدمنَّ للإسلام كما قدم العظماء من الرجال.

حامل راية الإسلام

إنَّ سرد الوقائع التاريخية من أجمل ما يقرأ الإنسان؛ وخاصةً إذا كانت هذه الوقائع مفعمةً بروح الشجاعة والقوة والعظمة والمواقف الكبيرة، والوقائع التاريخية لها أثر كبير في حياة الأمة بأسرها فكم نسمع من الغرب عن إنجازات كانوا هم الأعلى سيطًا بها، وإذا ما فتّشنا في صفحات التاريخ، وجدنا أنَّ هذه الإنجازات ترجع إلى اعتمادهم على حضارات المسلمين في علومهم وصناعتهم وتجاراتهم، وحتى في حروبهم، وخططهم العسكرية.

ونحن الآن بصدد أن نتكلم عن بطل من أعظم أبطال التاريخ، من يقرأ سيرته يظن أنها أسطورة من الأساطير، ولكنه بطل حقيقة، وليس من أبطال الأساطير، أو بطل من أبطال الأفلام الوهمية، فتعالوا بنا لنعيش سويًا في هذه السطور أمام أسوار القسطنطينية حتى نرى بأعيننا هذه البطولة الفريدة في دنيا البشر.

في حصار السلطان محمد الفاتح للقسطنطينية في محاولة فتحها، تكلمَ الجنود عن أسوار القسطنطينية التي أُحكم تحصينها البيزنطيين، والزيت المغلي الذي يصبُونه على المسلمين فيُهلكهم، هنالك ارتفع صوت كله عنفوان وعزم، يقول: «الهلاك المحقق؟! وهل جئنا إلى هنا إلا لنهلك في سبيل الله عز وجل؟!»،

نظر القوم نحو قائل هذه العبارات، فإذا هو الجندي المجاهد حسن أولوبادلي، وهو شاب في مقتبل العمر، انطلقت الكلمات من قلب حسن، ينطق بها لسانه: «يا إخوتي، كيف نخاف من زيت البيزنطيين المغلي، إذا كنا مجاهدين حقًا؟!، وهل تركنا قريتنا، وأهلنا، وأحبابنا، إلا من أجل لقاء ربنا عز وجل شهداء في سبيله؟!»

أقبل جند الإسلام على الفتى المؤمن، يبايعونه على أن يكونوا أول من يجيب نداء قائدهم المجاهد في الغد، وتواعدوا أن يكون هدفهم الثغرة التي أحدثتها مدافع الإسلام، قريبًا من باب في الجهة الشمالية للقسطنطينية.

ومضى جند الإسلام كل في شأنه ما بين رجل أخذته سِنة من النوم، وآخر قائم يصلي ويتهجد، وآخر يناجى ربه ويسأله الشهادة في سبيله، أو النصر للمسلمين، وسرعان ما شق سكون الليل نداء المؤذن لصلاة الفجر، فتدافع جند الحق سبحانه للوقوف بين يدي ربهم عز وجل، يؤدون صلاتهم، ويبتهلون إليه أن يرزقهم إحدى الحسنيين: الشهادة أو النصر.

ولما قضيت الصلاة، امتطى السلطان المجاهد محمد الفاتح صهوة حصانه، وإلى جانبه العالم المؤمن الشيخ محمد بن حمزة الدمشقي - آق شمس الدين - ، بثوبه الناصع البياض، وطلعته النورانية، يذكى في المجاهدين الشوق إلى الجنة.

وانطلق أمر السلطان الشاب إلى جنده في بضع كلمات قليلة العدد، لكنها تعدل في ميزان الله عز وجل الدنيا وما فيها حيث قال: «يا أبنائي، ها أنذا مستعد للموت في سبيل الله، فمن رغب في الشهادة فليلحق بي»، واندفع السلطان المجاهد نحو أسوار القسطنطينية، واندفعت من ورائه جموع الراغبين في الشهادة من جند الإسلام وأبطاله.

واستمر القتال، كأشد ما يكون القتال، من الفجر حتى بزوغ شمس يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى ٨٥٧ هجرية = ٩ مايو ١٤٥٣م، ولم يستطع المسلمون الوصول إلى أسوار القسطنطينية، على الرغم من مئات الشهداء الذين تناوشتهم سهام البيزنطيين التي انهمرت عليهم كأنها المطر المنهمر من السماء، واستمر الكر والفر، وقوافل الشهداء تزداد لحظة بعد لحظة، ولم يفت في عضد المسلمين كثرة شهدائهم، بل كانوا يتدافعون بحماس نحو الأسوار.

والعالمان المجاهدان آق شمس الدين، والملا إسماعيل أحمد الكوراني يتقدمان جموع المجاهدين يذكيان في نفوسهم الشوق إلى الشهادة والاستشهاد، ويذكرانهم بالجنة ونعيمها.

وفي ناحية الآخر من الأسوار كان جستنيان الجنوى قائد الحماية البيزنطية لا يكل ولا يمل ينتقل من موضع إلى موضع يبعث الحماس والقوة في جنوده، ويضرب لهم المثل بنفسه، ويقول لهم: «لقد صددنا هجمات العدو من قبل؛ وسنصدها الآن أيضًا».

وحمى وطيس العراك، وبلغ أقصى مداه في العنف والشدة لا سيما عند باب طوب قبو؛ وباب أدرنه قبو، ولا غرو فقد أدرك الفريقان أنها الساعة الأخيرة للحاسمة من تلك المعركة التي بدأت منذ أكثر من خمسين يومًا، فإما أن يستولى العثمانيون بعدها على القسطنطينية؛ وإما أن يردوا عنها ردًا لا يعودون بعده أبدًا إلى الهجوم.

وشهدت هذه المعركة أروع صور البسالة والاستماتة من الجانبين، وفي تلك الأثناء كان الشاب المجاهد حسن وثلاثون من رفقائه الفدائيين يتقدمون بخفة وحذر نحو الثغرة التي حددوها هدفًا لهم بالأمس، وقد أمسك كل منهم السيف بيمينه، والترس بيساره، ولم يبالوا بالنبال والقذائف التي انهمرت عليهم كالمطر من فوق السور حتى إذا بلغوا الثغرة، اندفعوا إلى قرابة سور المدينة مكبرين مهللين، فتلقفتهم مئات السيوف والرماح، وانهمرت على أجسادهم مئات الأسهم، واندلقت فوق رؤوسهم قدور الزيت المغلي، ولكن حسن وإخوانه لم يأبهوا لكل هذا العناء، فقاتلوا قتالًا لا يقدر عليه إلا رجال صنعهم الإسلام.

وأخذ المجاهدون يستشهدون واحدًا بعد آخر حتى قتل منهما ثمانية عشر، وتسلق حسن وبقية رفقائه الفدائيين السور، فأسرع إليهم المدافعون من المدرعين؛ ونشب بينهم صراع دام عنيف، وقد أظهر حسن بسالة نادرة في القتال أشاد بها المؤرخ البيزنطي فرانتزتس الذي شاهده بنفسه، وأصيب هذا الجندي الشجاع بقذيفة قوية أوقعته إلى الأرض داخل المدينة، ولكنه نهض على ركبتيه وظل يقاتل في حماس وحمية، وتكاثر عليه الأعداء وخرقته الرماح والنبل فخر صريعًا شهيدًا بعد أن أظهر أن الطريق إلى اقتحام المدينة قد تمهدت وأن الوصول إلى أعلى السور قد أصبح ميسورًا.

وزاد ذلك حماس المسلمين فضاعفوا جهدهم وقوتهم في الهجوم، واشترك الفاتح بكل قواته في هذا الهجوم، حتى انسحب جستنيان بعد أن أثخنته الجراح، فانتهز الفاتح هذه الفرصة وشدد وطأة الهجوم عليهم، فتمكنوا بعون الله وقوته من الوصول إلى أحد أبواب القسطنطينية ففتحوه، ودخل العثمانيون المدينة.

- عبرة

يا سادة، في هذا الخبر مثال على قوة إيمان السلطان محمد الفاتح رحمه الله ورسوخ يقينه، وذلك لحضور قلبه القوي مع الله تعالى، واعتقاده الجازم بأن النصر بيده عز وجل وحده، ولما

كان شديد الاهتمام بأمور المسلمين محترقًا قلبه خوفًا عليهم وعلى انتكاس راية المجاهدين، فقام في بسالة نادرة؛ وشجاعة فائقة، واندفع نحو السور لا يخشى الموت، فكانت هذه البطولة أكبر حافز للمجاهدين في تدمير الأسوار ودخول المدينة.

بطل حتى النهاية

الفدائية في الإسلام مخاطرة بالنفس التي هي أعز شيء على الإنسان في سبيل العقيدة، والغاية الشريفة والدفاع عن العرض والأوطان، وقد تبارى الأبطال المغاوير من المجاهدين عبر التاريخ في تقديم التضحية بالنفس والمال في ميدان العزة والشرف فسجل كل منهما حدثًا هامًا في تاريخ الإسلام، ظلت الأجيال جيل بعد جيل تردد هذه التضحية، حتى أصبحت هذه التضحية، كالنجم في كبد السماء الذي يهتدى به الإنسان في ظلام الليل، فكانت هذه الفدائية هي مهبط الشرف من حياته، ومعقد الفخر من سيرته التي تصاحبه في حياته، وتُروى عنه بعد مماته.

وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه من أعظم أبطال التاريخ، فلقد بذل أقصى الجهد في الجهاد في سبيل الله أيام دولة الرسول القائد ﷺ، وفي أيام خلفائه الراشدين من بعده، لم يتخلف عبد الرحمن عن معركة من المعارك الكبرى، ولم يقعد عن جهاده مشروع، ولقد كان له في يوم اليمامة بلاء عظيم، وكان لثباته واستبساله دور كبير في كسب المعركة من جيش المرتدين.

بل هو الذي أجهز على حياة الطاغية محكم بن الطفيل، والذي كان العقل المدبر لمسيلمة الكذاب، كما كان يحمي بقوته أهم مواطن الحصن الذي تحصَّن جيش الردة في داخله، فلما سقط محكم بضربة من عبد الرحمن، تشتَّت الذين حوله، انفتح الحصن مدخل واسع كبير تدفقت منه مقاتلة المسلمين، وها نحن في هذه السطور نعيش سويًا في رحاب هذا الموقف الذي يكتب بماء الذهب، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد الخالد.

لما تُوفي الرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه ارتدَّت كثيرٌ من قبائل الجزيرة العربية فرماهم خليفة رسول الله أبو بكر الصديق رضي الله عنه برجال يحبون الموت أكثر من حبهم للحياة، وكان على رأس هؤلاء الأسود المغاوير سيف الله خالد بن الوليد، والبطل الصناديد عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وعددٌ كبير من أسود الصحابة من المهاجرين والأنصار وأبناء البوادي الذين ثبتوا على الإسلام والإيمان.

شهد عبد الرحمن رضي الله عنه فتح اليمامة معقل مرتدين بني حنيفة، وأبلى في قتالهم بلاءً حسنًا، وقتل يوم اليمامة سبعة من قادة مسيلمة الكذاب، وعلى رأسهم محكم بن الطفيل – أو محكم اليمامة كما كان يطلق عليه المرتدين – وهو الرجل الثاني في بني حنيفة بعد الكذاب، وكان هذا الخبيث الفاجر مهيبًا شجاعًا فارسًا شرسًا، وخطيبًا لسنًا مُفوهًا، وزعيمًا قائدًا مسموع الكلمة في بني حنيفة.

فعندما شعر هذا الأفاكُ الخبيث بأن أبطال الإسلام وفرسانهم شرعوا يهدمون صفوف الردة، ويذيقونهم حرَّ سيوفهم؛ ولسعات رماحهم، ووخزات سهامهم، وأنَّهم قريبون من مقر قيادة المتنبئ المزعوم مسيلمة أحسَّ بصعوبة الموقف، ولاحظ بأنَّ زمام الأمور أخذ يفلتُ من أيدي بني حنيفة، وكان خارج الحديقة يقودُ الجموع نيابة عن كذاب اليمامة القابع في داخل الحديقة يتلقَّى الوحي بزعمه، فقد شعر أن خيل المسلمين تكادُ تخالطُ من يحيطون به ويحمونه، هناك وقف خطيبًا في بني حنيفة يحرضهم على الثَبات، ويشدّ من عزائمهم التي تلاشت أمام صناديد الإسلام وأبطاله، ويُطالبهم بأن يحافظوا على النساء والذرية، وأن يخرجوا حسبهم.

لكن الطوفان الإسلامي نحوه لم يسمح له بأن يتابع الخطابة، وبثّ الهمم في نفوس المرتدين، وعندها أصدر أمرًا سريعًا عاجلًا إلى من حوله في ساحة القتال أن يتركوا أماكنهم، وأن يدخلوا الحديقة، ومن ثم يتحصنوا بها، ونادى بأعلى صوته في المرتدين: «يا بني حنيفة ادخلوا الحديقة، وانحازوا إلى نبيكم، فإني سأمنع أدباركم».

وقف الخبيث في نخبة من صناديد بني حنيفة يحمى قومه، فبصر به عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه ، وهو يقاتُل عن قومه أشدَّ القتال، فانقض عليه عبد الرحمن كالصقر وقتله فسقط محكم قتيلًا، فهتف المسلمون: «الله أكبر»، ثم دخلوا الحديقة، فخلصوا إلى مسيلمة الكذاب فألحقوه بمحكم والرجال بن عنفوة إلى جنهم.

- عبرة

يا شباب، لقد كان الدين في حياة الجيل الرباني الفريد هو قضية القضايا التي من أجلها يتحركون ويسهرون ويتعبون ويسافرون ويجاهدون، وكان حرصهم على هداية الخلق أشد من حرص الأم على حياة وحيدها فهم خير الناس للناس، وأرحم الناس بالناس، ولهذا انطلق الصحابة في فجاج الأرض ينشرون الهدى حتى مات أكثرهم بعيدًا عن بلده لأن الدين هو الذي كان يحركهم ويخرجهم من بلدهم ويدفعهم دفعًا لأداء الأمانة التي ائتمنه الله عليها وهي إبلاغ الحق للخلق بحق.

يا سادة، إذا استحكمت الأزمات، وتعقدت حبالها، وترادفت الضوائق، وطال ليلُها، فالصبرُ وحده هو الذي يشعُ للمسلم النور العاصم من التخبط، والهداية الواقية من القنوط، والصبر فضيلة يحتاج إليها المسلم في دينه ودنياه، ولا بُد أن يبني عليها أعماله وآماله، وإلا كان هازلًا.

إنها لله والجنة

الإيمان هو الحياة، والحياة الحقيقية هي الحياة الإيمانية، وعلى قدر امتلاء القلب بالإيمان وارتواء الفؤاد بمعانيه تكون التضحية والبذل برهانًا على صدقه ودليلًا قويًا عليه، الإيمان وما أدراك ما الإيمان؟ إنه تلك الطاقة الجبارة، والحماسة الفوارة، والنور المتلألئ الذي يبعث في الأجساد الميتة روح الحياة، فتسري في دمائها بشاشة الإيمان فتصوغ من تلك النفس نفسًا زكية وأخلاقًا رضية، تنبهر لجلالها وروعتها عيون الناظرين، وتطرب بالحديث عنها آذان السامعين، وتأنس بها الحياة، وتسعد بها قلوب الصادقين.

ولا زالت الأرض تشهد بروعة بذل الصحابة في سبيل الله، فأنّي اتجهت وجدت حبات الرمال والهضاب والسهول تنطق بصدق التضحية التي قدَّمها ذلكم الجيل الرباني الفريد، وصدق فيهم قول العزيز الحميد في كتابه المجيد: {مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} (الأحزاب: ٢٣).

فقد صدقوا مع ربهم وفوا له بعهودهم، وبذلوا أرواحهم، ومهجهم، ودماءهم، وأموالهم في سبيل الله عز وجل، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد الرائع لنتعرف ماذا فعل الإيمان في قلوب هؤلاء الأبرار المتقين.

في بيت من بيوت المدينة، جلس خيثمة بن الحارث الأنصاري، يتجاذب أطراف الحديث مع ابنه سعد رضي الله عنه ، فيما يتعرض له الإسلام من مكائد الجاهليين واليهود والمنافقين، وفجأة، يكف خيثمة عن الحديث، ويصيخ بأذنيه، كأنما يحاول أن يستجلى أمرًا، لكن أذنيه تخذلانه، فيطلب من ابنه سعد أن يعرف الأمر، ويأتي له بالخبر اليقين.

يسارع سعد يلبى طلب أبيه، ثم لا يلبث أن يعود والبِشر يعلو وجهه، ويتجه نحو سلاحه فيتمنطق به، ويهم بالخروج، وقد نسى أن يخبر أباه بالذي رأى وسمع، ويثب خيثمة من مجلسه، ويعترض طريق ابنه سعد وهو يقول:

«يا بني، أرسلتك تستجلى حقيقة الأمر، وأراك تحمل سلاحك، وتنطلق مسارعًا، دون أن تخبرني شيئًا»، فيقول سعد، وقد أدرك الخطأ الذي وقع فيه: «عذرًا يا أبتاه، شغلني عنك نداء رسول الله ﷺ، يدعو للنفرة إلى بدر، فأسرعت أجيب النداء يا أبتاه».

ويطرق خيثمة بن الحارث رأسه قليلًا ثم يقول: «مهلًا يا بني، أتراك أقدر مني على النفرة مع رسول الله ﷺ، إني والله لأشد رغبة في النفرة منك، ولكن لا بُد لأحدنا أن يقيم مع نسائنا، فأقم أنت يا سعد، وخل بيني وبين النفرة مع رسول الله».

أبى سعد ذلك، فقد رأى أن هذه فرصة لا تعوض للاستشهاد في سبيل الله، فيجيبه قائلًا: «لا والله يا أبتاه، ما يقعدني عن النفرة مع رسول الله ﷺ عليه أمرًا، فإن شئت أن تخرج أنت فاخرج، ولنسائنا رب يحميهن ، والله يا أبتاه ما في الدنيا شيء تطمع به نفسي دونك».

ويكرر الأب الشيخ رجاءه: «يا بني إني قد بلغ مني الكبر مبلغه، وأنت ما يزال أمامك بإذن الله متسع من عمر، وما هذه بآخر نفرة تنفرها مع رسول الله، فآثرني بالخروج اليوم يا سعد، وأقم

أنت مع نسائنا».

ويطرق سعد قليلًا، ثم يخاطب أباه بأدب جم عظيم: «يا أبتاه، والله ما في الدنيا تطمع به نفسي من دونك، أما هذه فلا، إنها الجنة يا أبتاه، والله لو كان شيء غير الجنة لآثرتك به».

ويطول الحديث بين الأب الشيخ، والابن الشاب، دون جدوى، فلا يجدان بُدّا من الاستهام، فيفوز سهم سعد، فيقول خيثمة مرة أخرى: «يا بني آثرني بها اليوم»، فيقول سعد مرة أخرى: «والله يا أبتاه لو كان غير الجنة لآثرتك به، ولكنها الجنة، ووالله لا آثر بها أحدًا»، فيعانق سعد أباه، ويودع أهل بيته، وينطلق يلحق بركب الرسول القائد ﷺ.

وتمضي الأيام، والأب الشيخ المؤمن لا يفتأ يدعو لابنه بخير، أن يرزقه الجنة، أو النصر، ثم لا تلبث أخبار بدر أن تتوالى، ويأتي لخيثمة من يبشره باستشهاد سعد، بعد أن صال وجال في صفوف العدو، وأثخن بهم الجراح، فلا يزيد خيثمة أن يقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون، لقد صدقت الله يا سعد فصدقك الله، وأني لأرجو الله أن تكون فزت بالجنة».

وتتوالى الأيام والليالي، وخيثمة بن الحارث لا يفتأ يذكر ابنه سعدًا، شهيد بدر، وبعد عام من بدر، ينطلق في أجواء المدينة صوت منادى رسول الله ﷺ يدعو المؤمنين للنفرة إلى أحد، فيسارع خيثمة يلبى النداء، فيتلقاه الرسول القائد صلوات الله وسلامه عليه ببسمة مشفقة.

ولكأن خيثمة يدرك ما في نفس رسوله القائد من إشفاق على شيخوخته وضعفه، فيقول: «يا رسول الله، والله لقد كنت حريصًا أن أنفر معك إلى بدر، لكن ولدي سعد فاز بها من دوني، فرزقه الله الشهادة، والجنة، ولقد رأيته البارحة في نومي وهو على أحسن صورة، يسرح في ثمار الجنة وأنهارها ويلح على ويقول:

يا أبتاه، الحق بنا ترافقنا في الجنة، فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقًا، وإني يا رسول الله، قد والله أصبحت مشتاقًا إلى مرافقة سعد في الجنة وقد كبرت سني، ورق عظمى، وأحببت لقاء ربي، فخل بيني وبين النفرة إلى أُحد، وادع الله لي أن يرزقني الشهادة فأدخل الجنة، وألحق بولدي سعد».

ويرق قلب الرسول القائد صلوات الله وسلامه عليه لخيثمة، فيدعو له بالشهادة كما أراد.

وحين احتدم العراك في أحد، كان خيثمة بن الحارث يصول ويجول كأنما هو في شرخ الشباب، وما زال يثخن بالكافرين الجراح، ويثخنون به الجراح حتى تغلبه الجراح فيخر شهيدًا في سبيل الله، ويلحق بإذن الله بولده سعد في الجنة، يسرح في ثمارها وأنهارها.

- عبرة

يا شباب، هذا مَثل من تسابق الصحابة رضي الله عنهم على الجهاد في سبيل الله تعالى الذي يعدُونه سبيلًا للشهادة التي هي أسرع طريق إلى الجنة وإلى علو الدرجات فيها.

فهذا سعد بن خيثمة وأبوه رضي الله عنه ؛ كل واحد منهما يريد الخروج مع النبي ﷺ إلى بدر، ولا يستطيعان الخروج معًا؛ لاحتياج أسرتهما وعملهما الزراعي إلى بقاء أحدهما، فلم يتنازل أحدهما عن الخروج رغبة في الشهادة حتى اضطروا إلى الاقتراع بينهما، فكان الخروج من نصيب الابن سعد.

ومع ذلك، فإن أبيه خيثمة ظلت تنازعه الرغبة في الخروج ليفوز بالشهادة، فطلب من ابنه أن يؤثره بنصيبه من ذلك، وكان ابنه في غاية الأدب مع أبيه، ولكنه في غاية الشوق إلى الجنة؛ حيث أجابه بهذا الجواب البليغ: «يا أبت لو كان غير الجنة فعلت».

ولسان حال سعد يقول: «يا أبت لك نفسي ومالي وكل حياتي لكنه جوار رب العزة سبحانه، وجناته فمعذرة منك يا أبتاه»، وقد صدق فيهما قول رب العزة سبحانه: {وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ} (المطففين: ٢٦).

ولما كان الله تعالى يعلم صدق نيتهما في طلب الشهادة وهبها لهما، فحينما فاتت خيثمة في بدر نالها في أحد.

الفارس الشجاع

إذا كان الجهاد فريضة باقية دائمة، وكان للجنة أبواب تتفتح للمجاهدين خاصة، تنويها بهم، وتكريمًا لهم، فإن أصحاب الرسول القائد، كانوا أصنافًا في سلوك الطريق نحو الجهاد، فمنهم من كان إذا دعي للنضال أجاب وإذا حارب أصاب، ولكنه يبقى على نفسه ويحذر مصرعه، ومنهم من كان يخرج إلى الميدان وقد تساوت عنده الحياة والموت مرددًا قول الله تعالى: {قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} (التوبة: ٥١).

ومنهم من كان يقذف بنفسه في أتون من لهب المعارك بلا مبالاة، مفضلًا الموت على الحياة، راغبًا في الاستشهاد والفوز بالرضوان، أكثر من رغبته في العودة إلى الدنيا، مرددًا قول العزة سبحانه: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ} (البقرة: ٢٠٧).

ومن هذا الصنف الأخير، الذي يفضل الآجلة على العاجلة الصحابي الأسطورة البطل ضرار بن الأزور، وكان رضي الله عنه يردد دائمًا عند جهاده:

الموت حق أين لي منه المفر

وجنة الفردوس خير المستقر

هذا قتالي فاشهدوا يا من حضر

وكل هذا في رضا رب البشر

فتعالوا بنا لنعيش سويًا في رحاب موقف من مواقف البطولة والشجاعة لهذا البطل الخارق، الذي قال في حقه سيف الله المسلول خالد بن الوليد: «ضرار رجلٌ لا يخاف الموت، خبير بلقاء الرجال»، ويا لها من شهادة عظيمة لضرار ابن الأزور من أعظم قائد عسكري عرفه التاريخ.

لقد ظهرت براعة ضرار بن الأزور في فنون الحرب وشجاعته في ميادين القتال على الجبهة الشام في أجنادين الأولى وما بعدها من معارك، فقد كان يخرج مع قائده خالد من نصر إلى نصر حتى اقتراب الجيش الإسلامي من عاصمة الشام دمشق، هنا تحرك الروم لصد المسلمين عند بيت لاهية حتى لا يتقدموا أكثر إلى دمشق.

علم خالد رضي الله عنه بأن جيشًا كبيرًا من الروم لا يعرف عدده يتقدم بسرعة من اتجاه حمص، وسيشتبك هذه الجيش في غضون يوم تقريبًا مع قوة سد الطريق المنتشرة عند بيت لاهية.

عند ذلك انتدب خالد لحرب الروم قائده الشجاع ضرار بن الأزور؛ فكان عند حسن ظنه به، فلقد قال له خالد: «يا ضرار إني أريد أن أقدمك على خمسة آلاف من المجاهدين باعوا أنفسهم لله عز وجل، واختاروا دار البقاء على دار الفناء»، فطار فرحًا، وتعجل الخروج للقاء الأعداء، قائلًا له: «يا أبا سليمان دعني أسر وحدي».

فاستمهله خالد حتى يجتمع له من سيخرج معه، ولكن ضرارًا يرى أن الموقف لا يحتمل التلبث أو التمهل، ونزعة الجهاد حتى الاستشهاد تسيطر عليه سيطرة كاملة شاملة، فهو لا يتقيد بما

يتقيد به غيره من توقيت أو انتظار، وبدأ مسيره إلى الميدان فعلًا وهو يقول: «من علم الله فيه خيرًا أدركني»، وكأن هذه الجملة كانت تطوي سرًا عجيبًا أو سحر غريبًا؛ فسارع المجاهدون وراءه حتى أدركوه على الطريق، وزحف بهم إلى بيت لاهية.

وحينما رأى المجاهدون كثرة عدد الروم تردد بعضهم، وفكر في الرجوع إلى خالد، ولكن ضرارًا البطل المقدام الذي لا يخاف ولا يهاب الموت استنكر ذلك، وأقدم وهو يقول بأعلى صوته: «والله لا أزال أضرب بسيفي في سبيل ربي، وأتبع سبيل من أناب إلى الله تعالى، والله لا يراني ربي مهزومًا، ولا أولي الدبر».

وكأنه كان يتذكر بقوله «والله لا أزال أضرب بسيفي في سبيل ربي»، قول الله جل جلاله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (الأنفال: ٤٥).

فما لبث ضرار حتى انضم إليه الكثير من رفقاء السلاح؛ فخاض بهم معركة أصلى فيها العدو نارًا حامية، وحطم أرواحهم المعنوية، وأسرَّ البطل في نفسه أن يقتل قائدهم؛ لكي تدور الدائرة عليهم؛ فيقتلون عن آخرهم، أو يفر منهم من يستطيع الفرار.

وحقق الله له الرجاء فمكنه من قتل قائدهم وردان بعد إن حمل عليه حملة صادقة فطعنه طعنة نفذت من صدره إلى عظام ظهره، وتعلق سنان الرمح بهذه العظام، وحينما هم بانتزاع رمحه من جسمه، أحاط به مجموعة من الأعداء من كل جانب، وأصيب ضرار في ذراعه الأيمن لكنه استمر في القتال بينما كان الروم يقتربون منه أكثر، وأخيرًا بعد أن أصيب بعدة جراح، تغلب عليه الروم فأسروه، وتعرف عليه أعداؤه فهو البطل عاري الصدر، وقرروا أن يأخذوا حيًا إلى إمبراطورهم ويقدموه كهدية له.

وكاد الوهن يدبُّ في نفوس المسلمين بعد أسر قائدهم البطل، وهمَّ بعضهم بالانسحاب من ساحة العراك؛ لولا أن ثبتهم الله تعالى بكلمات قالها القائد الثاني للمجاهدين رافع بن عميرة الطائي رضي الله عنه ، لقد قال لهم والألم يعتصر فؤاده: «يا أهل القرآن، إلى أين تريدون؟! أما علمتم أن من ولّى ظهره لعدوه؛ فقد باء بغضب من الله، وأن الجنة لها أبواب لا تفتح إلا للمجاهدين؟! الصبر الصبر يا جند الله، إنها الجنة ورب رافع».

يا أهل القرآن، كروا على عدوكم، وهأنذا معكم في طليعتكم؛ فإن كان صاحبكم أسر أو قتل، فإن الله حيٌ لا يموت، وهو يراكم بعينه التي لا تنام.

وكأنه رضي الله عنه يتذكر حينئذ قول الصديق أبي بكر عقب وفاة الرسول القائد ﷺ وقد فزع لموته المسلمون: «أيها الناس، من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت».

سمع الجنود هذه الكلمات، ووعتها قلوبهم؛ فعاد إليهم توازنهم وثباتهم فواصلوا النضال حتى فازوا بالنصر على عدو الله وعدوهم، وعادوا من ساحة القتال إلى قواعدهم سالمين غانمين بعد أن استشهد منهم من استشهد، عادوا وليس معهم قائدهم البطل ضرار بن الأزور.

- عبرة

يا شباب، إن الإسلام يشد المسلمين إلى الآخرة لتهون عليهم الحياة الدنيا، فإذا عرفوا الهدف وطبقوه انتصروا على أعدائهم، لأن وصولهم إلى هذا الهدف يستدعي تسابقهم إلى العيش في

سبيل الله تعالى، والموت في سبيله، أما أعداؤهم فإن أهدافهم دنيوية قريبة، وإن الوصول إليها يستدعي تنافسهم على البقاء، والمنطق الطبيعي في ذلك أن يحاول كل واحد منهم أن يدرأ الخطر عن نفسه، ويتقي بغيره، بينما المنطق بالنسبة للمسلمين الذين يعرفون الهدف السامي أن يفدي كل واحد منهم إخوانه بنفسه ليسبقهم في الوصول إلى الهدف، ومن هنا كان المسلمون الحقيقيون المدركون لأهداف دينهم المطبقون لمناهجه لا يمكن أن يُغلبوا بشكل نهائي، وإنما قد يصابون بانتكاسات مؤقتة بسبب أخطاء يرتكبونها ثم يعودون لمحاولة بلوغ الأهداف السامية، كما كان الحال مع أصحاب رسول الله ﷺ.

يا شباب، لقد كان الشعور القوي بالحياة الآخرة متمثلًا في حياة الصحابة رضي الله عنهم ، فكانت قلوبهم عامرة بالخوف من النار والشوق إلى الجنة، وكان تردد خواطرهم بين مقامي الخوف والرجاء حافزًا قويًا على تقوى الله تعالى والزهد في الحياة الدنيا والتسابق في ميادين الجهاد في سبيل الله تعالى.

الشيخ الأسد

إذا تغلغل الإيمان في أعماق قلب المؤمن، وملأ عليه كيانه كله، كان أقوى في ثباته وشموخه من الجبل الأشم، لا يزعزعه عن معتقده إرهاب عتل جبار، ولا إغراء خبيث محتال، لأن الإيمان طمأنينة لا يجامعها الخوف من أحد إلا الله، وسكينةَ يزداد بها المؤمن إيمانًا مع إيمانه كلما تفكر وتدبر في آيات الله الكونية، والقرآنية.

ومن المعلوم لدينا أن علماء هذه الأمة من أكمل الناس إيمانًا، وأصدقهم يقينًا، ولا سيما الذين أُوتوا حظًا وافرًا من اليقَين والبطولة، فإن هؤلاء هم الربانيون الذين أعز الله بهم الإسلام، وقوى بهم أركانه، وفي تاريخنا العظيم الكثير من هؤلاء العلماء الأعلام الذين كانوا مصابيح الهدى للمسلمين عبر العصور في الجهاد والدفاع عن الوطن، ومنهم كان الشيخ بديع الزمان رحمه الله، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد الرائع من حياة هذا الشيخ الجليل.

لقد اشترك الشيخ سعيد النورسي - بديع الزمان - رحمه الله متطوعًا في الحرب العالمية الأولى، على رأس ثلاثة آلاف شخص من تلامذته، وكان اشتراكهم هذا، ضد قوات الروس الذين استطاعوا احتلال مدينة بدليس، بعد قتال مرير بين قوات الروس من ناحية، وبين المتطوعين المسلمين من الأتراك والأكراد من ناحية.

ولما سقطت المدينة في يد جحافل القوات الروسية، وقع الشيخ سعيد النورسي في الأسر مع البقية المتبقية من تلامذته، إذ كان الكثير منهم قد استشهد أثناء القتال الضاري ضد القوات الروسية، وكان الشيخ أثناء مدة الأسر يعتز بكونه عالمًا، وكان يفقه الأسرى المسلمين في أمور دينهم.

وفي أحد أيام الأسر؛ كان القائد العام للجبهة الروسية القيصر نيكولا فيج في زيارة لمعسكر الأسري، فلما دخل امتثل الأسري قيامًا خوفًا منه، إلا الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي، فلاحظ القيصر عدم قيامه، فرجع مرة أخرى، ومر أمامه، فبقي جالسًا إظهارًا لإسلامه.

فدار حوار بينهما من خلال وسيط يترجم لهما.احتد القيصر الروسي، وسأل أسيره العنيد عن سبب امتناعه عن القيام له، فقال: «يبدو أنك لا تعرفني».

قال الشيخ بديع الزمان: «أعرفك تمامًا، ألست القائد العام القيصر نيكولا فيج؟»،

قال القيصر: «إذن فلم تستهين بي، وأنت تعرف من أنا؟!»، قال الشيخ النورسي: «كلا إنني لم أستهن بأحد، إنني عالم من علماء المسلمين، وهذه عقيدتي التي تأمرني بما رأيت مني».

فقال القيصر: «وماذا تأمرك عقيدتك؟»،

قال الشيخ النورسي: «إنني عالم مسلم أحمل في قلبي إيمانًا، والذي يحمل في قلبه إيمانًا أفضل ممن لا إيمان له، ولو أنني قمت لك لكنت قليل الاحترام لعقيدتي، ومقدساتي فكان الذي رأيت».
قال القيصر: «هذه إهانة لي، وإهانة لجيشي، وأمتي، أتطلق عليّ صفة عدم الإيمان؟».

احتد القيصر أكثر وقال: «في انتظارك غدًا محكمة عسكرية تنظر في أمرك»، وشكلت المحكمة،

وكتبت لائحة الاتهام، وفيها إهانة القيصر، والأمة الروسية، والجيش الروسي، وساد الحزن في معسكر الأسري، وأقبل إليه الضباط الأسري من الأتراك والألمان والنمساويين، يلحون عليه في تقديم اعتذار للقائد الروسي عله يعفو عنه.

فأبى النورسي وقال: «رغبتي في الرحيل إلى الآخرة يا إخواني، لأسعد بالمثول بين يدي رسول الله ﷺ، وجواز السفر المطلوب هو الإعدام، أما أن أخالف عقيدتي فلا، وألف لا».

فتقدم للمحكمة بثبات، وقرع إعلان حكم الإعدام قلوب محبيه جميعًا، وأقبلت ثلة من الجنود تحمله لساحة الإعدام، وبين يدي التنفيذ، قام الشيخ النورسي مبتهجًا، واستأذن القاضي في أداء واجبه الأخير، وهو الوضوء، وصلاة ركعتين، فما إن فرغ من صلاته، إذا بالقيصر يتقدم إليه قائلًا: «أرجو منك المعذرة، ظننتك تقصد إهانتي، لكن الثقة الآن تملأ قلبي أنك ما فعلت ذلك إلا إنفاذًا لأمر عقيدتك وإيمانك، لذا فقد أبطلت قرار المحكمة، وإني أهنئك على صلابتك في عقيدتك، وأعتذر منك مرة أخرى».

يا الله...

لو تكلم منطق البشر لقال: «إن النورسي أسخط القائد العام، ولا مناص عن إنفاذ الإعدام»، لكن سنة رب البشر حكمت بنجاته، ورضا القائد عليه، بل تقدم معتذرًا إليه!

وقد صدق النبي الكريم ﷺ لما قال: ((منْ الْتمس رضا الله بسخط النَاس رضى الله عنه وأرضى عنه الناس)) صحيح رواه ابن حبان.

- عبرة

يا أيها الشباب الكرام، إن الناس يذلون أنفسهم، يقبلون الدنية في دينهم ودنياهم، لواحد من أمرين: إما أن يصابوا في أرزاقهم، أو في آجالهم، والغريب أن الله قطع سلطان البشر على الآجال والأرزاق جميعًا، فليس لأحد إليهما من سبيل، فالناس في الحقيقَة يستذلهُم وهْم نشأ من أنفس مريض بالحرص على الحياة، والخوف على القوت، والناس من خوف الذل في ذل، ومن خوف الفقر في فقر، مع أن الإسلام بني حقيقة التوحيد على الصلة بالله تبارك وتعالى فيما ينوب ويروع، واليأس من الناس فيما لا يملكون فيه على الله بتًا، ولا يقدمون نفعًا ولا ضرًا.

أموت ولا أكذب

من بواعث البطولة الكبرى، الشعور العميق بالكرامة، والإحساس الشديد بالعزة والأنفة من العار، ومن يستعرض تاريخنا الثرى الغني، يجد فيه ألف بطولة وبطُولة بعثت عليها العزة والأنفة، ودفعت إليها الكبرياء والإباء، فعقبة بن نافع رحمه الله أقبل على موارد الردى يوم تهوذة، أنفةً من العار، وهو يعلم علم اليقين أنه لا صدر بعد هذا الوُرُود.

وأبو عبيد بن مسعود الثقفي رضي الله عنه رأى باب الموت مشرعًا أمامه يوم الجسر، فدخله أنفة من عار الفرار، والسلطان بايزيد الصاعقة رحمه الله وقف يوم سهل أنقرة بين أمرين أحلاهما مُرّ، فاختار الأسر مع الكرامة، على النجاة مع الهوان.

وفي تاريخنا الحديث مواقف رائعة من البطولة التي بعث عليها الشعور بالكرامة، والأنفة المتعالية على الاستهزاء أمام المستعمر الأجنبي، من ذلك ما دونه تاريخ الهند للمجاهد الكبير الشيخ رضا الله البدواني رحمه الله من موقف بطولي هز الاحتلال الإنجليزي هزًّا.

حين استعرت نيران الثورة ضد الإنجليز في الهند، كان المسلمون يتصدرون الصفوف الأولى للثورة، ويقضون مضاجع المستعمرين الإنجليز بشجاعتهم النادرة، وإقبالهم على الاستشهاد دفاعًا عن دينهم وبلادهم.

وفي يوم من أيام عام ١٨٥٧م ألقت السلطات الإنجليزية القبض على العالم المؤمن الشيخ رضا الله البدواني رحمه الله بتهمة الاشتراك في الثورة، وتحريض الناس على قتال الإنجليز.

وجيء بالعالم الشيخ ليحاكم أمام الحاكم العسكري بالهند، وكان ضابط إنجليزي كبير، وكان هذا الضابط يكبر في الشيخ جرأته وشجاعته النادرة رغم كبر سنه، فأراد أن يلتمس للشيخ مبررًا قانونيًا يطلق به سراحه، فأوعز لبعض أصدقاء الشيخ أن ينصحوه بأن ينكر التهمة أمام المحكمة .

وجيء بالشيخ مقيد بالسلاسل أمام المحكمة العسكرية، فقال له الضابط الإنجليزي: «علمت أيها الشيخ الجليل أنك لم تكن مشتركًا في الثورة ضدنا، فإن كان هذا الذي سمعته حقًا، أطلقت سبيلك في الحال!»،

ابتسم الشيخ المؤمن، وهو يجيب الضابط الإنجليزي: «لا والله أيها الحاكم، لا أجحد شرف المشاركة في حركة الجهاد ضدكم، والله لو أطلقت سراحي الآن لعدت إليك بعد ساعات بنفس التهمة التي تحاكمني بها الآن».

هنا لم يجد الحاكم الإنجليزي بُدًا من الحكم بإعدام الشيخ المؤمن رضا الله البدواني.

وسيق العالم الثائر إلى خشبة الإعدام، ومشى الحاكم الإنجليزي إلى جانبه، والشيخ المؤمن لا ينفك يذكر الله، ويثني عليه، حتى إذا اقترب موكب الموت من خشبة الإعدام، قال الحاكم الإنجليزي للعالم المؤمن:

«أيها الشيخ ما زال أمامك متسع من الوقت لتنقذ نفسك من الشنق، قل لي الآن أنك لم تشارك

في الثورة ضدنا، فأؤجل تنفيذ الحكم، ثم أعمل على براءتك، وإطلاق سراحك».

فنظر الشيخ المؤمن إلى حبل المشنقة، وهو يبتسم ابتسامة تهزأ بالموت، ثم نظر إلى الضباط الإنجليزي، وقال: «أتريد أن أكذب، لأنجو من الموت اليوم فيحبط عملي، فإذا مت بعد ذلك لقيت الله وقد حبط عملي كله؟

لا أيها الحاكم لن أكذب أبدًا، لقد اشتركت في الثورة ضدكم، لأن ديني يأمرني بذلك، فافعل ما بدا لك، فإني لا أخاف الموت في سبيل الله، فلقد حاربتكم كل هذه السنوات من أجل ذلك».

وما هي إلا لحظات إلا وجسد هذا العالم الثائر المؤمن رضا الله البدواني يتأرجح في الهواء شهيدًا في سبيل الله.

- عبرة

يا سادة، إننا عندما نتكلم عن الأبطال العملاقة نتكلم عنهم لأنهم حقيقيون، ليسوا أبطالًا كتبت ترجمتهم بحبر وورق فحسب، بل إن الحبر والورق يتشرف بذكرهم، وضمهم بين طيات الكتب لتصل أحوالهم وحوادثهم إلى القارئ، فيعرف كيف عاش هؤلاء الأبطال، وكيف قدَموا أجسادهم وأرواحهم تقربًا إلى الله، فضلًا عمّا قدموه من مال ووقت لنصرة الإسلام، فكان حق علينا أن نعرف للناس أحوالهم.

المجاهد الصادق

إنَّ مواكب الأبطال في التاريخ الإسلامي، لا تنقطع بطلٌ، يودع بطلًا، بواسلٌ وأسود في وجه العدو، لا يهابون الموت، يفتحون صدورهم له بكل ترحاب، عقيدتهم الشهادة في سبيل الله، نشيدهم رسمنا على القلب حب الأوطان، إن حبَّ بلادهم محفور في قَلوبهم، يحفظون رماله، وترابه، يسهرون على حدوده، يطلبون الشهادةَ في كل وقت وحين، وصيتهم في لباسهم، النصر، أو الشهادة، تحرير الأوطان غايتهم، أو الموت دون ذلك، ليس هذا مجرد شعار يردده اللسان والبيان، بل كان هذا أسلوب حياة، فالأمة كانت حياتهم، وللدين الله كان موتهم.

ونحن في هذه السطور نعيش مع رجل عظيم من هذا الصنف من البشر، إنه بطل فلسطين الصادق الشيخ فرحان السعدي رحمه الله، فتعالوا لنعيش سويًا بقلوبنا مع هذا الجبل الراسي.

ولد الشيخ فرحان السعدي في قرية المزار من أعمال قضاء جنين في لواء نابلس فلسطين في منتصف القرن التاسع عشر، وتلقى علومه في كُتّاب القرية ومدرسة جنين الابتدائية، إلا أنه كان مولعًا في شبابه بتلقي الدروس الدينية في المساجد، والاجتماع مع العلماء ورجال الدين، فأضفت عليه نشأته الدينية والعلمية مهابة واحترامًا في بيئته، ولما احتلَّ الإنجليز فلسطين كان يعرف بين الناس بالشيخ المجاهد.

فقد شارك الشيخ فرحان في المؤتمرات الوطنية، وفي المظاهرات ضد سلطة الاحتلال بصورة متواصلة، وفي ثورة ١٩٢٩م ألّف عصبة من المجاهدين في قضاء جنين تصدت للقوات الإنجليزية بالتمرد والعصيان، فقبضت عليه السلطة وسجنته ثلاثة أعوام في سجن عكا ثم انتقل إلى سجن نور شمس، ولما خرج من السجن انتقل إلى للعيش في مدينة حيفا، وهناك اتصل بالشيخ عز الدين القسام وانضم تحت لوائه.

و في ١٧ إبريل ١٩٣٦م هاجم الشيخ فرحان السعدي ورفيقه الشيخ عطية أبو أحمد قافلة يهودية ودمر قواتهم، ثم انتقل بعد هذه الحادثة - التي أدت إلى اشعال ثورة ١٩٣٦م - مع رفاقه إلى الجبال، معتصمين بوعورها وكهوفها يناضلون طوال المرحلة الأولى للثورة.

ومنذ مقتل أندروز الحاكم البريطاني العسكري لمنطقة الخليل، بثت سلطة الاحتلال عيونها تتعقب القساميين حتى تمكنت من القبض على الشيخ فرحان وثلاثة آخرين من رفاقه.

ولما كانت السلطة تعلم أن الشيخ هو العقل الأول للمجاهدين بعد استشهاد الشيخ عز الدين القسام، فقد حاكمته محاكمة صورية في ثلاث ساعات موجِّهة إليه تهمة مقتل الجنرال أندروز الحاكم البريطاني، وأصدرت حكمها بعدها بالإعدام شنقًا.

رفض السعدي رحمه الله أن يتكلم في أثناء المحاكمة مدافعًا عن نفسه، فكان هادئًا، وكانت كلماته قليلة جدًا وجريئة، وعندما سألوه: «أأنت مذنب؟» أجاب: «معاذ الله أن أكون مذنبًا»، وعندما سألوه في أثناء مفاجأتِهِ في مخبئه والقبض عليه إن كان يملك أسلحة، أجاب بنعم، وقال بأنه يملك مسدسًا قديمًا معلقًا على الحائط في بيته.

تبرع للدفاع عن السعدي عددٌ من المحامين، وكانت حجتهم في الدفاع عنه أنه لم يقبض عليه

وهو يستعمل السلاح، وأنه قد ذكر من تلقاء نفسه بأنه يملك مسدسًا، كما أنه أكبر عمرًا من أن يتمكن من القيام بأي عمل حربي، إلا أن المحكمة العسكرية - التي تألفت قبل٨٠ عامًا - لم تأخذ بأي من هذه الحجج ولم تستمع إلى النداءات الصادرة من فلسطين ومن خارجها بتخفيف حكم الإعدام.

فقد قررت الحكم ونفذته في ٢٢ نوفمبر ١٩٣٧م، ولم تبالِ بكون الشيخ السجين صائمًا في شهر رمضان، فنُفِّذ فيه الحكم في الحادي والعشرين من شهر رمضان من عام ١٣٥٦هـجرية، إلا أن النتيجة جاءت على عكس ما توخته الحكومة، إذ لم يحدث في تاريخ البلاد أن أُعدم شيخ وقد تخطى الخامسة وثمانون من عمره، وفي شهر رمضان المبارك.

ولقد أدى إعدام السعدي إلى انبعاث الحماسة الجماهيرية الثورية من جديد، وقد اشتهرت حادثة إعدام الشيخ السعدي إلى درجة أنها طغت على دوره الكبير، وعلى حقيقته كباعث رئيسي من بواعث الثورة، إلا أن رفاقه يعترفون له بذلك، فقد لقبه المؤرخ القسامي صبحي ياسين «بالمجاهد الصادق «، كما ذكر بأنه خليفة الشهيد القسام في الكفاح والنضال، وأول من أطلق رصاصة في سنة ١٩٣٦م على العدو.

- عبرة

يا أيها السادة الكرام، كلما دهمكم خطب جديد أو هبت عليكم من نحو فلسطين عاصفَة عدوان، فاذهبوا إلى عماد الدين زنكي، أو نور الدين زنكي، أو صلاح الدين، أو عز الدين القسام، أو إلى فرحان السعدي، لا لتسألوهم العون والنصر، فما في الوجود ميت يعين حيًا، ولست أدعو إلى الشرك أعوذ بالله، وما النصر إلا من عند الله، ولكن لتذكروا أنها قد حاقت بفلسطين من قبل مصائب أكبر من مصيبة يهود، ونزلت بها نوازلُ أشد، واجتمعت عليها أوروبا كلها، وأقامت فيها دولًا لبثت أكثر من مائة سنة، وكنا على حال من التفرق، والضعف، والجهل، أشر مما نحن عليه اليوم، وقد انجلت مع ذلك الغمة، وانزاح البلاء، وصارت حكومات الإفرنج التي عاشت في القدس، وفي أطراف الشام قرنًا كاملًا صارت خبرًا ضئيلًا يتوارى خجلًا في زاوية من زوايا التاريخ، لا يدري به أكثر الناس.

وسيأتي يوم قريب يقول فيه مدرس التاريخ لتلاميذه: «إن اليهود قد أسسوا ذات يوم حكومة في فلسطين، وهمّ المسلمين أمرها، ونال المسلمين شرها، ثم تذكروا أين الطريق للخلاص منها على أيسر حال»، والطريق هو أن يظهر في الإسلام فرحان السعدي جديد ينشر راية القرآن التي لم تنهزم قط، ويضرب بسيف محمد الذي لا ينبو أبدًا.

بطل القادسية

هذا الحديث عن بطل من أعظم أبطال الإسلام بل من أعظم أبطال الحروب في التاريخ البشرى في عهوده كلها، إنه الرجل الصالح المصلح، القائد المجرب، المحارب المظفر، والسياسي البارع، الرجل الذي تعرفه العامة بقصته التي كانت تشغل الناس الليالي الطول، ويعرفه تاريخ المشرق، وتاريخ الغرب، ببطولاته وأمجاده الفذة، فهو من أبطال التاريخ المغاوير، وهو من الأبطال الأساطير، لقد كان هذا البطل من الذين كتبوا في تاريخنا أعجب وأعظم الصفحات في البطولة والفداء والتضحية، وتاريخ الإسلام غني بالرجال الصناديد والشجعان قولًا وعملًا، إنه العملاق الفذ القعقاع بن عمرو التميمي رضي الله عنه .

ولعلك أيها القارئ الكريم قد نزع بك الشوق إلى سماع طرف من أخبار هذا الفارس المغوار، والوقوف على بعض عجائبه؛ فإليك شيئًا منها كما جاءت في كتب السير والتراجم، فتعالوا بنا لنعيش سويًا هذه السطور مع هذا الموقف الرائع، والبطولة النادرة.

ما كاد القعقاع بن عمرو ينفض يديه من غبار المعارك في بلاد الشام، ويسلم جنبه إلى الراحة بعد فتح دمشق مع خالد بن الوليد؛ حتى ورد كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه للقائد العام للجيوش الإسلامية على جبهة الشام أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه يقول له فيه: "اصرف جند العراق إلى العراق ومُرهم بالحث إلى سعد بن أبي وقاص في القادسية، وإياك أن تتريث أو تتأخر".

فصدع أبو عبيدة بأمر الفاروق عمر، وولى الجيش هاشم بن عتبة، وجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو، وقال لهما: "العجل العجل؛ فالمسلمون في القادسية يواجهون أضخم حشد حشدته الفرس في حرب، وهم بحاجة إلى كل رجُل منكم".

مضى القعقاع بن عمرو بألف فارس هم مقدمة الجيش، وطفق يُواصل هو ورجاله تعب الليل بتعب النهار؛ حتى سبقوا هشام ابن عتبة والجيش، وبلغوا مشارف القادسية فجر اليوم الثاني من أيام العراك.

عرف القعقاع أن اليوم الأول من أيام القادسية كان شديد البأس على المسلمين بسبب الفيلة التي أرهبت خيلهم، وزرعت في قلوبهم الخوف، وجعلتها تنكص على الأعقاب، ومضى القعقاع إلى الساحة مع أول خيط من خيوط الصباح بين التهليل والتكبير، وبرز إلى الأعداء قبل أن تبدأ المعركة، وجعل يمشى متبخترًا على جواده بين الصفين وهو يقول: "هل من مبارز؟"، فتوجهت العيون إلى معسكر الفرس لترى من سيبرز للقعقاع بن عمرو.

ولم تمض غير لحظات قليلات على حماسة القعقاع وجراءته؛ حتى خرج من صفوف الفرس فارس مدجج بالسلاح وقال: "أنا، أتدري من أنا يا أعرابي؟»، قال القعقاع: "من أنت؟»، قال: "أنا بهمن جاذويه ذو الحاجب، أنا قائد جيوش فارس يوم الجسر، أنا قاتل قائدكم أبي عبيد الثقفي وأصحابه"، فصرخ القعقاع وقال: "يا لثارات أبي عبيد وسليط وأصحاب الجسر" - وكان يوم الجسر هذا أشد الأيام على المسلمين في فتوح العراق -.

ولا بُد أن بهمن جاذويه على الرغم مما اشتهر به من الشجاعة قد انخلع قلبه من هذا النداء،

فلقد قال الصديق أبو بكر رضي الله عنه عن القعقاع: "لصوت القعقاع في الجيش خير من ألف رجل"، فكيف سيثبت له رجل واحد مهما كان علم في الشجاعة وثبات القلب من أعظم الفرسان!

امتشق القعقاع بن عمرو سيفه، وصال على بهمن صولة الأسد القوى؛ فلما تمكن منه، وتهيأت له الضربة القاضية؛ كفّ عنه ليطيل عذابه، ثم ما زال يعيد الهجمة عليه الكرة تلو الكرة ويكف عنه، وقلوب الفرس واجفة، وعيونهم زائغة، والمسلمون يصيحون: "الله أكبر... الله أكبر، أجهز عليه يا قعقاع، اثأر لأبي عبيد وأصحابه"، فانقض عليه القعقاع؛ وأهوى عليه بضربة سيف؛ طرحته أرضًا، وتركته يسبح في دمائه.

لم يترك القعقاع بن عمرو ساحة المبارزة، وإنما وقف في تحدَ، وقال: "هل من مبارز؟»، فخرج له فارسان معلمان من قادة وأبطال الفرس هم الفيرزان والنبذوان، فانضم إلى القعقاع الحارث بن ظبيان بن الحارث، فتبارزوا، وسقياهما من الكأس التي شرب منها بهمن في لحظات معدودات فقد قتل القعقاع الفيرزان، وقتل الحارث النبذوان.

وهكذا يا سادة قضى القعقاع في أول النهار على قائدين من قادة الفرس الخمسة في المعركة بهمن والفيرزان، وهم كذلك من أعظم قادة الفرس، ولا شك أن ذلك قد أوقع الرعب في قلوب الفرس.

ولم تغب شمس اليوم الثاني من أيام القادسية حتى كان القعقاع قد حمل على الفرس ثلاثين حملة، وأردى من صناديدهم ثلاثين قتيلًا بنفسه، وفي صباح اليوم التالي كان هاشم بن عتبة قد وصل بجيشه إلى مشارف القادسية، وقسم القعقاع جند هاشم إلى مئات، وأمرهم أن يتلاحقوا تباعًا إلى أرض القادسية.

لم يفت هذا المدد الكبير في عضد الفرس كثيرًا، ذلك لأنهم كانوا قد أصلحوا توابيت فيلتهم، وصفوها في طليعة الجيش؛ كأنها البيان المرصوص، ولقد كانوا على ثقة بأنها ستفتك بالمسلمين اليوم أكثر مما فتكت بهم في اليوم الأول، فقد أحاطوها بالفرسان من كل جانب حتى لا يخلص إليها المسلمون فيقطعوا ضنها ويحطموا توابيتها ويرموا فيالتها؛ فتولي مدبرة كما فعلت في اليوم الأول.

وما إن دارت رحى المعركة حتى شد المسلمون على حماة الفيلة، وشد الفرس على المسلمين الذين تصدوا لهؤلاء الحماة، فدارت حول هذه الحيوانات الرهيبة معارك ضاريةٌ؛ أريق فيها الغزير من الدماء، وأزهق خلالها الكثير من الأنفس، فصبر المسلمون وصابروا وتجلدوا لعدوهم وجالدوا؛ حتى أطاحوا بحماة الفيلة واحدًا بعد آخر، فإذا هم بين قتيل أو جريح أو ناكص على الأعقاب.

لكن هذه الحيوانات الشرسة ما كادت ترى أن حماتها قد انفضوا عنها؛ حتى استوحشت وهاجت وهجمت على صفوف المسلمين؛ كأنها الحصون المتحركة، وجعلت تضرب بخراطيمها الطويلة ذات اليمن وذات الشمال؛ فلا تبقي أمامها أحدًا ولا تذر، ولم تكن لتؤثر فيها ضربات السيوف، ولم تكن لتنال منها طعنات الرماح، وما كانت النبال إلا لتزيدها ثورة وهيجانا، وأصبحت كارثة تحيط بالمسلمين.

شعر القائد العام للجيش الإسلامي سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بخطورة الموقف وبالكارثة

التي توشك أن تحيق بالمسلمين بسبب هذه الفيلة، وأيقن أنه إذا لم يقض عليها؛ فسيصاب المسلمون بهزيمة نكراء لا تقوم لهم بعدها قائمة في بلاد العراق، وكان أشد هذه الفيلة وطأة على المسلمين الفيل الأبيض؛ وهو فيل ملك الفرس يزدجرد، ثم الفيل الأجرب الذي لا يقل عنه هولًا، وكانت الفيلة الأخرى تتبعهما كأنهما قائدان لهما.

استشار سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه جماعة من الفرس الذين أسلموا في أمر هذه الفيلة، وسألهم عن مقاتلها؛ فقالوا: "افقؤوا عيونها، واقطعوا خراطيمها؛ فتفشل وتذهب ريحها"، فأرسل إلى القعقاع بن عمرو وأخيه عاصم، وقال: "اكفيا المسلمين الفيل الأبيض"، وأرسل إلى اثنين من أبطال بني أسد وهم حمال بن مالك والربيل بن عمرو وقال: "عليكما بالفيل الأجرب".

ترجل القعقاع وأخوه عاصم عن جواديهما، واندفعا يشقان الصفوف في اتجاه الفيل الأبيض؛ حتى إذا أصبحا قاب قوس منه أو أدنى سدد القعقاع رمحه إلى عينه اليمنى؛ بينما تكفل أخوه عاصم بعينه اليسرى، وأهويا على عينيه برمحيهما في لحظة واحدة، فإذا بنصل الرمح يغيبان في محجريه - والمحجر من العين ما أحاط بها -، فنفض الحيوان الرهيب رأسه من شدة الألم نفضة ألقت بفياله على الأرض، وداس على بطنه فصرعه، ثم إن الفيل دلى خرطومه إلى الأرض ليتحسس به طريقه بعد أن فقد بصره؛ فوثب عليه القعقاع وقطعه بسيفه.

وحمل حمال بن مالك والربيل بن عمرو على الفيل الأجرب؛ ففقآ إحدى عينيه، وأصابا خرطومه إصابة بالغة، فارتد على صفوف الفرس هائجًا مائجًا ومضى يفتك فيهم فتكًا ذريعًا فهيجوه وأزعجوه؛ فانقلب إلى صفوف المسلمين، فوخزه المسلمون؛ فعاد من حيث أتى، ثم طفق يهرول جيئة وذهابًا، ويصيح كالخنزير من شدة الألم، ثم اندفع نحو النهر ووثب فيه؛ فتبعته الفيلة الأخرى ووثبت وراءه، وطرحت فيالتها ذات اليمين وذات الشمال، وكان للقضاء على الفيلة إثرٌ كبير لدى المسلمين في حسم اللقاء في اليوم الرابع وكان للقعقاع بن عمرو أكبر دور في حاسم المعركة.

- عبرة

يا شباب، لقد رأينا هذا البطل العظيم يطوي الأرض طيًا من الشام إلى العراق ليمد الجيش الإسلامي بنفسه ومن معه، فيواصل الليل مع النهار، حتى إذا وصل وشاهد ما يكابده المسلمون من قتال أعدائهم بادر إلى أشد نوع من القتال وهو المبارزة، في الوقت الذي كان بحاجة إلى أن يأخذ قسطًا من الراحة بعد سفر شاقٌ طويل، ولكن أنَّى له أن يستريح وهو يملك قلبًا كبيرًا يحمل همَ الأمة الإسلامية، ومستقبل الإسلام.

ولقد أنقذ الله المسلمين بهؤلاء الأربعة الأبطال ومن كان معهم من المساعدين لهم، وردَ الله كيد الفرس للمرة الثانية، وأبطل مفعول سلاحهم الأكبر، سلاح الفيلة، هذه المخلوقات العظيمة التي هي أشبه ما تكون بالجبال المتحركة.

ولا شك أن الفضل بعد الله تعالى يعود إلى قائد المسلمين سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه حيث أبصر البلاء الذي وقع على المسلمين من الفيلة فسأل مسلمي الفرس عن مقاتلها، كما أنه أدرك ببصره الحاد وبصيرته النافذ أن جميع الفيلة تتبع اثنين منها، فكلف أربعة من أبطال الإسلام بالقضاء عليهما، وتم ما أراد فكانت الفيلة وبالًا على الفرس بعدما كانت سلاحًا فتاكًا في أيديهم.

نهاية عشاق الشهادة

إن السر في عظمة المقاتل الذي يقاتل في سبيل إعلاء كلمة لا إله إلا الله أنه أحرص على الموت من حرص أعدائه على الحياة، وكان هذا هو السر في عظمة ضيفنا، وبطلنا الذي نعيش معه خلال تلك السطور، هو المجاهد الفدائي، عاشق الشهادة، البطل الكرار، الشهيد المغوار البراء بن مالك رضي الله عنه ، لقد كان ابن مالك أحد نبلاء الفُرسان الأبطال الذين سجَّلُوا أعظم الآثار، وأعمق البصمات في ساحات المعارك في عصر النبوة الخالد، وفي عصر الراشدين الزهر.

لقد كان يضرب به المثل في الفروسية والشجاعة، وقد قتل من الفرس في معركة تستر مائة من صناديدهم في مواطن المواجهة والمبارزة، ولا عجب فهو من الأنصار الذين كانوا يرددون دائمًا على مسمع نبيهم شعارهم في النضال والفداء فيقولون بحق وصدق من الرجز:

نحن الذين بايعوا محمدًا على الجهاد ما بقينا أبدًا

لذلك من كان يرى ابن مالك رضي الله عنه وهو في ساحات الفداء؛ يعلم علم اليقين أنه لا يبحث عن النصر قط، ولكنه دائمًا ما يبحث عن الشهادة في سبيل ربه، ويستعجل مجيئها، لم أقل لكم إنه طراز فريد من البشر، قلما يجود الزمان بمثله، لعلك أيها القارئ الكريم قد نزع بك الشوق إلى سماع طرف من أخبار هذا الفارس المغوار، لكن لو رحت أستقصي لكم أخبار بطولات البراء بن مالك، لطال الكلام، وضاق المقام؛ لذا رأيت أن أعرض لكم قصة واحدة من قصص بطولاته، وهي تنبيك عمَّا عداها، وهي بطولته في يوم تستر، وهو المشهد الختامي من حياته، فتعالوا بنا لنعيش سويًا في رحاب البطولة الخالدة.بعد معركة اليمامة التي تلقَّى فيها جسد البطل بضعًا وثمانين ضربة، أثخنته ببضع وثمانين جراحة؛ حتى لقد ظل بعد المعركة شهرًا كاملًا، يشرف خالد بن الوليد بنفسه على تمريضه، ولكن هذا الذي أصابه كان دون غايته وما يتمنى، بيد أن ذلك لا يحمل البراء على اليأس، فغدًا تجيء معركة بعد أخرى، ولقد كان على علم ويقين بأن الله لن يحرمه شرف الاستشهاد في سبيله، فالله تعالى لا يخيب رجاء من دعاه.

ألم يقل له الرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه يومًا: "بأنه مستجاب الدعوة"؛ فليس عليه إلا أن يدعو ربه دائمًا أن يرزقه الشهادة؛ ثم عليه ألا يعجل، فلكل أجل كتاب.

ولا تكاد أن تلئم منها جراحات يوم اليمامة، حتى قذف بنفسه في معركة جديدة؛ وينطلق البراء مع جيوش الإسلام التي ذهبت تُشيع قُوى الظلام إلى مصارعها، هناك حيث تقوم إمبراطوريتان فانيتان، الروم والفرس، اللتان تحتلان بجيوشهما الباغية بلاد الله، وتستعبدان عباده، ويضرب البراء بسيفه، ومكان كل ضربة يقوم جدار شاهق في بناء العالم الجديد الذي ينمو تحت راية الإسلام نموًا سريعًا كالنهار المشرق.

طفق البراء يخوض المعارك واحدة بعد أخرى شوقًا إلى تحقيق أمنيته الكبرى، وحنينًا إلى اللحاق برسوله القائد ﷺ، حتى جاء يوم فتح تستر، وهي مدينة من أعظم مدن الأرض في ذلك الوقت، وكان ذلك في العام الثامن عشر من الهجرة.

وفي بداية حصار تستر لجأ الفرس في قتالهم إلى كل وحشية دنيئة يستطيعونها، فاستعملوا كلاليب مثبتة في أطراف سلاسل مُحماة بالنار، يدلون بها من فوق أسوار القلعة، فتخطف من

تنالُه من المسلمين الذين لا يستطيعون منها فكاكًا، فيرفعونهم إليهم إما موتى، وإما على وشك الموت.

وكان البراء وأخوه أنس بن مالك رضي الله عنه قد وُكِّل إليهما مع جماعة من المسلمين أمر واحد من تلك الحصون، ولكن أحد هذه الكلاليب سقط فجأة، فتعلق بأنس ولم يستطع أنس أن يمسَّ السلسلة ليخلَص نفسه، إذ كانت تتوهج لهبًا ونارًا، فما إن رآه البراء حتى أسرع نحو أخيه الذي كانت السلسلة المحماة تصعد به على سطح جدار الحصن، حتى وثب على جدار الحصن، وقبض على السلسة بيديه وراح يعالجها في بأس شديد حتى قصمها وقطعها، ليُخرجه من جسده فأخذت يده تحترق وتدخن فلم يأبه لها حتى أنقذ أخاه، وهبط إلى الأرض بعد أن غدت يده عظامًا ليس عليها لحم، وبقي هيكلها العظمي مُسمرًا محترقًا، وقضى البطل فترة أخرى في علاج بطيء حتى برئ.

أما آن لعاشق الشهادة أن يبلغ غايته؟! بلى قد آن...

لقد مرت الأيام، وطال الحصار واشتد البلاء على الفرس، وفي كل يوم يدور قتال عنيف بين المسلمين والفرس أمام تستر، حتى احتشد الفرس في جيش كثيف هم وأهل الأهواز ليُناجزوا المسلمين، والتحمت الجيوش الجرارة، وراح القتلى يتساقطون من الفريقين كليهما بغير حساب، ولما زاد عنف القتال، وجالد الأعداء، وبغلت القلوب الحناجر، وظن المسلمون أن دائرة ستكون عليهم لا محالة.

في هذا الوقت جاء بعض الصحابة إلى البراء، والقتال دائر، ونادوه قائلين: "أتذكُر يا ابن مالك قول الرسول عنك؟ رُب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك؟! يا براء، أقسم على ربك؛ ليهزمهم وينصرنا".

ورفع البراء ذراعيه إلى السماء ضارعًا داعيًا: "أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم، اللهم اهزمهم، وانصرنا عليهم، وألحقني اليوم بنبيك يا إلهي".

وألقى البراء على أخيه أنس الذي كان يقاتل قريبًا منه، نظرة طويلة، كأنه يُودعه، وانقذف المسلمون في استبسال لم تألفه الدنيا من سواهم، ونُصروا نصرًا مبينًا، وتم فتح تستر بعد ثمانية عشر شهر من الحصار، وتدفق المسلمون داخل المدينة.

وعلى أرض المعركة، وفي ساحة الشرف، ووسط شهداء المعركة، كان هناك البراء تعلو وجهه ابتسامة هانئة كضوء الفجر، وتقبض يُمناه على حثية من تراب مضمخة بدمه الطهور، وسيفه مدد إلى جواره قويًا غير مثلوم، سويًا غير مكلوم.

أخيرًا بلغ المسافر داره... وأنهى مع إخوانه الشهداء رحلة عُمر جليل وعظيم، ونُودُوا: {أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (الأعراف: ٤٣).

- عبرة

يا سادة، لقد وقف البراء بن مالك رضي الله عنه مواقف بطولية رائعة جدًا، ففي أكثر مواقفه كما يقول الناس: «وضع روحه على كفه»، فالحقيقة يا أخوة أنه يجب أن نوقن أن انتهاء الحياة لا يمكن أن يكون إلا إذا انتهى الأجل، لأن الشجاعة لا تقرب أجلًا، واقتحام المخاطر في سبيل الله لا ينهي حياةً، فالبراء بن مالك رضي الله عنه اقتحم أخطارًا كثيرة، وعرَّض نفسه لمواقف صعبة

جدًا، كان في كل موقفٍ أقلّ ما فيه أنه يكاد يخسر حياته، فلذلك عندما يقف المسلم هذه المواقف البطولية، يشعر أن الله سبحانه وتعالى راضٍ عنه.

يا شباب، يجب على الإنسان أن يوطن نفسه على احتمال المكاره دون ضجر، وانتظار النتائج مهما بعدت، ومواجهة الأعباء مهما ثقلت، بقلب لم تعلق به ريبة، وعقل لا تطيش به كربة، يجب أن يظل الإنسان موفور الثقة، بادى الثبات، لا يرتاع لغيمة تظهر في الأفق ولو تبعتها أخرى وأخرى، بل يبقى موقنًا بأن بوادر الصفو لا بُد آتية، وأن من الحكمة ارتقابها في سكون ويقين.

الشهيد دفين الملائكة

إن العمل لدين الله مسئولية كل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر، وكلٌ على قدر طاقته، فلو قام كل مسلم وحمل أمانة هذا الدين على عاتقه، وتحرك لنُصرة هذا الدين لرأينا النُصرة تتنزل من السماء تحقيقًا لوعد الخالق جل وعلا حيث يقول سبحانه: {إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} (محمد: ٧).

ونحن على موعد مع صحابي جليل قدَّم الكثير والكثير لنُصرة دينه، إنه مولى الصديق، وبطل يوم الهجرة المغوار عامر بن فهيرة، لقد كان رضي الله عنه من الذين ضربوا المثل في الصبر والمصابرة، فلقد كان من المستضعفين في الأرض؛ وكان من الذين صبَّت عليهم كفار قريش ألوانًا من العذاب، وعلى الرغم من ذلك كان ثابتًا بإيمانه ويقينه؛ ثابت ثبوت الجبال الراسيات، إلى أن اشتراه أبو بكر رضي الله عنه ؛ وأعتقه لوجه الله تعالى خوفًا عليه من أن يُفتن في دينه.

لقد كان هذا الفارسُ العلمُ على هامش التاريخ، لا يأبه له أحدٌ ممن حوله، فلا تتعدى مكانته مكانة الأرقاء والعبيد، ولما أضاء الإيمان جوانب نفسه، وملأ حنايا قلبه، أضحى في مصاف السادة الأعلام، سادتنا الكرام من أصحاب رسول الله ﷺ، وممن حظوا بالشهادة، وأُسكنوا عليّين، وما أدراك ما عليُون؟! إنه مقام كريم، في جنات ونهر، عند مليك مقتدر.

فتعالوا بنا لنعيش سويًا بقلوبنا في هذه السطور مع ومضات من حياة هذا البطل الجليل، كي نتعلم منه درسًا عظيمًا كيف يحول الإيمان الإنسان من الحضيض إلى قمة العلو والسمو، فقد نشأ في ظل الرق والعبودية، ثم يمن عليه أحد الأخيار بالحرية، فيصبح من السادة الأعلام، وهو ينسب إلى أمه فهيرة، وكانت جارية مملوكة، لأنه لم يعرف الطريق إلى الاعتزاز بأبيه أو عائلته، ولكن عزته بإسلامه عوضت عنه كل فقد، فهي بنا إلى هذه الواحة اليانعة من بستان السيرة النبوية، لنقتطف بعض الزهور من بستان هذا الصحابي الجليل.

لقد سطَر عامر بن فهيرة في يوم الهجرة المبارك على جبين التاريخ سطورًا من النور لا تبلى أبدًا، لقد وقف موقفًا لا يُنسى أبدًا مع تعاقب السنون، لقد كان بمثابة وزارة التموين للرسول القائد وصحابه الصديق؛ حيث كان يأتي إليهما وهما مختبئان في الغار بالغنم ليشربا اللبن، وكان يمحو آثار أقدام عبد الله بن أبي بكر وأسماء حتى لا يهتدى المشركون إلى مكان النبي ﷺ وأبي بكر، ولما سار الرسول القائد وصحابه من الغار هاجر معهما فأردفه أبو بكر الصديق خلفه، ومعهم دليلهم عبد الله بن أريقط، فنال عامر بهجرته مع رسول الله ﷺ شرفًا عظيمًا.

ولقد كان رضي الله عنه واحدًا من فرسان الرسول القائد صلوات الله وسلامه عليه؛ الذين كُتب لهم شرف الجهاد في معيَّته ﷺ، فقد شهد العراك في بدر، وأبلى فيه بلاءً حسنًا، وكُتب من أهل بدر، وما أدراك ما أهل بدر، وشهد كذلك معركة أحد، وكان له فيها البلاء المحمود المشكور.

وقد كان رضي الله عنه يعيش في سعادة غامرة بجوار النبي صلى الله عليه، يتعلم من هدى النبي ﷺ وأخلاقه العذبة الفياضة ومن سُنته المطهرة ما تزكى به نفسه، ويسعد به قلبه في الدنيا والآخرة، حتى جاءت السنة الرابعة للهجرة، وفيها كان المشهد الختامي لحياة هذا العملاق العظيم.

لقد جاء إلى المدينة الرسول في صفر من السنة الرابعة للهجرة أبا براء عامر بن مالك المعروف " بملاعب الأسنة " قدم ودخل على رسول الله ﷺ في المسجد فعرض عليه الإسلام، فلم يسلم، ولم يبعد عن الإسلام، وقال: "يا محمد لو بعثت رجالًا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك، لرجوت أن يستجيبوا لك"، فقال ﷺ: "إني أخشى عليهم أهل نجد"، فقال عامر: "أنا لهم جار فابعثهم".

فبعث رسول الله ﷺ سبعين من أصحابه، وجعل عليهم المنذر بن عمرو، وفيهم الحارث بن الصمة، وعامر بن فهيرة، وحرام ابن ملحان، فساروا حتى نزلوا بئر معونة إلى الجنوب من المدينة بين حرة بني سليم، ومنازل بني عامر فلما نزلوها أرسلوا كتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل الشاعر المعروف – وهو غير الصحابي الجليل عامر بن الطفيل الدوسي شهيد يوم اليرموك، وقد تكلمنا عنه في كتابنا بطولات الصحابة -، فلما جاءه حرام ابن ملحان وسلمه كتاب رسول الله قتله دون أن ينظر فيه.

ثم استصرخ عليهم بني عامر قومه، فلم يطيعوه إلى قتال الباقين لأن أبا براء أجارهم، فاستصرخ عليهم بني سليم فنهضت معه ومعهم بعض القبائل، فخرجوا حتى خشوا المسلمين وأحاطوا بهم من كل جانب، إحاطة السوار بالمعصم، ووضعوا فيهم سيوفهم، فاستل المسلمون سيوفهم، ووقفوا أمام قرابة ألف رجل يدفعون البأس بالبأس، لا ترهبهم كثرة ولا عدة.

يا سادة، لقد علموا أنهم يدفعون ضريبة الإيمان تحت ظلال السيوف، فأقبلت عليهم رياح الجنة من كل جانب تدعوهم إليها شهداء صالحين، لقد تذكروا عهد الله ورسوله أن يعيشوا لدعوة الحق أو يموتوا جميعًا في سبيلها، ولقد جاءهم أوان الصدق ليتبوؤوا مقاعد الصدق عند مليك مقتدر.

فدارت الحرب حامية الوطيس، وصار أصحاب النبي يحصدون من أعدائهم قدر ما يحصدون منهم، وقاتلوا حتى قتلوا جميعًا، لم ينج منهم أحد سوى كعب بن زيد رضي الله عنه قد سقط جريحًا بين الموتى ثم صحا بعد مدة، وسار حتى لحق بالمدينة، وشهد الخندق واستشهد فيها.

وكان ممن ذاق شراب الشهادة يومئذ بطلنا المجاهد عامر بن فهيرة، طعنه رجل يسمى جبار بن سلمى الكلابي، فقال عامر حينما أصابته الضربة القاتلة: "الله أكبر، فزت ورب الكعبة"، واستمع جبار القاتل إلى العبارة التي رددها عامر الشهيد فلم يفهم معناها، لماذا قال الله أكبر؟ وأين الفوز الذي فاز به وهو مقتول؟ ألم يترك الأهل والأحباب والأولاد؟! ألم يترك الأموال؟! ألم يذق الموت، ويترك الحياة إلى التراب؟!

وذهب الرجل يسأل بعض المسلمين فقيل له: "إن عامرًا يقصد بقوله هذا أن الله قد أكرمه حينما مات رزقه نعمة الشهادة في سبيله، وأنه سيفوز بنعيم الجنة في الدار الآخرة"، وانبهر جبار من هذا اليقين المسيطر، وهذا الإيمان الراسخ، وأخذ يفكر ويفكر، وكأن عامرًا يطل عليه دائمًا من عالم الخلد، ويشير إليه بأصابع نورانية، ويقول له بصوت فيه روعة السماء وهيبة الآخرة: "يا جبار، أقلِع عن كفرك وعنادك إن الباب مفتوح أمامك، فادخل في دين الله تبارك وتعالى تكن من الفائزين"، وشرح الله صدر جبار للإسلام، فاهتدى وأعلن إسلامه.

وعن أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنه قالت: "رفع عامر بن فهيرة إلى السماء فلم توجد جثته، يرون أن الملائكة وارته".

- عبرة

يا شباب، لقد سجل أصحاب النبي ﷺ ومنهم عامرة بن فهيرة في هذه الواقعة موقفًا من أعظم مواقف العمل الفدائي في تاريخ الإسلام، بل في تاريخ العالم بأسره، فقد أبوا إلا أن يدافعوا عن عقيدتهم في موطن لا مفر فيه من الموت، باذلين دماءهم حتى آخر قطرة في العروق ثمنًا رخيصًا في سبيل ربهما ودينهما ورسولهما، راغبين من ذلك أن يفزوا بالشهادة، ضاربين المثل الأعلى في إيثار الجماعة على الفرد، والتضحية في سبيل العقيدة.

يا شباب، يمثل استشهاد عامر بن فهيرة والمنذر بن عمرو وسائر إخوانهم في تلك الفاجعة أبلغ الآيات والشواهد على قوة إيمان جنود الرسول القائد وثقتهم بالله ورسوله والمؤمنين، وصلابة إرادتهم في أداء الرسالة أو الموت دونها، تلك القيم الروحية الرفيعة التي بثها الإسلام في نفوسهم فجرت فيها مجرى الدماء، ولا عجب أن تصدر هذه الآيات عنهم، فهم أصحاب المُعلم الأعظم في تاريخ البشرية، وهم الطلائع الإسلامية المجاهدة التي نشرت في العالم عقيدة الطهارة والإيمان والتضحية.

لقد شاء حكمة سبحانه وتعالى أن يعيش عامر بن فهيرة بطلًا ويموت بطلًا، وأن تكون حياته القصيرة جهادًا متواصلًا في سبيل الله، وآية على سمو النفس واحتمال الألم مرضاة لله ولرسوله ولصحابة رسول الله ﷺ.

يا سادة، من استعراض تاريخ حياة عامرة بن فهيرة رضي الله عنه ورفقائه البطولية يمكن أن نستخلص أن اختياره لمباشرة العمل الذي أسند إليه في الهجرة كان وضعًا للرجل المناسب في المكان المناسب، لأن العوامل والأسباب الجذرية التي تقف خلف النجاح الذي حققه هذا الصحابي الجليل هي التنشئة البيئية والاجتماعية والنفسية، والتربية العقائدية التي أثرت في تكوين عامرة بن فهيرة، وجعلت منه شخصية فدائية، فلقد نشأ الرجل في بيت من أكرم بيوت الإسلام، بيت بني على الإيمان بالله، والوفاء لرسول الله، والتضحية في سبيل الإسلام، فكان طبيعيًا أن تغرس هذه القيم الروحية في نفسه منذ طفولته، وأن يعمقها في نفسه حسن معاملة الصديق له، معاملة لا تختلف عن معاملته لأبنائه.

الشهيد الغاضب على أبيه

ما كان حديثًا يُفترى؛ وما كان خيالًا يحاك؛ ولا أسطورة تحكي؛ ذلكم النبأ العظيم الذي دوَّى في سمع الزمان، واهتزت لجلاله الدنيا، وانبهرت بعظمته الأيام حيث استفاق التاريخ على موكب من نور، وشموس من التقى تبث ضياءها ونورها في ربوع المعمورة، ويبدد سناه دياجير الظلام، وتنكسر لهيبته شوكة الكفر والطغيان.

ذلكم النبأ هو تخريج الجيل الرباني الفريد من مدرسة النبوة أولئك الذين صاروا مشاعل هدى؛ وينابيع تقى؛ تشرق الأرض بنور هديهم أينما حلوا، ويرتجف الظلم والجهل ويلم أذياله أينما رحلوا، فتغير مجرى التاريخ؛ وتبدَّلت معالم السنين بمجيء هذا الجيل الرباني الفريد الذي لم ولن تشهد الدنيا له نظيرًا أو مثيلًا، فقد تربوا على يد سيد الأنبياء وقدوة الخلق أجمعين، وهنا نحن في هذه السطور نعيش سويًا مع عملاق من عمالقة هذا الجيل الرباني الفريد.لقد كان هذا الصحابي الجليل نجم من نجوم شباب الإسلام الذين حلَّقوا في سماء العزة والفدائية، وتعايشوا مع الرسول الكريم ﷺ بقلوبهم وأرواحهم واقتبسوا من هديه وسمته وأخلاقه ﷺ، إن ضيفنا في تلك السطور يصدُق فيه قول رب العزة سبحانه: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ} (الروم: ١٩).

فقد كان أبوه رأس المنافقين، وكان هو من خير أصحاب النبي ﷺ، نحن نعيش الآن مع صحابي الجليل؛ والبطل المؤمن المغوار عبد الله بن عبد الله بن سلول رضي الله عنه فتعالوا بنا لنعيش سويًا في رحاب سيرة هذا الشاب المؤمن المجاهد.

لقد شهد عبد الله بن عبد الله رضي الله عنه المشاهد كلها مع الرسول القائد ﷺ ففي غزوة بدر انطلق جيش المسلمين نحو بدر، وكان عبد الله في طليعة الجيش الإسلامي، لقد خرج لتكون كلمةُ الله هي العُليا، بينما مكث أبوه رأس النفاق مع ثلة من المنافقين في المدينة، وقد تطاولت ألسنتهم على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه، وكان زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول يؤلمه أن يخرج ابنه عبد الله إلى ساحة الفداء، وقد حاول أن يثنيه عن عزمه، وحاول أن يحد من عزيمته، ولكن رأس النفاق ذهبت محاولاته أدراج الرياح دون جدوى.

كان عبد الله بن عبد الله رضي الله عنه قد خرج ليصدق الله عز وجل فيما بايع عليه رسوله ﷺ، ففي ساحة الفداء عند بدر قام عبد الله بواجبه كبطل من أبطال الأنصار فقد أبلى أحسن البلاء وأصدقه، فكان يقذف بنفسه بين جموع قريش معرضًا نفسه للشهادة، لأنه يرى في الشهادة راحة له في الدنيا، قبل أن تكون له في الآخرة نعيم مقيم، لقد كان همه أن يكتب في صحائف الشهداء لكي يمحو صفحة أبيه المدنسة بالأوزار العظام، ولكن شاء الله أن يكتب له الحياة، وعاد مع الجيش المنصور؛ ورايات النصر تُرفرف فوق رؤوسهم، وقد سبقتهم بشائر النصر إلى عاصمة الإسلامية المدينة المنورة، فغُصت بذلك حلوق المنافقين، وكان النصر شوكة تنغص عليهم حياتهم، وتقض مضاجعهم.

وفي يوم أحد هذا اليوم العصيب كان لرأس النفاق أكبر الأثر لهزيمة المسلمين، فعندما خرج الرسول القائد إلى أحد لصد الغزو الوثني عن المدينة، وما أن وصلوا إلى أحد حتى كان رأس النفاق قد لعب لعبته، وعاد إلى المدينة بثلث الجيش، فأصاب ابنه عبد الله على صنيعه هذا ما أصابه من الغم والحسرة.

والله يا أخوة، إن الإنسان ليعجب من أمر هذا المنافق، كيف لم يدخل نور الإسلام إلى قلبه؟، وكيف لم تؤثر فيه وفي نفسه هذه النفحات الربانية التي كانت تتنزل من السماء إلى الأرض، ولكن لا عجب، إنها إرادة الله عز وجل التي أعمتهم وطمست على قلوبهم، وأصبحت كما قال رب العزة سبحانه في كتابه: {لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَـٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} (الحج: ٤٦).

وعند بدأ العراك في أُحد خاض عبد الله المعركة في بسالة نادرة؛ وصبر صبرَ الأبطال، وكان سيفًا بتارًا من سيوف الله فما استقام أمامه من قريش جبار ولا عنيد طرفة عين، وأصر عبد الله على الخلاص من آل بيته من المنافقين الذين خرجوا مع قريش يشهرون سيوفهم جميعًا في وجه الإسلام خلف كبيرهم أبي عامر الفاسق ابن خالة عبد الله بن أبي سلول، وانقض عليهم عبد الله كالصاعقة وأخذ يقتل فيهم حتى أصيب إصابات بالغة؛ وسقطت ثنيته - وهي إحدى الأسنان الأربع التي في مقدمة الفم -، فأمره الرسول القائد أن يتخذ ثنية من ذهب.

وما زال عبد الله يجاهد ويخرج مع الرسول القائد في كل غزواته طلبًا للشهادة في سبيل ربه، ولكن الأعمار بيد الله تعالى، فقد كان يخرج سليمًا في كل عراك، حتى كان الرسول القائد ﷺ يُثنى عليه، ويُكرمه، ويقدِّر له مواقفه العطرة في ساحات الفداء والتضحية، وفي محبته الصادقة لله ولرسوله؛ حتى دارت السنون وغادر رسول الله ﷺ الدنيا إلى الرفيق الأعلى، وكان همّ عبد الله بن عبد الله رضي الله عنه أن يقر عين الرسول القائد ﷺ باستشهاده، فلعل ذلك فيه ما يطغى على آثار أبيه بعض الشيء، ولكن قضاء الله لم ينزل من السماء، وكل شيء بمقدار.

وصبر الحبيب على فراق حبيبه، وكان يحز في نفسه هذا الفراق الصعب على قلبه، بقدر ما كان يحز في نفسه بقاؤه حيًا، ولكن قد جاءت ساعة الرحيل، ولقد حان الوقت أن يجتمع الحبيب مع حبيبه، لقد حان أن تستقبل السماء عريسًا جديدًا، لقد جاءت معركة اليمامة الطاحنة هذا اليوم الذي سوف يزف العريس إلى جنات ربه، فهيا بنا لنرى هذا المشهد الختامي من حياة هذا الصحابي الجبل.

لما تولى الصديق أمر الخلافة، ارتدت معظم قبائل الجزيرة العربية، ولم يبقَ إلا القليل على الإسلام، ولقد أصبح الإسلام وعاصمته في خطر محدق من كل جانب، فأخذ الصديق يدعو المؤمنين إلى الجهاد في سبيله دينهم، وارتفع اللواء الخفاق، وسارت جيوش الإيمان والتوحيد لدك معاقل المرتدين، وكان عبد الله بن عبد الله رضي الله عنه في طليعة الفرسان الذين استجابوا لهتاف الحق، وداعى إعلاء كلمة الله عز وجل، وها هو عبد الله يسير نحو أرض اليمامة مع سيف الله خالد بن الوليد رضي الله عنه .

وفي أول الصفوف برز عبد الله فكان كالأسد الهائج ينطلق يمينًا وشمالًا يخترق الصفوف في بسالة نادرة، فأذهل المرتدين بطشه وصبره، وعظمة فدائه، وما لبثوا أن أدخلوه في ثغر أحدثها فيهم، حتى أحاطوا به من كل جانب، هنا أخذت نبالهم تخترق الجسد العظيم، وأخذت السيوف تحتوشه من كل جانب حتى سقط صريعًا شهيدًا، ليحظى بوسام الأحياء عند ربهم، وينال عن جدارة والاستحقاق وسام الشهادة، وحلية الاستشهاد في سبيل الله عز وجل.

وبعد طول انتظار لهذا اليوم يفوز البطل بالشهادة، ولكل شيء عند الله بمقدار، فلقد أعطاه الله عز وجل ما تمناه بعد طول جهاد مع رسول الله ﷺ.

- عبرة

انظر أيها القارئ الكريم إلى عمق هذه المعاني الإيمانية في نفوس هذا الجيل الرباني الفريد، فقد كانوا لا يُبالون بآبائهم وأُمهاتهم إذا كانوا مُعاندين لدين ربهم، مُحاربين لله ولرسوله ﷺ، وهذا دليل على الإيمان الصادق في هذه القلوب الطاهرة النقية، ذلك الإيمان الذي جعل حُبّهم أولًا لله عز وجل، ولرسوله ﷺ، ونصرتهم لدين الله، والصحابة كما أسفلنا غير مرة قد سبقوا الأمة إلى كل خير، وتسابقوا إلى كل بر، إنهم قادة البشرية إلى السعادة الأبدية بعد الأنبياء عليهم السلام .

شهيد أجنادين المغوار

أصحاب النبي ﷺ كانوا أشد الناس تعظيمًا لشعائر الله جل وعلا، وأصدق الخلق غيرة على دينهم، فدينهم أعز عليهم من دمائهم، وأثمن عندهم من أرواحهم، فدينهم كل شيء في حياتهم، لقد أيقنوا يقينًا جازمًا أن فيه عزهم، وشرفهم، ومجدهم، وفوزهم برضوان ربهم في الدنيا والآخرة، وفيه نجاتهم من عذابه، فكانت كل حياتهم في سبيل الله، وكل تحركاتهم بذل لإعزازه، ونصره، فيقدمون للموت نفوسهم رخيصة لكي يبقى الدين عاليًا شامخًا، وهذا هو معنى الحياة، وحقيقة الحياة أن يحيا الإنسان لدين الله، وفي طاعة الله جل جلاله.

ونحن في هذه السطور نخطّ موقفًا عظيمًا لعملاق من عمالقة الجيل الرباني، رجل من عائلة كريمة عظيمة، رجل لا يخشى إلّا ربه سبحانه، رجل عاش لربه ولدينه، رجل كان ضعيف الجسد فجعل منه الإيمان إنسانًا آخرًا، ليصبح واحدًا من أعظم أساطير الفداء والتضحية، إنه الصحابي الجليل عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب رضي الله عنه – وهو غير الصحابي الجليل عبد الله بن الزبير بن العوام -، فتعالوا بنا لنعيش سويًا بقلوبنا مع هذا المشهد الختامي لحياة هذا البطل العظيم.

لم يشترك عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب رضي الله عنه مع الرسول القائد في غزواته لصغر سنه إلا في حنين وتبوك، وكان له في يوم حنين أعظم البلاء وأكرمه، فقد ثبت ثبوت الجبال الراسيات عندما فر الجيش الإسلامي في أول المعركة من كمائن المشركون، ولما لحق الرسول القائد بجوار ربه، شهد عبد الله العراك في حروب الردة، وكان من أبطال الإسلام المغاوير.

ولما أرسل خليفة رسول الله أبو بكر الصديق رضي الله عنه قواته لفتح بلاد الشام كان ابن عبد المطلب في طليعة المجاهدين، ففي يوم أجنادين الثانية – وهو موضع من نواحي فلسطين -، تقدم بطريق من عظماء الروم الصفوف وطلب المبارزة، فتقدم إليه المجاهد الباسل عبد الله بن الزبير رضي الله عنه ، فاختلفا ضربات كل منهما، ثم انقض ابن الزبير على حصانه وسحبه إلى الأرض ثم قتله ولم يعرض لسلبه.

ثم برز بطل آخر من أبطال الروم يدعو للمبارزة، فبرز إليه عبد الله بن الزبير فضربه على عاتقه وهو يقول: "خذها وأنا ابن عبد المطلب"، فقطع بسيفه الدرع وأسرع في منكبه، ثم ولى الرومي منهزمًا، وابن الزبير وراءه حتى قتله، وقد عزم عليه قائد الجيش عمرو بن العاص رضي الله عنه أن لا يبارز أحد، فقال عبد الله: "يا عم، إنّي والله ما أجدني أصبر، لعل الله أن يرزقني الشهادة في سبيله".

فلما اختلطت السيوف، وتناثرت الأشلاء على كل شبر من أرض المعركة، أقبل ابن عبد المطلب على القتال إقبال الظامئ على الماء البارد في اليوم القائظ - أي شديد الحر -، فعندما اشتد الكرب على المسلمين، انطلق الاسد الشجاع نحو الجموع الهائلة، وتفاجأ الروم بهذا الطوفان الهادر، فتراجعت صفوف الروم أمام هذا الإعصار الهادر، وتقدم هذا الفدائي إلى قلب الجيش الروماني، واندفع إليهم في جرأة نادرة؛ وتساقط أبطال الروم أمامه.

وعلى أرض المعركة، وفي ساحة الشرف، وجد حوله العشرات من الروم قتلى، وهو مقتول بينهم،

وقائم السيف في يده وقد لصق مقبض السيف في يده من أثر الدم وقد يبست يده عليه، وفي وجهه فقط ثلاثين ضربة بالسيف؛ لقد سقط البطل شهيدًا، وقد روى الأرض بدمائه الزكية، يفوح منها شذى أطيب من المسك، ونال المشتاق ما تمناه، وظهرت آثار السعادة على محياه، وفي وجدانه يرن صدى آيات الله تعالى: {ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ٥٨ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ} (الحج: ٥٨، ٥٩).

وبعد المعركة تفقد الناس قراباتهم، فانطلق الفضل بن العباس ومن معه من بني عبد المطلب يطلبون عبد الله بن الزبير بن عبد المطلب، فوجدوه على الصورة السابقة، فخلصوا السيف من يده بعد عناء، ثم حفروا له وقبروه ولم يصلوا عليه ثم رجعوا إلى قائد الجيش الإسلامي عمرو بن العاص فأخبروه فترحم عليه، وقال: "ما أعظم شجاعته اليوم".

- عبرة

يا شباب، من آثر رضا ربه على هواه، وأقام في حياته حقيقة العبودية لله سعد في دنياه وأخراه، وكان مباركًا أينما رحل كما وصف الله نبيه عيسي عليهم السلام ، فقال الله تعالى عنه: {وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ} (مريم ٣١).

وهذا النوع العظيم من البركة انتعشت به الأرض واستنشقت عبيره السماء من خلال حياة ذلك الجيل الرباني العظيم الذين بذلوا لدينهم كل ما يستطيعون بذله؛ وكان دينهم هو قضيتهم الأولى والأخيرة التي لها يعيشون، وفي سبيلها يموتون، ومن أجلها يضحون بكل ما يملكون، وبكل ما يستطيعون.

يا سادة، هذا موقف ينبض بعزة الإيمان، ورسوخ اليقين في قلوب الصحابة رضي الله عنهم أولئك الأطهار الذين انطلقوا بمفتاح الجنة لا إله إلا الله يفتحون به مشارق الأرض ومغاربها، لا يستعصي عليهم منها قطر، فالحصون تفتح؛ والقلوب تفتح؛ والقيم الصحيحة تسود، والموازين تصحح.

الشهيد الصابر المهاجر

إذا نظرنا إلى واقع المسلمين في العهد النبوي نجد أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا في حالة ثبات دائم على المبادئ السامية التي من أجلها قطعوا الوشائج مع الأقارب، والأصدقاء، والحلفاء الذين لم يدخلوا في الإسلام، ونجد أن الانتصار المادي لا يبطرهم، ولا يطغيهم، وأن الإصابات المادية لا تضعفهم، ولا تحطم معنويتهم، وأن حماسهم في الدفاع عن الإسلام ثابت على قوته، إن الإسلام دين عظيم، ولا يُفْدى العظيم إلا بالعظيم، ولا أعظم من أن يجود الإنسان بدمه فداء لدينه، فلذلك كان استشهاد هؤلاء العظماء نصرًا عظيمًا للإسلام.

ونحن الآن نعيش من خلال تلك السطور قصة أحد عمالقة الجيل الرباني، إنه البطل المقدام الذي أنقذه الله من براثن الوثنية التي كان يحمل لواءها أخوه أبو جهل بن هشام، إنه بطل بني مخزوم سلمة بن هشام رضي الله عنه ، لقد عاش هذا الصحابي الجليل حياته من أجل الله ورسوله، ومات من أجل دينه، فتعالوا بنا لنرى ومضات من قصة هذا العملاق العظيم.

لما صدع رسول الله ﷺ بالدعوة إلى الإسلام هاجت قريش وماجت، واشتدت في معاداتها لرسول الله ﷺ وأصحابه، أما رسول الله ﷺ فقد لاقى من إيذائهم أنواعًا كثيرة، وأما أصحابه رضي الله عنهم فقد تجرع كل منهم ألوانًا من العذاب، حتى مات منهم من مات تحت العذاب الرهيب، وعمي من عمي، ولم يثنهم ذلك عن دين الله شيئًا.

وكان سلمة رضي الله عنه من الذين صبروا على العذاب، ولما هاجر المسلمين إلى أرض الحبشة فر من سجنه من دار أخوه أبو جهل، وكان في طليعة المهاجرين، لكنه لم يلبث إلا قليل حتى عاد إلى مكة فحبسه أبو جهل مرة أخرى وضربه وأجاعه وأعطشه، وظل سلمة بن هشام رضي الله عنه في ظلام الحبس وقتًا طويلًا، حيث حال قومه بينه وبين الهجرة مع المسلمين إلى المدينة، وكان رسول الله ﷺ يدعو له في صلاته ولغيره من المستضعفين فيقول: "اللهم انج عياش بن أبي ربيعة، اللهم انج سلمة بن هشام، اللهم انج الوليد بن الوليد، اللهم انج المستضعفين من المؤمنين".

لقد صبر سلمة بن هشام على إيذاء هؤلاء السفهاء، وقد حاولوا بكل وسيلة أن يردعوه عن دينه فما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، وأغروه بكثير من المغريات، فأبى واستعصم، وذكروه القرابة وحق العشيرة، وكرامة القبيلة فآثر على ذلك إخوة الإيمان، ثم هيأ الله تعالى لسلمة فرصة الإفلات من الحبس والخلاص من أيدي هؤلاء المجرمين بعد سنوات من الأسر، فسارع رضي الله عنه بالهجرة إلى الحبيب ﷺ في المدينة وكان ذلك بعد غزوة الخندق.

بعد أن هاجر سلمة بن هشام رضي الله عنه إلى المدينة بعد سنوات الأسر في مكة، لم تكن هجرته للراحة أو ليأكل ويشرب، أو ليلهو ويعلب، بل ليحمل السلاح مجاهدًا في سبيل الله عز وجل، ولما جاءت غزوة مؤتة في الثامنة للهجرة، وهي غزوة القواد الثلاثة الذين تساقطوا تباعًا شهيدًا وراء شهيد زيد بن حارثة ثم جعفر بن أبي طالب ثم عبد الله بن رواحة رضي الله عنهم ، ذاق سلمة بن هشام ما ذاقه رفاقه في هذه المعركة من متاعب وأهوال، ثم عاد مع البقية التي رجعت إلى المدينة، لا ليميل إلى الراحة والدعة، بل ليواصل الجهاد.

وظل سلمة على عهده ذلك لم يتأخر على غزوة مع الرسول القائد، حتى لحق رسول الله ﷺ بربه تبارك وتعالى، فخرج مجاهدًا إلى الشام، حين وجه الصديق أبو بكر رضي الله عنه جيش الإسلام إلى الشام ليطهر الأرض العربية من طغاتها وبغاتها الرومان الدخلاء عليها.

وشهد سلمة معركة أجنادين الأولى التي كانت في بداية العام الثالثة عشرة للهجرة، وانتهت بانتصار المسلمين على الروم، وبعد أن لقى سلمة في أجنادين ما لقى من آلام، عاد بعد شهور واشترك في معركة مرج الصفر وقد قاتل البطل سلمة بن هشام في هذه الموقعة قتالًا مجيدًا، وصبر فيها صبرًا حميدًا، وأراد الله له ما عنده، وما عند الله خير للأبرار، فاختار له نعمة الشهادة بعد أن قاتل قتال الأبطال المغاوير وكان عامل حاسم في المعركة ومضى يفنى في جموع الروم حتى سقط صريعًا على أرض المعركة.

- عبرة

يا سادة، إنه رجل أنقذه الله تعالى من الكفر الذي حمل رايته أخوه أبو جهل، فسبحان الهادي إلى طريق الحق، وصراط الهدى، وما أجمل أن يهتدى الإنسان إلى طريق ربه، وأجمل من ذلك بكثير أن يقترن الإيمان بعمل فيه إخلاص واحسان، حتى يكتمل الدين في حياة الناس عقيدة وعملًا وجهادًا موصولًا في سبيل الله: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} (العنكبوت: ٦٩) ، فالاهتداء إلى طريق الإيمان نعمة كبرى فيها صلاح العاجلة؛ وفلاح الآجلة.

الشهيد الممزق الأشلاء

حب الفداء والتضحية والنضال روح تسري في كيان المؤمنين، وتجري جريان الدم في عروقهم إذا ما دعا الداعي: «حيَّ على الجهاد»، فهم جند الله في الأرض، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وهم يعلمون أن الجهاد في سبيله فريضة محكمة، وضرورة ملحة، به تُصان الأرض من الفساد والفوضى والاستبداد، وبه يتحقق النصر لهذا الدين الذي فطر الله الناس عليه.

وكان أصحاب النبي ﷺ يتنافسون في بذل أرواحهم وأموالهم في سبيل الله عز وجل لا يدخر أحدهم وسعًا في إحقاق الحق، وإبطال الباطل، وإخراج الناس من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان.

وكان كل منهم يسعى جاهدًا لتعويض ما فاتهم من مواطن الخير؛ وأعمال البر، ويعزم على ذلك عزمًا يثير الإعجاب، ولا سيما الذين تأخروا في الهجرة، وفاتتهم غزوة بدر وأحد وغيرهما من الغزوات، ومن هؤلاء الذين أرادوا أن يضربوا بسهم وافر في التضحية والفداء الصحابي الجليل والبطل المغوار هشام بن العاص بن وائل السهمي رضي الله عنه ، فتعالوا بنا لنعيش سويًا في هذه السطور قصة هذا البطل الباسل، وكيف صمد في وجه الأعاصير، وكيف لقى ربه شهيدًا ممزق الأشلاء.

لما سطعت في سماء مكة أنوار الدعوة المحمدية كان هشام بن العاص رضي الله عنه من أوائل السابقين للإسلام، ورغم أن أبوه العاص بن وائل أحد حكام العرب في الجاهلية، وسيد من ساداتهم المرموقين، وواحدٌ من الذين يرتفع نسبهم إلى المرتبة العليا من قريش، لكنه تعرض إلى تنكيلٍ من زعماء قريش ومن أبوه، واحتمل رضي الله عنه ما احتمله المسلمون من عنت الشرك؛ وبغي الكفر، فلما اشتد به العذاب، وأخذ المعذبون من المسلمين يهاجرون إلى الحبشة للتخلص من بطش قريش ونكالها، اضطر إلى أن يهاجر إلى أرض الحبشة مع الفوج الثاني من المهاجرين الغرباء.

ولما علم بعزم الرسول القائد الهجرة إلى المدينة، سارع بالعودة إلى مكة لعله يظفر بالهجرة بصحابة الحبيب المصطفي صلوات ربي وسلامه عليه، ولكن الرسول أمر من تبقى من أصحابه بالهجرة، فتواعد هو وعمر بن الخطاب، وعياش بن أبي ربيعة رضي الله عنهم على التلاقي عند مكان يسمي أضاة بني غفار – وهو مكان يبعد عن مكة بعشرة أميال -، فقال عمر: "أينا لم يصبح عندها فقد حبس فليمض صاحباه"، قال: "فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة عند المكان المحدد، وحبس عنا هشام حبسه أبوه وقومه".

وبعد سنوات من الحبس والعذاب فر هشام من سجنه؛ وكان ذلك في السنة الخامسة للهجرة بعد غزوة الخندق بمساعدة أحد المسلمين من أهل مكة، وذهب إلى الرسول القائد في المدينة.

لقد حُرم هشام بن العاص المشاركة في بدر وأحد والخنادق وذلك بسبب حبسه في مكة كما ذكرنا، وبعد هجرته إلى المدينة بعد غزوة الخندق، استأنف هشام رحلة الجهاد مع الرسول القائد ﷺ، وأبلى في المعارك أعظم البلاء، ولحق الرسول القائد ﷺ بربه جل وعلا، وظل هشام

على مسيرته في النضال والكفاح والتضحية، فكان له أعظم الأثر في حروب الردة.

ولقد وثق خليفة رسول الله أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعقل هشام، وحسن تدبيره؛ فأرسله إلى مالك الروم البيزنطيين ليفاوضه في بعض الأمور، فكان سفيرًا موفقًا للخليفة المسلمين.

ثم ذهب رضي الله عنه في نخبة من المجاهدين لفتح بلاد الشام، فأظهر هناك بسالة نادرة؛ كانت حديث الناس الروم قبل المسلمين، ثم أذن الله للمسافر أن يبلغ داره، فقد أقبلت معركة أجنادين الأولى وهي موضع بأرض فلسطين، ووقعت أحداث هذه المعركة في أوائل السنة الثالثة عشرة للهجرة، وكانت أول معركة كبرى في حركة الفتوحات على جبهة الشام بين المسلمين والروم البيزنطيين.

لقد كان هشام في فيلق المجاهدين في جبهة فلسطين تحت قيادة أخيه عمرو بن العاص رضي الله عنه ، ودارت رحى حرب ضروس بين كتيبة الإيمان؛ وجموع الشر والطغيان من الروم، وأبلى هشام يومئذ بلاءً حسنًا، فقد كان يبحث عن الشهادة في كل شبر من أرض المعركة، وحينما رأى ضعفًا عرضًا لبعض المقاتلين بسبب كثرة الروم، سيطرت عليه الحماسة، وروح الجهاد والاستبسال، والبحث عن الشهادة في سبيل دينه، لعل الله يرزقه إياها.

فاندفع هشام كطوفان نحو صفوف العدو، وهو يهتف برفقائه في الإيمان والإسلام قائلًا: "يا معشر المسلمين، أنا هشام بن العاص، أمن الجنة تفرون؟».

وما زال رضي الله عنه يقاتل ويصاول وينازل، حتى أحاط به العدو من كل جانب، وأخذ يردد قولته المشهورة: "يا معشر المسلمين أمن الجنة تفرون، ورب هشام هذا لن يكون"، وظل يقاتل حتى سقط صريعًا في أرض المعركة، وشاء القدر أن تقع جثة البطل الشهيد في مضيق لا يعبره إلا إنسان بعد إنسان، فلما انتهى المسلمون إليه لمطاردة الروم؛ هابوا أن يدوسوه.

فصرخ أخوه عمرو وقال: "أيها الناس، إن الله قد استشهاده، ورفع روحه إنما هي جثة"، ثم أوطأ وتبعه الناس حتى تقطع، ثم جمعه عمرو بعد ذلك، وحمل أشلاءه المبعثرة من هنا وهناك ثم دفن هذه الأشلاء في التراب، وذلك بعد أن انتصر المسلمون على الروم.

- عبرة

يا شباب، هذا مشهد من مشاهد البطولة والفدائية، وموقف ينبض بعزة الإيمان، ورسوخ اليقين في قلوب الصحابة رضي الله عنهم أولئك الأطهار الذين انطلقوا بمفتاح الجنة لا إله الا الله يفتحون به مشارق الأرض ومغاربها، لا يستعصي عليهم منها قطر، فالحصون تفتح بالبطولة، والقلوب تفتح بالعدل؛ والقيم الصحيحة تسود بين الناس، والموازين تصحح، وها هي صورة تجلت فيها أصالة وروعة التربية النبوية لخير جيل حيث صارت الآخرة عندهم هي الهم الأكبر وهي الغاية العظمى، وهي الحياة الحقيقية الخالدة الباقية.

الشهيد الذي حماه ربه

إن العبد إذا تعلق قلبه بالله جل وعلا فإن الذي يتولى حفظه وحمايته والدفاع عنه هو الملك، ونحن الآن مع صحابي جليل قد امتلأ قلبه حبًا لله ولرسوله، وتحركت جوارحه لنُصرة دين الله عز وجل، فتولى ربه الدفاع عنه وحمايته بصورة لا تخطر على قلب، إنه البطل المقدام عاصم بن ثابت رضي الله عنه ، فتعالوا بنا لنعيش سويًا في رحاب قصة هذا البطل العظيم، ولنبدأ القصة من بدايتها.

كانت مكة تحترق غيظًا على المسلمين مما أصابها في معركة بدر من مأساة الهزيمة وقتل الصناديد والأشراف، وكانت تجيش فيها نزعات الانتقام وأخذ الثأر، حتى إن قريشًا كانوا قد منعوا البكاء على قتلاهم في بدر، ومنعوا من الاستعجال في فداء الأسارى، وقد اتفقت قريش على أن تقوم بحرب شاملة ضد المسلمين تشفى غيظها، وتروى غلة حقدها، وأخذت في الاستعداد للخوض معركة الاستئصال للمسلمين، وتدمير عاصمتهم.

خرجت قريش بقضها وقضيضها، وسادتها وعبيدها إلى لقاء المسلمين عند أحد، فقد كانت الأضغان كما ذكرنا تشحن صدورها شحنًا، والثارات لقتلاها في بدر، ولم يكفها ذلك، وإنما أخرجت بعض النساء ليحرضن الرجال على القتال، وكان في جملة من خرجت معهن: هند بنت عتبة، وسلافة بنت سعد ومعها زوجها طلحة وأولادها الثلاثة، مسافع، والجلاس، وكلاب، ونساء غيرهن.

ودارت رحى الحرب الطاحنة بين الفريقين وارتفعت الصيحات وتطايرت الرؤوس، وسالت الدماء في كل شبر من أرض المعركة، ولما وضعت الحرب أوزارها، وكتب فيها النصر لقريش على المسلمين، كانت سلافة بنت سعد تنتظر أن يقبل عليها زوجها أو أحد أبنائها الثلاثة، لتقف على أخبارهم، بيد أن انتظارها قد طال عبثًا، فأوغلت في أرض المعركة، وجعلت تتفحص وجوه القتلى، فإذا بها تجد زوجها صريعًا مضرجًا بدمائه، فهبت كاللبؤة المذعورة، وجعلت تطوى الأرض بحثًا عن أولادها: مسافع وكلاب والجلاس.

فما لبثت أن رأتهم ممددين على سفوح أحد، أما مسافع وكلاب؛ كانا قد فارقا الحياة، وأما الجلاس فوجدته وما تزال به بقية من حياة؛ أكبت سلافة على ابنها الذي يعالج سكرات الموت، ووضعت رأسه في حجرها، وجعلت تمسح الدماء عن جبينه وفمه، وقد يبس الدمع في عينيها من هول الكارثة، ثم أقبلت عليه وهي تقول: "من صرعك يا بني؟"، فهمّ أن يجيبها لكن حشرجة الموت منعته، فألحت عليه بالسؤال فقال: "صرعني عاصم بن ثابت، وصرع أبي، وأخي مسافعًا، وأخي..."، ثم لفظ آخر أنفاسه.

جن جنون سلافة بنت سعد، وجعلت تعول وتنشج، وأقسمت باللات والعزى ألا تهدأ لها لوعة، أو ترقأ لعينيها دمعة إلا إذا ثأرت لها قريش من عاصم بن ثابت، وأعطتها قحف رأسه لتشرب فيه الخمر، ثم نذرت لمن يأسره أو يقتله ويأتيها برأسه، أن تعطيه كل ما لديه من مال، فشاع خبر نذرها في قريش، وجعل كل فتى من فتيان مكة يتنمى أن لو ظفر بعاصم بن ثابت، ويقدم رأسه لسلافة لعله يكون الفائز بكل هذا المال.

لم يمض غير قليل على أحد حتى انتدب رسول الله ﷺ عشرة من كرام الصحابة لبعث لبعض القبائل ليعلموا القوم الإسلام كما طلبوا هم، وأمر عليهم البطل المقدام عاصم بن ثابت رضي الله عنه قاهر الأعداء.

فمضى النفر الأخيار لإنفاذ ما أمرهم به الرسول القائد، وفيما هم في بعض الطريق بين عسفان ومكة علمت بهم جماعة من هذيل، فهبوا نحوهم مسرعين، وأحاطوا بهم إحاطة السوار بالمعصم، فامتشق عاصم ومن معه سيوفهم وهموا بمنازلة القوم، فقال لهم الهذليون: "إنكم لا قبل لكم بنا، وإننا أصحاب هذه الديار، وجمعنا كثيرٌ غفيرٌ، وجمعكم قليلٌ ضئيلٌ، ثم إننا ورب الكعبة، لا نريد بكم شرًا إذا استسلمتم لنا، ولكم على ذلك عهد الله وميثاقه".

فجعل صحابة رسول الله ﷺ ينظر بعضهم إلى بعض كأنهم يتشاورون فيما يصنعون، فالتفت عاصمٌ إلى أصحابه، وقال: "أما أنا فلا أنزل في ذمة مشرك"، ثم تذكر نذر سلافة الذي نذرته يوم أحد وجرد سيفه وهو يقول: "اللهم إني أدافع عن دينك، فاحم لحمي وعظمي، ولا تظفر بهما أحدًا من أعداء الله".

ثم كر في بطولة نادرة على الهذليين، وتبعه ستة من أصحابه، وظلوا يقاتلون القوم حتى صرعوا واحد بعد آخر، وأما الصحابة الثلاثة الآخرون وهم: عبد الله بن طارق، وزيد بن الدثنة، وخبيب بن عدي رضي الله عنهم فقد استسلموا لآسريهم، فما لبث الهذليون أن غدروا بهم.

لم يكن الهذليون في بادئ الأمر يعلمون أن عاصم بن ثابت هو أحد قتلاهم، فلما عرفوا ذلك فرحوا به أشد الفرح، ومنوا أنفسهم بجزيل العطاء، ولا غرو ألم تكن سلافة بنت سعد قد نذرت إن هي ظفرت بعاصم أن تشرب في قحف رأسه الخمر؟ ألم تكن قد جعلت لمن يأتيها به حيًا أو ميتًا له كل مالها.

لم يمض على مصرع عاصم بضع ساعات حتى علمت قريش بمقتله، فقد كانت هذيل تقيم قريبًا من مكة، فأرسل زعماء قريش رسولًا من عندهم إلى قتلة عاصم يطلبون منهم رأسه؛ ليطفئوا بها غلة سلافة ويبروا قسمها، ويخففوا أحزانها، وحملوا مالًا وفيرًا، وأمروه رسولهم أن يبذله للهذليين بسخاء لقاء رأس عاصم.

قام الهذليون إلى جسد عاصم ليفصلوا عنه رأسه؛ ففوجئوا بأسراب النحل قد حطت عليه، وأحاطت به من كل جانب، فكانوا كلما أرادوا الاقتراب من جثته طارت في وجوههم، ولدغتهم في عيونهم، فلما يئسوا من الوصول إليه بعد أن بعد حاولوا ذلك الكرة تلو الكرة؛ قال بعضهم لبعض: "دعوه حتى يجن الليل؛ فإن النحل إذا حل الظلام؛ حلت عنه، وخلته لكم"، ثم جلسوا ينتظرون غير بعيد.

لكنه ما كاد ينصرم النهار ويقبل الليل حتى تلبدت السماء بالغيوم الكثيفة، وأرعد الجو وأزبد، وانهمر المطر انهمارًا لم يشهد له مثيلًا، وسرعان ما سالت الشعاب وامتلأت البطاح وغمرت الأودية، واكتسح المنطقة سيل كسيل العرم، فلما انبلج الصبح قامت هذيل تبحث عن جسد عاصم في كل مكان؛ فلم تقف له على أثر، ذلك أن السيل أخذه بعيد عنهم، ومضى به إلى حيث لا يعلمون، فلقد استجاب الله عز وجل دعوة عاصم بن ثابت؛ فحمى جسده الطاهر من أن يمثل به، وصان رأسه الكريمة من أن يشرب في قحفها الخمر.

- عبرة

يا شباب، لقد كان هذا موقف جليل لعاصم بن ثابت وجماعته رضي الله عنهم حيث أبوا أن يستسلموا وأن ينزلوا على ذمة الكفار، وتصدوا لقتال مائة من الرماة وغيرهم من المقاتلين، وقتل بنال العدو سبعة من العشرة فيهم أميرهم عاصم بن ثابت، وبقى ثلاثة هم خبيب وزيد وعبد الله بن طارق، فاختاروا الاستسلام بعد قتل أصحابهم، ثم حاول المقاومة بعد ذلك عبد الله بن طارق فقتلوه وبقى خبيب وزيد، وكان بقاؤهما خيرًا للمسلمين حيث سطرا في الأيام الأخيرة من حياتهما مواقف عالية في الصبر على الأذى واحتساب الأجر عند الله تعالى وإظهار عز الإسلام.

وما جرى لعاصم من حماية النحل والدبابير ومنعها المشركون من الدنو من جثته، ثم مجيء السيل وحمل جسده ودفنه عبرة عظيمة، حيث كان هذا الصحابي الجليل نذر أن لا يمس جسده مشرك، فقد أكرم الله هذا الصحابي الجليل واستجاب دعاءه فلم يعبث المشركون بجسده، ولم تتمكن سلافة بنت سعد من شفاء غيظها منه بشرب الخمر في قحف رأسه.

لقد كان فيما جرى لهم من عاصم عبرة، لو اعتبروا بها لقادتهم إلى الإسلام، ولكفروا عن ذنبهم الكبير بإطلاق الأسرى الثلاثة، واتخاذهم أئمة هدى يتعلمون الإسلام منهم، ولكنهم أصحاب هوى، والدين الذي يخضعون له هو مصالحهم الدنيوية، فقد قاموا بذلك العمل الشنيع من أجل أن يستأسر لهم أفراد السرية ثم يبيعوهم من قريش، ولقد حرصوا على أخذ رأس عاصم لضخامة الجعل الذي جعلته سلافة لمن يأتي لها برأسه.

وهكذا تضيع الفضيلة؛ وتفقد الكرامة حينما تسيطر النظرة المادية على تفكير الإنسان، وإذا خلا قلبه من الإيمان بالله تعالى الذي يسمو بفكره نحو الحياة الآخرة فإن تفكيره يكون مقصورًا على الحياة الدنيا، من أجلها يحب ويبغض، ومن أجلها يوالي ويعادي، ويقسو قلبه ويتجبر حينما يغلب غيره ويكون في موطن القوة، ويضعف ويستخذي حينما يُغلب ويكون تحت رحمة غيره.

لست منا بل عدونا

إنَّ لكل أُمة من الأمم تاريخًا تستمد منه مجدها الغابر، وعظمتها الخالدة، وتحاول أن تصل حاضرها بماضيها، وأن تحيي ما درس من أخلاق سلفها الصالح، وآثار آبائها، وأجدادها، ولا خير في حاضر لم يقم على ماض مجيد، ولا في خلف لم يمجد أعمال السلف، ولا في حضارة تقوم على الغض من شأن كل قديم، والأخذ بكل جديد.

وتاريخ الإسلام قديمًا وحديثًا، تاريخ مجيد حافل بالذكريات العظيمة، والعبرة المؤثرة، ومواقف البطولة النادرة، وصحائف الشرف والمروءة التي طمرت في زوايا الإهمال والنسيان، وفي تاريخنا الحديث من الصحائف المشرقة الوضاءة التي تستحق الخلود الكثير، وهذه أحد هذه الصحائف الخالدة، فتعالوا بنا لنستمتع بهذا المشهد الماتع.

يوم تسلط الاستعمار الإنجليزي على مصر، طأطأ الكثيرون رؤوسهم، استخزاء للمستعمر الجديد، وقف علماء الأزهر، يشمخون برؤوسهم استعلاءً أمام جبروت المستعمر الجديد، ويعلنون باسم الإسلام العظيم، رفضهم للوصاية البريطانية.

وأراد اللورد كرومر جبار مصر وحاكمها آنذاك أن يستعطف علماء الأزهر، عسى أن يخففوا من معارضتهم للاستعمار الإنجليزي الذي يمثله، فجمع من حوله بعض المارقين من المتعاونين معه، ومضي بهم يريد زيارة العالم المؤمن الشيخ شمس الدين محمد الإنباني رحمه الله شيخ الجامع الأزهر يوم ذاك، وعندما دخل اللورد كرومر على الشيخ، وجده جالسًا فانتظر اللورد قليلًا، عسى أن يقف العالم المؤمن لاستقباله، لكنه لم يفعل.

فتقدم اللورد من الشيخ مادًا يده للسلام عليه، وهو يحسب أن الشيخ سيضطر للوقف له لرد السلام عليه، لكن الشيخ المؤمن بقي جالسًا، ومد يده باستخفاف يرد على الطاغية الإنجليزي تحيته.

فثارت ثائرة كرومر وكاد أن يأمر بالفتك بالعالم المؤمن الذي يتحدى سلطانه وجبروته، لكنه سرعان ما أدرك أن أي إساءة للشيخ، وهو رمز الأزهر كله، سيفتح عليه أبوابًا جديدة من المتاعب لا قبل له بها، فتصنع الهدوء، وانحنى أمام العالم المؤمن يسأله بمودة مصطنعة: «ألست تقف للخديوي إذا دخل عليك، أيها الشيخ الجليل؟»

فأجابه الشيخ: بلى، إني أرد تحيته بمثلها أو بأحسن منها»، فيقول اللورد بخبث: «فلماذا لم تقم لي أيها الشيخ الجليل؟»، فيأتيه جواب الشيخ شواظًا من نار، يجسد كل ما يمثله الأزهر، وشيخه وعلماؤه، من رمز رافض للاستعمار البريطاني وأعوانه: «أيها اللورد، إنّ الخديوي مسلم منا، أرد تحيته، أما أنت فلست منا، إنك عدونا، فكيف أقوم لك!».

- عبرة

يا شباب، تلك هي طبيعة الإيمان إذا تغلغل واستمكن في القلوب، فهو يضفي على صاحبه قوة تنطبع في سلوكه كله، فإذا تكلم كان واثقًا من قوله، وإذا اشتغل كان راسخًا في عمله، وإذا اتجه كان واضحًا في هدفه، وما دام مطمئنًا إلى الفكرة التي تملأ عقله، وإلى العاطفة التي تغمر قلبه،

فقلما يعرف التردد سبيلًا إلى نفسه، وقلما تزحزحه العواصف العاتية عن موقفه.

يا سادة، المكافح عدوًا قويّ الشكيمة، شديد البأس، على ضعف العدة، وقلة الناصر، يحس عندما يتوكل على الله أنه آوى إلى ركن شديد، ويستمد من هذا التوكل ثباتًا ورباطًا، ويظل يقاوم حتى تبرق بشائر النصر خلال جو مكفهر.

صاحب النقب

إن أخبار الأبطال، ينسكب الدمع عند ذكرهم، ويتسابق الدمع عند تذاكر أخبارهم، وأمتنا أغنى الأمم بالرجال العظماء، ولهم في النفوس مكانة عالية، ومنزلة شامخة، فوجودهم رحمة، وذهابهم مصيبة، أصنافهم متعددة، وأعمارهم مختلفة، فمنهم العالم الجليل، ومنهم الداعية النبيل، ومنهم العابد الرباني، ومنهم المجاهد الصادق، أبطال تبكي السماء لفقدهم، وتحزن الأرض لفراقهم، بل ولا يزال الإسلام ينتظر اليوم مثلهم، وفي تاريخنا الكثير من العظماء المجهولين الذين لا يعرف الناس عنهم شيء، حتى لم يذكر التاريخ لهم اسم، ولكن بطولاتهم كانت خالدة عبر التاريخ، فتعالوا بنا نعيش سويًا في هذه السطور مع أحد هؤلاء الأبطال المغاوير.

كان مسلمة بن عبد الملك الأمير والقائد الأموي الشهير، أخو الخلفاء، والفاتح الكبير، في صائف يغزو بلاد الروم، وكان محاصرًا لأحد الحصون المنيعة في أرض الروم، وكان هذا الحصن أتعب المسلمين، فلم ينجح المسلمين في اقتحام الحصن لشدة حصنة الأسوار، وبسالة الرومان المدافعين عن الحصن.

وكان يوجد نقاب بجوار أحد أسوار المدينة، - وهو الذي يقضي فيه أهل الحصن حاجتهم فيه -، فطلب مسلمة بن عبد الملك أن يتطوع أحد أبطال المسلمين، ويدخل إلى النقب، فلم يتقدم أحد من المسلمين لهذه المهمة الاستشهادية، فلما نادى مرة أخرى، وقال: «أين من يريدون جنات الفردوس؟»،

هنا تقدم أحد أبطال الإسلام من الذين باعوا أنفسهم لله تعالى، وكان هذا الرجل المغوار ملثمًا، ولا أحد يعرف من هو.

فدخل النقب، ثم فتح للمسلمين أبواب الحصن من الداخل، وكأن المدافعين عن المدينة، لم يتوقعوا أن يدخل أحد لهم من هذا النقب، لاستحالة هذا الأمر.

هنا اندفع المسلمين كالسيل الجارف دخل الحصن، ونجحت القوات الإسلامية في فتح الحصن بعد معارك هائلة مع قوات الروم داخل الحصن، وصمد الروم كالجبال الراسيات، لكن اندفاع المسلمين أزال هذه الجحافل عن الحصن.

ولما استقر أمر الفتح الإسلامي للحصن، نادى مسلمة بن عبد الملك في الجيش وقال: «يا جنود الله، أين صاحب النقب؟»، فلم يتحرك إليه أحد من القوات الإسلامية، فتكرر ذلك الأمر ثلاثة مرات، ولما جاء اليوم الثالث، ولم يأتِ إليه أحد، قال: «يا صاحب النقب أليس لي عليك أن تسمع أوامري؟»، وأذن له في الدخول عليه الخيمة في أي وقت من اليوم.

وفي أحد الأيام جاء رجل إلى خيمةَ الأمير، واستأذن بالدخول عليه، فأذن الأمير له، فدخل عليه، فقال مسلمة: «أأنت صاحب النقب؟»، قال: «يا أيها الأمير، أنا أخبركم عنه»، فقال: «أخبرني عنه»، قال: «يا أيها الأمير، إن صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثًا»، قال: «وما هي؟»، قال: «ألا تسود اسمه - أي لا تكتبوه - في صحيفة إلى الخليفة، ولا تأمروا له بشيء من المال، ولا تسألوه من هو»، فقال مسلمة: «له ذلك»، فقال الرجل: «أنا صاحب النقب»، ثم انصرف الرجل.

فكان مسلمة من بعد هذه الحادثة لا يصلي صلاة إلا ودعا فيها «اللهم اجعلني مع صاحب النقب».

- عبرة

يا شباب، في هذا الموقف البطولي الكبير لهذا البطل المجهول رحمه الله شجاعة ليس لها نظير، فإن الأعداء لما تحصنوا خلف الاسوار المنيعة العالية طلب مسلمة بن عبد الملك من أحد أبطال الجيش التضحية بنفسه للدخول من هذا النقب، ولقد اندفع هذا البطل نحو الموت؛ ولم يخشَ الموت ولو لحظة واحدة، وقد استطاع في بطولة نادرة، وشجاعة خارقة فتح باب القلعة.

إن المتأمل لهذا الموقف العظيم يتملكه العجب ويندهش من إقدام هذا البطل الكبير على تنفيذ هذه الخطة الفدائية، فإن أي فرد يلقي بنفسه في وسط الأعداء سيتصور الموت قتلًا بأبشع أنواع القتل، فهل كان صاحب النقب يتصور ذلك وهو يلقي بنفسه نحو الموت؟ نعم كان يتوقع ذلك، بل كان يتمناه، لأنه من قوم تهون أنفسهم في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، وقد أقدم على هذا الأمر الهائل ابتغاء الظفر بالأعداء وفتح الباب للمسلمين، فإن تم له ذلك وإلا فإن هذا موطن من المواطن التي تُطلب فيها الشهادة.

وهكذا فُتح باب القلعة فاندفعت جحافل النور الهادرة لتقضي على جحافل الباطل المبهوتة، وكان صاحب النقب من أسباب تمكين المسلمين من هذا الحصن الهامة.

الرجل الأسطوري

ظل الرجل الأسطوري محمد بن أبي عامر المنصور الذي لم يعرف في تاريخ الدنيا مثله، طوال الفترة التي حكم فيها الأندلس، مواصلًا للغزو والجهاد في سبيل الله، ويروى أكثر المؤرخين أنه كان مفرطًا في ذلك لا يشغله عنه شيءٌ، وقد بلغ حبه للجهاد مبلغًا أنه خرج يومًا ليصلي صلاة العيد فحدثت له نية في الجهاد، فلم يرجع إلى قصره، بل خرج من صلاته مباشرة إلى ساحة الجهاد، فكان يخرج للقتال فيتبعه جنوده، ويلحقوا به أولًا فأول، فلا يكاد يصل إلى مشارف بلاد النصارى، إلا وقد لحقه كل الجنود، وبلغت غزواته أربع وخمسين معركة كبري فلا يكاد يفرغ من غزوة إلا استعد للأخرى.

ويستدل المؤرخين على ذلك من قول أحد جنوده: «إننا لا نكاد نصل إلى بلادنا إلا وقد جاء وقت الغزوة الأخرى فنقعد هنا إلى وقت الغزوة التالية»، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد العجيب من حياة هذا الرجل.

من مفاخر المنصور في جهاده لفتح بلاد النصارى، أنه في أحد غزواته مر بين مضيق في الشمال بين جبلين عظيمين، فلما جاوز ذلك المحل، ونكاية فيه نصب له النصارى كمينًا كبيرًا، فتركوه حتى عبر بكل جيشه، وآخذٌ هو في الهجوم والغارات في بلاد النصارى يمينًا وشمالًا، ولم يجسر أحدٌ من الصليبيين على لقائه حتى أفقرت البلاد مسافة أيام، فلمّا هم بالرجوع، وجد طريق العودة قد قطع عليه، ووجد المضيق وقد أُغلق تمامًا بالجنود، وكان الوقت شتاء.

فما كان من أمر الحاجب المنصور إلا أن عاد مرة أخرى إلى بلاد النصارى، واحتل مدينة من مدن النصارى، ثم أخرج أهلها منها، وأناخ به بمن معه من العساكر، وتقدم ببناء الدور والمنازل، ووزع ديارها على جنده، وتحصن وعاش فيها فترة، ثم اتخذها مركزًا له يقود منه سير العمليات العسكرية، فأخذ يرسل منها السرايا إلى أطراف ممالك النصارى، ويأخذ الغنائم، ويقتل المقاتلين من الرجال، ثم يأتي بهؤلاء المقاتلين ويرمي بجثثهم على المضيق الذي احتله النصارى ومنعوه من العودة منه.

ثم صارت سراياه تخرج فلا تجد إلا بلدًا خرابًا، فلما طال البلاء على العدو، وضجّ الناس من هذا الرجل ذهبوا مغاضبين إلى قوادهم يعرضون عليهم أن يفتحوا له الباب، حتى يعود إلى بلده مرة أخرى، أو يجدوا حلًا لهذا الرجل، فاستجابوا لهم، وأرسلوا إليه في طلب الصلح.

وعرضوا على الحاجب المنصور أن يخلوا بينه وبين طريق العودة ويعود من حيث أتي، وأن يخرج بغير أسرى ولا غنائم، فما كان من المنصور إلا أن رفض هذا العرض، فلم تزل رسلهم تتردد إليه حتى سألوه أن يخرج بغنائمه وأسره، فأجابهم متهكمًا: «أنه كان يأتي إليهم كل عام مرتين صيفًا وشتاءً»، ثم قال: «إن أصحابي أبوا أن يخرجوا»، وقالوا: «إنا لا نكاد نصل إلى بلادنا إلا وقد جاء وقت الغزوة الأخرى، فتقعد هنا ثم نقوم بالصوائف والشواتي بدلًا من الذهاب إلى قرطبة ثم العودة منها ثانية».

فلم يكن مفرٌ أمام النصارى سوى أن يطلبوا منه الرجوع إلى بلده بالغنائم والأسرى، والجواز إلى بلاده، فقال: «أنا عازم على المقام هنا»، فظلت الرسل تتردد عليه، حتى قرر عليهم أن يحملوا

على دوابَهم ما معه من الغنائم والسبي، وأن يمدوه بالميرة حتى يصل إلى بلاده، وأن يُنحُّوا جيف القتلى - الذين قتلهم ورمى بهم إلى المضيق - عن طريقه بأنفسهم، ففعلوا ذلك كله، وانصرف، وكان ذلك عزًا ما وراءه مطْمح، ونصرًا لا يكاد الزمان يجود بمثله ويسمح، خصوصًا إزالتهم جيف قتلاهم من الطريق، ونقل الغنائم إلى قرطبة بأنفسهم.

- عبرة

يا شباب، أقدار الرجال تُعرف من خلال أعمالهم التي قاموا بها ومدى نفعها للناس وتأثيرها في قلوبهم، وقدر كل امرئ ما كان يحسنه، والعظماء في تاريخنا كالنجوم الزاهرة، تتألق في جو السماء لتنير لأهل الأرض سبل الهداية والرشاد، والمنصور رحمه الله في الشجاعة والبطولة علمٌ معلمٌ، وفارس مقدام، لا يشق له في الحرب غبار، شهدت فترة حكمه للأندلس أربع وخمسين معركة لم تسقط له راية، فقد ظل فدائيًا وفيًا لأمته، حتى لحق بربه وهو في طريق إلى أرض الجهاد.

يا شباب، إن سرد سير العظماء من أجمل ما يقرأ الإنسان، وخاصةً إذا كانت هذه الوقائع مفعمةً بروح الشجاعة، والقوة، والعظمة، والمواقف الكبيرة، وحياة العظماء مثل المنصور لها أثر كبير في حياة الأمة بأسرها، فلقد كانت حياتهم عبارة عن صفحات من المجد والعزة لهذه الأمة، فيجب علينا يا شباب الإسلام، أن نتعلم من سيرة هؤلاء العظماء حتى نسير إلى المجد في حياتنا الدنيا، ونفوز كما نفوز بإذن الله في الآخرة.

المهمة المستحيلة

نسمع كثيرًا ونرى في الأفلام السينمائية الحالية كثيرًا من الأبطال الوهميين الذين يقومون بأمور خرافية، وفوق العادة من اقتحام لمواقع عسكرية، أو تدمير للأماكن بالغة السرية، وغير ذلك من الأفلام التي تُبثُ خصيصًا، لزرع الأفكار الهدامة داخل العقول المسلمة، والتي غايتها تثبيط النفوس الإسلامية، وزرع الشعور بالضعف، وإن هؤلاء أولو قوة وبأس شديد، ونحن لا شيء مقارنة بهم، ولن نستطيع اللحاق بركبهم حتى ولو حاولنا.

ولكن إذا دققنا النظر في تاريخنا الإسلامي سنجد الكثير من البطولات والمهمات المستحيلة والحقيقية، والتي ترسخ في النفوس حب الجهاد، والتضحية، والاستشهاد في سبيل الله، ورفع راية الإسلام خفاقة عالية دون مبالاة بالصعوبات والمخاطرة.

ومن هذه البطولات التي أحب وأسعد أن أذكرها في هذا الكتاب هي بطولة ثمانين مجاهد الذين بهم ابتدأ العثمانيون نشر الإسلام في أوروبا، فكل منا يعلم أن الدولة العثمانية كانت تبسط قوتها في ثلاث قارات من العالم، أوروبا وأسيا وأفريقيا، ولكن عند الحديث عن أوروبا فهل منا من يعلم كيف بدأ فتح أوروبا عن طريق آل عثمان؟ فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد الأسطوري.

كانت الغرفة الكبيرة مملوءة برؤساء عشيرة قايي وبرجالها البارزين، كان الجميع في انتظار السلطان الغازي أورخان بن عثمان، الذي أرسل إليهم ليشاورهم في أمر هام لم يفصح عنه لأحد.

فما الأمر لما استدعاهم السلطان؟!

أهناك معاهدة جديدة مع الروم البيزنطيين يريد أن يأخذ رأيهم في بنود المعاهدة!

كان الهمس يدور بين الجميع، دخل السلطان أورخان يتبعه ابنه الأكبر سليمان باشا، قال السلطان: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته»، وردوا عليه التحية.

أجال أورخان نظره في الجالسين ثم تكلم وقال: «يا إخواني تعلمون أنه قد تم فتح مدينة بورصة، وجعلناها عاصمة لمملكتنا فحققنا بذلك وصية والدنا عثمان رحمه الله، كما وفقنا الله لفتح جميع حصون ومعاقل الروم في هذه المنطقة، حتى اضطر إمبراطورهم يوانيس السادس إلى عقد الصلح معنا، ولكن لا يكفي هذا؛ إذ أن علينا أن نعبُر إلى روملي لنستمر في الفتوحات، ونشر الإسلام في أوروبا، فما رأيكم وما قولكم؟!»؛ ف

قام الغازي فاضل بك وهتف: «الله أكبر، الله أكبر، لقد كنا ننتظر هذه البشرى منذ وقت طويل، بارك الله فيكم يا سيدي، نحن جميعًا من ورائك»، وسرى الانفعال إلى الآخرين، فهمس الأمير سليمان إلى والده أورخان وقال له: «ألا تجعلني على رأس هذه الحملة يا أبي؟!»،

ابتسم الوالد من رغبة ابنه، لكنه تردد قليلًا فهذه الحملة تحتاج إلى حكمة قائد محنك متمرس، وليس لشاب صغير السن، فاستشار السلطان قواده في ذلك، وكان الجميع يعرف سليمان حق المعرفة، ويعرفون بسالته وشجاعته في المعارك الطاحنة التي خاضها معهم لذا قالوا: «حسنًا يفعل، ونحن تحت إمرته، وطوع بنانه».

قال السلطان: «إذن نوليه هذه القيادة بعد التوكل على الله عز وجل»، ثم قال السلطان: «ولكن يا إخواني، أرجو أن تساعدوه، وأن تشيروا عليه، وعليه هو أن يستشيركم في كل أمر في هذه الحملة».

وفي صباح أحد الأيام، كانت هناك حركة دائبة في معسكر المسلمين، إذ حدت السيوف والرماح، ولبست الدروع، وتعالى صهيل الخيول، وبعد قليل توجه فرسان الإسلام نحو الشمال حتى انتهي البر وظهر البحر، هذا هو البحر الذي يفصلهم عن قارة أوروبا، عن مكان جديد سينشرون فيها الإسلام بأخلاقهم، عسكر المسلمون هناك ريثما يجدون حلًا لعبور هذا البحر.

كان الأمير سليمان دائم التفكير في كيفية حل هذه المشكلة، وبينما هو واقف في الساحل يتطلع ساهمًا إلى الضفة الأخرى في البحر، اقترب منه الغازي فاضل بك، ومعه الفارس أجه بي.

سأل أجه بي: «بماذا تفكر أيها الأمير؟»، قال الأمير سليمان: «أفكر في كيفية عبور هذا البحر إلى الضفة الأخرى دون أن يشعر الأعداء بذلك»، قال الفارس أجه بي: «إن أصدرتم لنا أمركم، فسنعبر نحن»، قال الأمير سليمان: «كيف هذا؟ ومن أين السفن؟»، قال أجه بي: «علمنا أن هناك مضيقًا قريبًا نستطيع العبور من عنده، ويوجد لهم حصن هناك»، فقال سليمان: «حسنا اعبروا أذن، ولكن مهمة استطلاعية في أول الأمر».

ذهبوا إلى المضيق وصنعوا هناك طوفًا صغيرًا من جذوع الأشجار، وعندما حل المساء ركب الغازي فاضل بك، والفارس أجه بي مع عدد قليل من الفرسان، وانتقلوا بطواف إلى الضفة الأخرى، وهناك رأوا أحد الأشخاص وهو نائم، فألقوا القبض عليه ورجعوا به إلى الأمير سليمان، كان هذا الأسير يرتجف من الخوف إذ أيقن أنهم سيقتلونه.

ولكن الأمير سليمان هدأ من روعه، وأطعمه، وأهدى إليه حلة جديدة، وهدايا أخرى، جعلته يطير من الفرح، ثم سأله: «أتستطيع أن تدلنا على منفذ نستطيع الدخول منه إلى الحصن دون أن يحس بنا أحد؟»، قال الرجل: «أجل يا سيدي أستطيع ذلك، إذ أنني أعرف الحصن جيدًا»، قال الأمير: «لو فعلت هذا، وتحققنا من صدق كلامك فسأجزل لك العطاء»، قال الرجل: «أنا أعدكم يا سيدي لن يحس بنا أحد».

أصدر سليمان باشا أمره بصنع أطواف (سفن صغيرة الحجم) وأخرى أكبر حجمًا، وفي مساء اليوم التالي، وبعد أن تم ذلك اختيار ثمانين صنديدًا من فرسانه ركبوا الأطواف، وانتقلوا به في جنح الظلام إلى الضفة الأخرى بكل هدوء، هناك دلهم الرجل على ممر سري (كان الممر السري هو قناة المياه تصرف المياه القذرة للحصن وترمي بها إلى البحر).

تسلل الأمير سليمان وجنوده الثمانون إلى الحصن بكل هدوء، وكان الموسم موسم حصاد، وجمع للفواكه، لذا فقد كان أكثر سكان الحصن في البساتين والحقول، لذا فلم يصعب عليهم الاستيلاء على الحصن، ولم تتيسر المقاومة للأعداء، فقد نزل عليهم دخول المسلمين كصاعقة فاستسلموا، ولم يتعرض المسلمين لهم بأي أذي.

لم يدع سليمان باشا الوقت يمر بدون فائدة فأرسل بعض رجاله حيث استولوا على السفن الراسية هناك، وانتقلوا بها إلى الضفة الأخرى، ونقلوا بقية الجنود هناك ، وقبل أن ينتشر هذا الخبر - أي خبر استيلاء المسلمين على الحصن - هاجم المسلمون حصنًا قريبًا آخر، وفتحوه أيضًا، فأصبحوا يملكون حصنين كبيرين، كموضع قدم لهم في قارة جديدة يطأوونها لأول مرة،

وقد كانت هذه هي البداية، بداية انتشار المسلمين في هذه القارة مرة أخرى، وقد كان لهم فيها صولات وجولات وفتوحات كبيرة!

- عبرة

يا شباب، إن التاريخ الإسلامي يزخر ويفخر بكثير من البطولات الحقيقة التي تكون قدوة للشباب المسلم، ولا ينقصنا سوى أن نقلب صفحات التاريخ الإسلامي للتعرف عليها، وذلك عكس الحضارات والأمم والدول الأخرى التي لا يوجد لديها مثل ما لدينا، فنحن لدينا كنز ولكن نجهل قيمته الحقيقة، ولذلك تجد هؤلاء يعمدون إلى خلق قدوات ولو وهمية لشبابهم حتى يسيروا عليها وعلى نهجها.

شيخ لا يخشى إلا الله

إن الناظر في تاريخ البشر يجد حياة الهداة، والعظماء لا تخلو من محن وبلاء، وكثيرًا ما تمخضت المحن عن منح، وخير كثير، ولولا هذه المحن، لعاش أولو العزم من الناس كما يعيش الأغمار، لا يأبه بهم أحد، ولا يطلع على سموهم النفس، وعظمتهم الخلقية إنسان، فإن من الرجال رجالًا لهم من الفضائل والخصائص ما يعد كنزًا مخفيًا يسمو بهم عن النظير، فصفاء الفطرة، ونقاوة الجوهر، والصلابة في الحق، وقوة الإيمان، والتضحية بكل شيء في سبيل العقيدة، كلها من الكنوز الخفية.

والمحك الذي يظهر الخصائص، ويميز بين المحق، والمبطل، والمخلص، وغير المخلص، هي المحن والبلاء، ومحنة الإمام العز بن عبد السلام من أعظم المحن التي تعرض لها العلماء في تاريخنا، فتعالوا بنا لنعيش سويًا من خلال تلك السطور مع هذا المشهد المهيب.

كان سلطان العلماء العز بن عبد السلام رحمه الله من علماء الحق الذين لا يخشون في الله لومة لائمة، وقد كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شيئًا تفرضه طبيعته عليه، فلا يبالي هلك فيه أو عاش، ولم يتعلق يومًا بمال أو جاه، أو ترف، أو نعيم، لقد عاش لله، ومع الله، فانتزع من قلبه خوف الدنيا، فغمرته أنوار السماء التي تخيف كل شيء ولا تخاف.

كان الشيخ خطيب الجامع الأموي، مع مناصب قاضي قضاة دمشق، وكان يحضر خطبته الملوك والأمراء، ويجلونه، ويكبرونه، فلما وقع الخلاف بين الملك الصالح إسماعيل في الشام، وابن عمه الملك الصالح نجم الدين أيوب، استعان الصالح إسماعيل بالصليبيين وحالفهم على ابن عمه حاكم مصر، ومن عجائب المصادفات أن هذا الملك الخائن كان يلقب بالملك الصالح.

وكانت بنود المعاهدة أن يساعده الصليبيين على غزو مصر، مقابل ذلك يسلم إليهم مدن صيدا والشقيف وقلعة صفد وغيرهما من بلاد المسلمين، وسمح لهم بدخول دمشق، وشراء السلاح وآلات الحرب، وما يريدون، وهو يعلم أنهم يستخدمونه لمحاربة المسلمين، فأثار هذا الصنيع استياء المسلمين وعلمائهم، وغضب الشيخ العز بن عبد السلام لله، وقام في الجمعة التالية على منبر الجامع الأموي، فخطب في ذم موالاة الأعداء، وتقبيح الخيانة، وانتهت الخطبة، وقطع الدعاء للملك كما هي العادة، والملك حاضر في المسجد، فأعلن أن الملك قد خان وأن الخائن لا ولاية له، وأعلن أمام الجميع إسقاطه من الحكم.

لم يراع رحمه الله صداقته القديمة مع الصالح إسماعيل، ولم يحرص على عطفه، ولم يلجأ إلى زاوية مظلمة فيتلفت حولها، ثم يقول بصوت خافت: «اللهم إن هذا منكر لا أرضى به، ولا أقدر على إزالته»، بل صدع بالحق على المنبر، في حضور الملك.

بعد هذه الخطبة النارية، وهذا الهجوم الشرس على إسماعيل، ورد كتاب من الصالح إسماعيل بعزل الشيخ من الخطابة والقضاء، والقبض عليه وحبسه.

فأشار بعض أنصار الشيخ عليه أن يغادر دمشق، وينجو بنفسه من الصالح إسماعيل، وأعدوا له وسائل في مكان أمين لا يهتدي إليه الصالح إسماعيل ورجاله، فرفض الشيخ هذا الاقتراح، وقال: «والله لا أهرب ولا أختبئ، وإنما نحن في بداية الجهاد، ولم نفعل شيئًا بعد، وقد وطنت

نفسي على احتمال ما ألقى في سبيل الله، والله لا يضيع عمل الصابرين».

وبالفعل قبض على الشيخ وسجن هو ومجموعة من أنصاره، فشق ذلك على الناس فثاروا، وانتشرت ثورة لأجل الشيخ في أرجاء دمشق، وبالرغم من عزل الشيخ وحبسه إلا أن الثورة زادت واستفلحت، وتكلم العلماء في الأمر.

لم يجد أعوان السلطان سبيل في ثني الشيخ عن رأيه، فأمر السلطان بإخراج الشيخ من محبسه، ولكن أمر بملازمته داره، ولا يخرج منها، وأن لا يفتي، ولا يجتمع بأحد البتة.

مرت الأيام والشيخ في إقامته الجبرية، وقد منع من الإفتاء والاتصال بأحد من إخوانه أو طلابه، وتعطلت هوايته المفضلة، وواجبه المقدس، وهو الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فطالب الهجرة من دمشق إلى مصر، وبعد محاورات قرر السلطان إرساله إلى بيت المقدس.

وهناك في بيت المقدس جاء الصالح إسماعيل والملك المنصور صاحب حمص ومعهم حالفهم من ملوك الفرنج بعساكرهم وجيوشهم يقصدون الديار المصرية، فسير الصالح إسماعيل بعض خواصه إلى الشيخ ليكسب الموقف، ويطغى على خيانته للإسلام، ويلبس أفعاله الوجهة الشرعية في وجود الشيخ العز بجواره وفي منصبه، وقال له: «تدفع منديلي إلى الشيخ وتتلطف به غاية التلطف، وتعده بإعادته إلى مناصبه على أحسن حال؛ فإن وافقك فتدخل عليَ؛ وإن خالفك فاحبسه في خيمة إلى جانب خيمتي».

اجتمع رسول الملك مع الشيخ وشرع في مسايرته وملاينته وقال له: «يا سيدي الشيخ، بينك وبين أن تعود إلى منصبك، وما كنت عليه وزيادة أن تنكسر للسلطان، وتقبل يده هذا فقط لا غير».

فرد عليه العز بن عبد السلام رحمه الله في كبرياء وعزة المؤمن فقال: «والله يا مسكين ما أرضاه أن يقبل هو يدي فضلًا عن أن أقبل يده، يا قوم أنتم في واد، وأنا في واد، الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به».

فقال الرسول: «يا شيخ قد رسم السلطان أن توافق على ما يطلب منك، وإلا حبستك»؛

فقال الشيخ: «افعلوا ما بدا لكم، فأخذه وحبسه في خيمة إلى جانب خيمة الصالح إسماعيل».

وكان رد الصالح إسماعيل متوقعًا، فقد أمر باعتقال الشيخ الكبير في بيت المقدس، ووضعه في خيمة مجاورة لخيمته، وكان الشيخ يقرأ القرآن في محبسه داخل الخيمة، والملك يسمعه، وفي ذات يوم كان الصالح إسماعيل يتحدث مع ملوك الصليبيين في خيمته، والشيخ يقرأ القرآن، فقال الصالح إسماعيل لملوك الصليبيين وهو يحاول استرضاءهم: «تسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن؟»، قالوا: »نعم»، قال: «هذا أكبر علماء المسلمين، وقد حبسته لإنكاره على تسليمي حصون المسلمين إليكم، وقد عزلته عن الخطابة بدمشق، وعن مناصبه، ثم أخرجته فجاء إلى القدس، وقد جددت حبسه واعتقاله لأجلكم».

يقول الصالح إسماعيل هذا الكلام ليسترضي ملوك النصارى، فقال له ملوك النصارى وقد سقط تمامًا من أعينهم: «لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه، وشربنا مرقتها».

أي لو كان عندنا رجل بهذا الإخلاص للأمة، وبهذه القوة، وبهذه الشجاعة، لكنا نغسل رجليه،

ولشربنا الماء الذي غسلنا به رجليه، تلك إجابة الصليبيين التي كانت سمًا في قلب الصالح منكرين فعلته، والحق ما شهد به الأعداء.

فأصيب الملك إسماعيل بالخيبة والذل، وكانت هذه بداية هزيمته وفشله، وجاءت جنود الصالح نجم الدين أيوب، وانتصرت عليه وعلى من كانوا متحالفين معه من الصليبيين، وأفرجت عن الإمام العز بن عبد السلام، وذهب الشيخ إلى مصر وكان له فيها صولات وجولات.

- عبرة

يا سادة، لقد كان سلطان العلماء رحمه الله طراز فريد من البشر، وكان أنموذجًا رائعًا للسياسي البارع، والعالم المستنير، والاجتماعي المخلص، والعابد الصالح، فكان أمةً في عصره، أحيا الله به موات المسلمين، شيخ فرغ من شهواته، شهوات بطنه، وشهوات غريزته، وشهوات المجد والغنى والجاه، وهانت عليه الدنيا فلم يطلب لنفسه شيئًا منها فجاءه منها كل شيء المجد والجاه والمنزلة التي خضعت له بها الدنيا، شيخ كان يهابه الملوك، ويطيعه الشعب، ويذل أمامه الجبارون.

رجل الأقدار

نحن لا زلنا في بستان البطولة الخالدة في تاريخنا العظيم، ففي هذا المشهد الخالد الذي نذكره لكم نقف قليلًا لنلمح صورة فذة؛ ومثالًا عاليًا، وقدوة عظيمة، والإنسان الشجاع يحبه ويحترمه كل أحد حتى عدوه، والإنسان الجبان يكرهه كل أحد حتى أمه، والشجاعة لا بُد لها من قوة قلب وإقدام في حكمة وثبات في حماس، ولعلك تجد هذا الخلق واضحًا في حياة هذا المجاهد العظيم حينما يصر على قتل قائد جيش الروم، وهو وسط عسكره، ويثور ثورة الليث الهصور حتى يتوارى الباطل، وينزوي الضلال اتقاء لصولة الحق المتمثلة في موقف هذا البطل.

ونحن في كتابنا هذا نتابع رحلة البطولة والفداء في تاريخنا العظيم، ونحط رحالنا الآن مع رجل الأقدار، البطل الباسل المغوار عبد الله بن الزبير بن العوام رضي الله عنه ، ولو رحت أستقصي لكم أخبار بطولات عبد الله بن الزبير، لطال الكلام، وضاق المقام؛ لذا رأيت أن أعرض لكم قصة واحدة من قصص بطولاته، وهي تخبركم عمَّا عداها، فتعالوا بنا لنعيش سويًا بقلوبنا مع هذا المشهد الأسطوري.

لم يتأخر عبد الله بن الزبير رضي الله عنه عن معركة من معارك المسلمين؛ منذ غدا أهلًا لحمل السلاح، كان له في كل معركة خاضها المجاهدون؛ أثرٌ يذكر فيشكر من ذلك؛ أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أذن لواليه على مصر عبد الله بن سعد بن أبي السراح رضي الله عنه بفتح أفريقية - وأفريقية في هذا الوقت يقصد بها بلاد المغرب الإسلامي الآن -، فمضى الجيش المجاهد إلى غايته الكبرى، لكنه ما لبث أن انقطعت أخباره عن الخليفة؛ فأهمه أمر ذلك الجيش وأغمه، فبعث نخبة من شباب الصحابة منهم عبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن العباس رضي الله عنهم على رأس جماعة من فرسان المسلمين؛ لإمداد الجيش، وموافاته بأخباره.

ففي معركة فتح إفريقية بالذات وقف المسلمون في عشرين ألف جندي أمام عدو قوام جيشه مائة وعشرون ألفًا - وقيل مائتي ألف -، ودار القتال وغشي المسلمون خطرٌ عظيم.

التقى عبد الله بن الزبير بالجيش الغازي، واطلع على أحواله، وفي أحد الأيام علم ابن الزبير بغياب قائد الجيش عبد الله بن سعد رضي الله عنه فسأل عنه فقيل له: "إنه سمع منادي قائد الروم جُرجير يقول من قتل ابن أبي السراح فله مائة ألف دينار، وأزوجه ابنتي، فتأخر عن شهود القتال".

فقال له ابن الزبير: "يا عم نادي أنت في الجيش بأن من قتل جرجير فله مائة ألف، وزوجته ابنته، واستعملتُه على بلاده"، فخاف جرجير أشد من ابن أبي السراح.

وجد ابن الزبير أن ابن أبي السراح رضي الله عنه يقاتل الروم من الصباح إلى الظهر في كل يوم، ثم يركن جيشه وجيش عدوه إلى الراحة من قسوة الجو؛ وشدة الحر، فطرح عليه فكرة مباغتة للخصم بهجوم غير متوقع، فقسم الجيش إلى مجموعتين قتاليتين: تقاتل الأولى من الفجر حتى الظهيرة، ثم تنطلق المجموعة الثانية بعد عودة الأولى، فيتبادل الفريقان الراحة، ويستمر القتال، وبذلك لا يعطي العدو الفرصة لالتقاط أنفاسه، فسُر ابن أبي السراح بالخطة، وأمر

بتنفيذها، وتخلى عن القيادة لعبد الله بن الزبير طائعًا مختارًا.

اقتتل الجيشان في اليوم التالي كما كان يقتتلان كل يوم، فلما حان وقت الظهر؛ شرع الروم ينصرفون على عادتهم، فما راعهم إلا أن فوجئوا بالمسلمين وهم يواصلون القتال بجيش مشبوب القوة، مشحوذ العزيمة، موفور النشاط، فدب في قلوبهم الذعر، وحل في صفوفهم الخلل، وبدت عليهم بوادر الهزيمة، لولا ثبات قائدهم جرجير، فصدوا هجوم المسلمين.

عرف ابن الزبير أن مصدر قوة العدو في قائدهم جرجير، فهو يصيح في جنوده ويحرضهم بطريقة تدفعهم إلى الموت دفعًا عجيبًا، أدرك ابن الزبير أن هذه المعركة الضارية لن يحسمها سوى سقوط هذا القائد العنيد، ولكن أين السبيل إليه، ودون بلوغه جيش لجب، يقاتل عنه كالإعصار، بيد أن جسارة ابن الزبير وإقدامه لم يكونا موضع تساؤل قط.

لما لا يا سادة، ولقد نشأ عبد الله بن الزبير رضي الله عنه نشأة المجاهدين الشجعان، فلقد رضع لبان الفروسية منذ نعومة أظفاره، كيف لا وأبوه الزبير فارس الفرسان، وحواري رسول الله ﷺ، وأمه هي أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه ، وما أدراك من هي أسماء فدائية الإسلام الأولى، وأم أبيه هي صفية بنت عبد المطلب أول من قتلت مشركًا في الإسلام، وجده لأمه هو الصديق رضي الله عنه قاهر المرتدين.

هنالك نادى ابن الزبير بعض إخوانه، وقال لهم: "احموا ظهري، واهجموا معي، وسترون ما أنا فاعلٌ"، فخرج معه ثلاثون من صناديد الإسلام وأبطاله.

كان جرجير قائد الروم يستقر في وسط عسكره، فقال ابن الزبير لرجاله الذين اختارهم: "إني ماض إليه؛ فاتبعوني، وردوا عني كيد من يعترضني"، ثم مضى يشق الصفوف المتلاحمة كالسهم نحو جرجير، رابط الجأش، ثابت العزم، رصين الخطا، صامدًا نحو القائد، حتى إذا بلغه، عرف جرجير قصده، فولى هاربًا، فأدركه عبد الله بن الزبير، وهوى عليه في كرة واحدة، فهوى جرجير على الأرض صريعًا، ثم استدار بمن معه إلى الجنود الذين كانوا يحيطون بقائدهم فصرعوهم، ثم صاحوا: "الله أكبر".

ورأى المسلمون رايتهم ترتفع هناك، حيث كان يقف قائد الروم يصدر أوامره ويحرض جيشه، هنا هزت الحمية نفوس المسلمين، ودب الذعر في قلوب الروم، فأدرك المسلمون أنه النصر، فشدوا شدة رجل واحد، وانتهى كل شيء لصالح المسلمين.

- عبرة

يا شباب، إن ما قام به عبد الله بن الزبير رضي الله عنه يعتبر في غاية الشجاعة والجسارة، حيث اخترق صفوف الروم، ثم هاجم على قائدهم بين أيديهم فقتله وهم يشاهدون مشدوهين وقد ملأ الرعب قلوبهم.

لقد كان ما قام به ابن الزبير نوعًا من الطموح نحو المعالي المحفوفة بالأهوال، بدون تدرج سابق، لقد كان عمره آنذاك سبعًا وعشرين سنة، ولم يُذكر له قبل ذلك مواقف بطولية من نوع المغامرات، فكيف أقدم على هذه المغامرة الهائلة التي يغلب على الظن أو يكاد يقرب من اليقين في عرف الناس العاديين أن فيها الهلاك؟!

إن الاحتمالات التي يمكن أن ترد في مثل هذه المغامرة أن يدور في خلد المغامر أمران: أن ينجح

في هجومه فيقضي على قائد الروم، ويتفرق جنده كما هي عادة العدو، وفي ذلك نصر مؤزر للمسلمين، وكفاية لهم عن خوض معركة شرس قد تخوَف منها المسلمون.

ثانيًا: أن يتقبله الله شهيدًا، وفي ذلك الوصول إلى أسمى الأماني، وأبلغ الدرجات التي يطمح إليها الأبطال ويتنافسون على بلوغها، كما أن في ذلك من تخويف العدو وإثارة الرعب فيهم الشيء الكثير، حيث سيتوقع العدو أن المسلمين الذي سيقاتلونهم كلهم من هذا النوع الجريء الفتاك، إذ أنه يكفي المغامر شجاعة أن يقذف بنفسه في أتون المعركة الملتهب.

يا سادة، إنه لا يُقدم على هذه الوثبة العالية إلا العظماء الذين يتصورون الجنة من وراء تلك الوثبة فيتخيلون أنهم يثبون إليها، ولقد كان ابن الزبير وهو يثب تلك الوثبة متجردًا من علائق الدنيا وأثقالها المثبطة طامحًا بتصوراته إلى ما أعده الله تعالى للمجاهدين في سبيله على قدر طاقتهم سواء انتصروا على أعدائهم أو نالوا الشهادة.

نالت الرضوان

المرأة المسلمة في صدر الإسلام لم تكن أقل ثباتًا في دينها من الرجال، ولا أقل تضحية وبذلًا في سبيل عقيدتها وربها، فقد ضربت أروع الأمثلة في هذا المجال، إذ ضحت من أجل إسلامها بكل ما تملك، مستهينة بكل ما يصيبها من أذى في سبيل ربها، متحملة عبء الدعوة، وشظف العيش، ولعلك أيها القارئ الكريم قد نزع بك الشوق إلى سماع طرف من أخبار بطولات وتضحيات الصحابيات من أجل الإسلام، والوقوف على بعض عجائبهم، فإليكم هذا الموقف الأسطوري كما جاء في كتب السير والتراجم.

كانت الهجرة، وهي حادث هينْ في ذاته، رجلان خرجا من مكة إلى يثرب، يخرج مثلهما كثيرٌ كل يوم من كل بلد، من يوم خلق الله الدنيا حتى يأذن في خرابها، ولكنه عظيم في نتائجه، لأنه لم يكن سفرًا من بلد إلى بلد، بل انتقال الإسلام من طور الدعوة إلى طور الدولة، من طور الإسرار والضعف والاضطهاد، إلى طور الإعلان والقوة، وما كان لمحمد ﷺ موكب تخفق فيه الرايات، وتقرع أمامه الطبول، ما كان في موكبه إلا هو وصاحبه والدليل، كان موكب تهرب فيه البشرية من ماضي أسود، إلى مستقبل منير بالعلم والحضارة والإيمان.

موكب كان فيه رجلان وامرأة، نابت عن النساء حين مثلتهن في هذا الموقف الأعظم في تاريخ البشر، امرأة لم تقطع الطريق كله معهما، ولكن أمدتهما بالطعام والزاد، وكذلك تصنع المرأة المؤمنة، إذا لم تصل مع الرجل إلى كل ميدان وصل إليه، فإن لها الفضل في إمداده وعونه فلولا المرأة ما استطاع الرجال خوض هذه الغمرات.

كانت أحداث الهجرة النبوية بداية أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه بداية خيِّرة طيبة وضيئة، ولعل شهرتها قد طارت في الأفق من ذلك اليوم العظيم، وكانت ما تزال فتاة حديثة السن، لقد أعجل الرسول القائد ﷺ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه عن ابتغاء الزاد، وشغلهما الغرض الأسمى عن الغرض الأدنى، فسارا خفيفين إلى غار جبل ثور إخفاء لأمرهما، فكانت أسماء تمسيهما كل ليلة بالزاد والماء، وبما عسى أن تكون قد رأته أو سمعته من أخبار قريش.

ثلاثة أميال تقريبًا كانت تقطعها هذه الصبية الجريئة في جوف الليل، ووحشة الطريق ماشية متخفية حذرة مترقبة حتى تصعد إلى هامة الجبل بين الصخور، وهي حامل بابنها عبد الله، ثم تنحدر في جوفه فتوافي رسول الله ووالدها بالزاد والأخبار.

نعم لقد اقتحمت هذه الفاضلة الباسلة ذلك الطريق المروع الطويل ثلاث ليال سويًا، وفي الليلة الثالثة، وهي التي أزمع فيها المهاجران على مفارقة الغار إلى عرين الأنصار في المدينة، وافتهما بزاد السفر فلما أذن رسول الله ﷺ بالرحيل نهضت لتعلق سفرة الزاد، فإذا ليس لها رباط فلم تجد ما تعصمها به إلا نطاقها، فخرجت فشقته نصفين فعصمت السفرة بنصفه، ووكات السقاء بباقيه، ومنذ ذلك اليوم سميت بذات الناطقين، وأبدلها الله عز وجل بنطاقها ذلك نطاقين في الجنة لقوله ﷺ: «قد أبدلك الله بنطاقك هذا نطاقين في الجنة».

- عبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات، إن عمل أسماء هذا يعجز عنه الرجل الشجاع لما فيه من مخاطر

وظلمة ووحشة، ولما يحتاجه من جرأة، وثبت قلب، وقوة أعصاب، وتحكم بالمشاعر، ولم تتوقف شجاعة أسماء عند هذا المقدار فحسب، للإنسان أن يتصور مدى صبرها، وتحملها للمشقة إذ كانت حاملًا، كل هذا في هزيع الليل، وهي تحمل طعامًا، وتسلك الطريق الطويلة الوعرة، وتصعد جبلًا لتصل إلى الغار، كانت تجتاز كل هذه المخاطر، وعيون المشركين تتابعها، ولكن عناية الله سبحانه هي التي كانت تحفظها.

يا أيتها الأخوات الكريمات، لقد كانت الصحابيات رضي الله عنهن خير مثال للمرأة المسلمة سواءً في البيت أو في المجتمع، أو وفي ساحات الحرب أو أوقات السلم، فامتنعت الصحابية عن أمور، وأكدت أمورًا أخرى، وقامت بأمور لم تكن موجودة من قبل كالجهاد، والدعوة إلى الله، مما جعلها متفوقة على غيرها في الأمم الأخرى في تجسيد كل ذلك بأعمالها.

العجوز المجاهدة

إن مواقف الشجاعة وقصص البطولة في تاريخنا للصحابيات رضي الله عنهن كثيرة ومشرفة، ولقد كان لهن تاريخ حافل بالإنجازات والبطولات، لقد استطعن أن يسطرن في تاريخ الإسلامي بحبر من الإيمان المغسول بماء الذهب مواقف بطولة لم يصل إليها الكثير من الرجال، ونساء الصحابة في القمة من نساء الأمم الأخرى، فلقد كانت كل صحابية بمثابة زهرة نبتت في حقل الإسلام فلما جاءت سحابة الإيمان وسكبت ماءها في هذا الحقل؛ إذا بتلك الزهرة النقية التقية تتغذى من خلال النبعين الصافيين كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وإذا بها تنشر عطرها وشذى عبيرها ليملأ الكون كله بعطر الإيمان والتوحيد.

فأولئك هن الأمهات اللواتي ابتهج بزغ فجر الإسلام بهن، وسمت بهن عظمته، وصرعت بقوتهن قوته، وعنهن ذاعت مكارمه، ورسخت قوائمه، وهكذا كانت الأم في عصور الإسلام الزاهية، فتعالوا بنا لنعيش سويًا في رحاب هذا البستان اليانع زهوره، لأسطورة البطولة والشجاعة والفداء صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنه .

لن ينس أحد موقف صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنه يوم الخندق هذا الموقفٌ العجيب والغريب، فإليك خبرها كما جاء في كتب التاريخ:

كان من عادة الرسول القائد ﷺ إذا عزم على غزوة من الغزوات أن يضع النساء والذراري في الحصون، خشية أن يغدر بالمدينة غادرٌ في غيبة حُماتِها، فلما كان يوم الخندق جعل نساءَه وعمّته معهم، وطائفة من نساء المسلمين، في حصنٍ لحسان بن ثابت رضي الله عنه ، ورِثه عن آبائه، وكان من أكثر حصون المدينة مناعة، وأبعدها منالًا.

وبينما كان المسلمون يرابطون على حوافِّ الخندق، في مواجهة قريش وأحلافها، وقد شغلوا عن النساء والذراري بمنازلة العدو، أبصرت صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنه شبحًا يتحرك في عتمة الفجر، فأرهفت له السمع، وأحدَّتْ إليه البصر، فإذا هو يهوديٌّ أقبل على الحصن، وجعل يَطوف به، متحسسًا أخباره، متجسسًا على من فيه، فأدركت أنه عينٌ لبني قومه، جاء ليعلم أفي الحصن رجالٌ يدافعون عن من فيه، أم أنه لا يضم بين جدرانه إلا النساء والأطفال؟!

فإذا علم هذا اليهودي المتحسس للأخبار أن هذا الحصن لا يضم إلا نساء وأطفالًا، داهموا هذا الحصن، وسبوْا النساء والذراري، فقد نقضوا عهدهم مع الرسول القائد ﷺ، وانتهى الأمر، وصاروا في صف الأعداء من قريش وأحلافها.

فقالت في نفسها: «إن يهود بني قريظة قد نقضوا ما بينهم وما بين رسول الله من عهدٍ، وظاهروا قريشًا وأحلافها على المسلمين، وليس بيننا وبينهم أحدٌ من المسلمين يدفعون عنا، ورسول الله ﷺ ومن معه مرابطون على الثغور لموجهة العدو، فإن استطاع عدو الله، هذا اليهودي أن ينقل إلى قومه حقيقة أمرنا سبَى اليهود النساء، واسترقوا الذراري، وكانت الطامة الكبرى على المسلمين».

عند ذلك بادرت إلى خمارها، فلفته على رأسها، وعمدت إلى ثيابها فشدَّتها على وسطها، وأخذت عمودًا على عاتقها، ونزلت إلى باب الحصن، فشقته في أناةٍ وحذقٍ، وجعلت ترقب من خلاله

عدو الله في يقظةٍ وحذر، حتى إذا أيقنت أنه غدا في موقفٍ يُمَكنها منه، حملت عليه حملة حازمة صارمة، وضربته بالعمود على رأسه، فطرحته أرضًا، ثم عززت الضربة الأولى بثانية وثالثة، حتى أجهزت عليه، وأخمدت أنفاسه بين جنبيه، وبادرت إليه، فاحتزت رأسه بسكين كانت معها، وقذفت بالرأس من أعلى الحصن، فطفق يتدحرج على سفوحه، حتى استقر بين أيدي اليهود، الذين كانوا يتربَّصون في أسفله، فلما رأى اليهود رأس صاحبهم، قال بعضهم لبعضٍ: «قد علمنا أن محمدًا لم يكن ليترك النساء والأطفال وحدهم، من غير حماةٍ، ثم عادوا أدراجهم».

- عبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات، لقد أجرى اللهُ على يديها حفظ نساء المسلمين، وسلامتهنّ بهذه الشجاعة النادرة، رضي الله عن صفية بنت عبد المطلب، فقد كانت مثلًا فذًا للمرأة المسلمة، ربَّت وحيدها فأحكمت تربيته، أصيبت بشقيقها في أُحُد، فأحسنت الصبر عليه، اختبرها الله في الشدائد، فوجد فيها المرأة الحازمة العاقلة الباسلة، إن صفية بنت عبد المطلب كانت أول امرأة قتلت مشركًا في الإسلام، هذه بطولة، وهذا موقف عظيم للمرأة في الستين من عمرها كانت في أعلى درجات إيمانها، وأعلى درجات محبَّتها لدين الله، ولرسول الله، وأعلى درجات دفاعها عن هذا الدين العظيم.

يا أيتها الأخوات المؤمنات، إن المحنة هي التي تمحص القلوب، وتكشف ما في الصدور من إيمان أو كفر، وقد يتزلزل المؤمن لكنه لا يفقد إيمانه، قد يفقد موقفه، وقد يفقد شجاعته وثباته، لكن إيمانه لا يتزلزل أبدًا، أما ضعيف الإيمان فينهار إيمانه أمام الأحداث، وأما المنافق المتجلب بجلباب الإسلام حين يكشف الغطاء، ويرى أن دولة الإيمان على وشك الزوال كما يبدو له، فيكشف هنا عن خبيئة نفسه، ويظهر نتن قلبه، ويعلن شكه بدينه ونبيه وربه، وهؤلاء لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم في الدنيا والآخرة.

امرأة بألف رجل

إن نساء الصحابة لم يدعن لرجالهن خلة يستأثرون بها دونهن، ولم يتركن سبيلًا للخير من سبل العظائم، ولا مشرفًا من مشارف المكارم، إلا وكن من السابقات إليه، حتى جاذبن الرجال حبل البطولة، واصطلين بنيران الحرب، وأبدعن في ساحات الوغى حين دعت الحاجة لذلك، فهذه أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية رضي الله عنه كانت لها السبق إلى ساحة الإيمان والفداء، والجهاد في سبيل الله، فتعالوا بنا لنعيش سويًا بقلوبنا هذا المشهد الأسطوري لهذه الصحابية الجليلة.

لم يهدأ بال قريش منذ ما غشيها في بدر الكبرى من قتل صناديد المشركون في المعركة، وكان ما جد من الحوادث بعد بدر لا يزيد أحقادها إلا ضرامًا، فلما استدارت السنة، كانت مكة استكملت عدتها، واجتمع إليها أحلافها من المشركين، وانضم إليهم كل ناقم على الإسلام وأهله ورسوله، فخرج الجيش الثائر في عدد يربو على ثلاثة آلاف مقاتل، ورأى صخر بن حرب أبو سفيان قائده أن يستصحب النساء معه، حتى يكون ذلك أبلغُ في استماتة الرجال دون أن تصاب حرماتهم وأعراضهم.

خرج الجيش الإسلامي لملاقاة قوات المشركين، وعسكروا بالشعب من أُحُد، وخرجت أم عمارة نسيبة بنت كعب رضي الله عنه إلى أُحُد تحمل سقاءها، لتروي ظمأ المجاهدين في سبيل الله، ومعها لفائفُ لتُضمد جراحهُمْ، ولا عجب فقد كان لها في المعركة زوْجٌ وثلاثة أفئدة: هم زوجها زيد بن عاصم رضي الله عنه ، والرسول القائد ﷺ، وولداها حبيبٌ وعبدُ الله ابنا زيد بن عاصم رضي الله عنهم أجمعين، وذلك بالإضافة إلى إخوتها من المسلمين المدافعين عن دين الله عز وجل المنافحين عن رسول الله ﷺ، وقبل كل ذلك دينها الذي آمنت به.

بدأ القتال الدامي، وكانت النصرة لجند الله الموحدين، وبدأ المسلمون في جمع الغنائم، وإذا بالرماة يتركون مواقعهم هابطين إلى الميدان، فاغتنم المشركون الفرصة، وجاءوا من الخلف، وهجموا على المسلمين، وقتلوا عددًا كبيرًا منهم، ثم بحثوا عن الرسول القائد ﷺ يريدون قتله.

لقد رأت أم عمارة رضي الله عنه بعينيها كيف تحول نصر المسلمين إلى هزيمة كبرى، ورأت كيف أخذ القتل يشتد في صفوف المسلمين فيتساقطون على أرض المعركة شهيدًا إثْر شهيد، وكيف زلزلت الأقْدام، فتفرق الرجال عن رسول الله ﷺ، حتى لم يبق معه إلا عشرة أو نحو من عشرة، عند ذلك ألقت أم عمارة سقاءها، وانبرت إلى المعركة كالنمرة التي قُصد أشبالها بِشر.

لنترك هنا الحديث لأُم عمارة رضي الله عنه لنعيش معها هذه اللحظات الحاسمات في المعركة، فليس كمثلها من يستطيع تصويرها بدقة وصدق، تقول: «لما انكشف المسلمون عن رسول الله ﷺ، فما بقي إلا نفر قليل ما يزيدون على العشرة، فملت إليه أنا وابني وزوْجي، وأحطنا به إحاطة السوار بالمعصم، وجعلنا نذُود عنه بسائر ما نملكه من قوة وسلاح».

ورآني الرسول الكريم صلوات ربي وسلامه عليه ولا ترس معي أقي به نفسي من ضربات المشركين، ثم أبصر رجُلًا مُوليًا، ومعه ترسٌ فقال له: «ألق تُرسك إلى من يقاتل»، فألقى الرجل ترسه ومضى، فأخذته وجعلت أترس به عن الرسول ﷺ، وما زلت أُضاربُ عن النبي ﷺ بالسيف،

وأرمي دونه بالقوس حتى أعجزتني الجراح.

وفيما نحن كذلك أقبل ابن قمئة كالجمل الهائج وهو يصيح: «أين محمدٌ؟، دلوني على محمدٌ، لا نجوتُ إن نجا»، فاعترضْت سبيله أنا ومصعب بن عمير، فصرع مصعبًا بسيفه، وأرداه قتيلًا، ثم ضربني ضربة خلقت في عاتقي جُرحًا غائرًا، فضربته على ذلك ضربات، ولكن عدو الله كان عليه درعان.

- عبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات، ما قامت به أم عمارة نسيبة بنت كعب رضي الله عنه من التحول عن أداء مهامها كامرأة إلى أداء مهام الرجال الجهادية، وذلك حينما وقعت الإصابة على المسلمين، وأُفرد النبي ﷺ في نفر من أصحابه، فرأت أم عمارة أن واجبها آنذاك أكبر من تقديم الخدمات المساعدة، فباشرت قتال المشركين دفاعًا عن رسول الله ﷺ، وحصل منها ما ذكر في هذه الموقف من التصدي للأعداء، والمشاركة في رد هجماتهم.

يا أيتها الأخوات الكريمات، هكذا لم تخف ربيبة الإسلام، وبنت الإيمان من الضرب أو الطعان، بل أقبلت ثائرة عازمة على أن تبذل كل طاقتها في سبيل دينها وحريتها، وكرامة أمتها، فقابلت ضربة العتل الأثيم بضربات لها قوتها وشدتها، ولكن اللعين كان قد حصن جسمه، فوضع عليه درعين لا درعًا واحدة، ونسيت أم عمارة حينئذ كل شيء إلا أنها في ميدان يحتاج إلى وفاء وفداء، فمضت تطعن وتضرب، حتى قال فيها رسول الله ﷺ: «ما التفتُّ يمينًا ولا شمالًا إلا رأيت أمَ عُمارة تقاتل دوني».

يا سادة، المرأة إذا انحرفت عن الطريق المستقيم، انحرف بانحرافها المجتمع، وإذا استقامت على طريق الله استقام المجتمع كله، فليس هناك من يقدر على تطويق أعاظم الرجال إلا النساء، وإن وراء كل رجل عظيم امرأة عظيمة، وبالفعل كانت نساء الصحابة العمود الفقري لنجاح أزواجهن وأولادهن.

امرأة أيقظت أمة

المرأة المسلمة في التاريخ الإسلامي لم تكن أقل ثباتًا في دينها من الرجال، ولا أقل تضحية وبذلًا في سبيل عقيدتها ووطنها ودينها، فقد ضربت أروع الأمثلة في هذا المجال، إذ ضحت من أجل إسلامها بكل ما تملك، مستهينة بكل ما يصيبها من أذى متحملة عبء الدفاع عن الأوطان ، ونحن في هذه السطور مع نموذج رائع للمرأة المسلمة التي بذلت أغلى ما تملك دفاعًا عن بلاد الإسلام، فتعالوا بنا لنستمتع بخبر هذه الفتاة الدمشقية المجاهدة.

لما اكتسح الإعصار الصليبي ممالك الإسلام واحتلوا مدينة أنطاكيا العريقة بعد حصار دام سبعة شهور فقام الصليبيين بذبح أهلها جميعًا وكانت مأساة كبرى، وفي وسط كل تلك التفاصيل المحبطة تطل علينا قصة الفتاة الدمشقية ميسون والتي تترك أكبر الأثر في نفس كل من تعرف على ملابسات موقفها الإيماني تجاه ما كانت الأمة تواجهه من مأساة، وامتثالها لأوامر الله عز وجل، وانتمائها للإسلام، على النقيض من الذين يتقاعسون عن ذلك، وفقًا لما ورد عنهم في القرآن الكريم إذ يقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ} (التوبة: ٣٨).

من خلال الآية الكريمة يوجه الله سبحانه وتعالى اللوم الشديد للمؤمنين لعدم امتثالهم للأمر الإلهي بالخروج لنصرة دين الله والجهاد في سبيله، وإنما التصقوا بالأرض ورضوا بعيشتهم على ما كانت عليه من ذل وظلم وقاهر.

وتعد ميسون الدمشقية إحدى المؤمنات اللاتي لم تلتصقن بالأرض، فقد كان لتك الفتاة الدمشقية أربعة أشقاء كانوا ضمن مجموعة من المجاهدين الذين خرجوا من دمشق ضمن الجيش المكلف بحماية أنطاكيا واستشهدوا كلهم عن بكرة أبيهم أثناء القتال.

ذهب الناس لتعزية ميسون في أشقائها الأربعة، وكان أبوها وأمها قد توفيا قبل ذلك بقليل، وبالتالي أصبحت الفتاة بلا عائل، وعندما أجهشت النساء في البكاء، كان لدى ميسون رسالة أبى ضميرها إلا وأن تبلغها لذوات جنسها فوقفت لتقول لهن: «يا أخوات إن كنتن قد جئتن لتعزيتي في أشقائي فارحلن، وإن كان بكاؤكن وعزاؤكن على ضياع الأمة وبلاد الإسلام ففكرن معي فيما يمكننا أن نقدمه لأمتنا ولأهلنا وديارنا!».

لم يكن لدى ميسون المال الذي تستطيع أن تتبرع به للمجاهدين، ومع ذلك فلم تتردد لحظة واحدة في تقديم أغلى ما عند المرأة من زينة، فقد قامت ميسون بقص شعرها وقالت للنساء: «نحن معشر النساء لا قبل لنا على الحرب ولا الخروج للجهاد، ولكن ما زال بوسعنا توفير الحبال التي يستخدمها المجاهدون لربط الخيول»، وطلبت ميسون من الحاضرات أن يقدمن ما هو في استطاعتهن، فأقدم الكثير من النساء على قص شعرهن.

وهكذا تكون المرأة المسلمة قد قصت شعرها على سبيل إتيان ما هو بوسعها لرفعة شأن دينها، وتكون بذلك مثالًا لكل منا لتقديم كل ما يملك لنصرة دينه.

ثم ذهبت ميسون لإمام المسجد الأموي في دمشق المؤرخ سبط بن الجوزي، وقالت له: «ليس باستطاعتنا نحن نساء الإسلام أن نقدم أكثر من ذلك فانظر ما بوسع الرجال أن يقدموا».

وما كان من ابن الجوزي إلا أن خطب خطبة في جامع دمشق قال فيها: «يا أيها الرجال، هل أنتم أحياء أم صرتم أمواتًا؟ أرض المسلمين قد سبلت بعد أن دفع صحابة رسول الله ﷺ دماءهم ثمنًا لها، أو تضيع الأرض؛ وينتهك الدين؛ وتستباحُ الأعراضُ؟

فإن ضاعت الأرض فباسم الإسلام أدعوكم، فإن لم تقوموا باسم الإسلام فباسم الإنسانية أدعوكم، فإن لم تقوموا باسم الإنسانية فليكن باسم العروبة إذن بالله عليكم، لقد تحركت النسوة وقدمن شعورهن حبالًا لكم فتحركوا حتى تكون النهضة والعودة والأوبة إلى دين الله».

- عبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات، هذه السيدة مثلٌ رائع للمرأة المسلمة التي تسلحت بالحزم والعزم طول حياتها، وتحلت بالصبر والمثابرة في أشد الأزمات، وأحلك الملمات، وتصرفت في شؤون دنياها تبعًا لما يقضي به دينها الحنيف، وكانت على الحق الذي عرفته من القرآن والسنة لا تحيد عنه قيد أنملة، ولا تتخلى عن أهله حتى لقيت ربها؛ ف. رضي الله عنه وأرضاها، وأسكنها ربي مع النبين والصديقين والشهداء والصالحين.

يا أيتها الأخوات الكريمات، إن اقتفاء للموقف الإيماني للفتاة الدمشقية ميسون، تلح علينا الحاجة لمراجعة أنفسنا بغرض الإقبال على عمل صغيرًا كان أو كبيرًا، يكون من شأنه المساعدة في نهوض الأمة، وليكن ذلك العمل في محيط الأسرة، أو المجتمع، فالمهم أن يصب في صالح المسلمين، ورغم صعوبة المهمة إلا أن الأمل معقود على أن ينجح الكثير منا كما نجحت ميسون في مساعدة الأمة ولو بشيء بسيط، فبقدر ما كانت وحدة الأمة مهمة بقدر ما كان أي جهد فردي على بساطته له تأثيره في الوصول إلى الوحدة المنشودة.

بطولة امرأة

لم يكن الجهاد في الإسلام مقصورًا على الرجال، ولكنه كان فريضة على الرجال والنساء معًا إذا استدعى الأمر ذلك، وحتمت الضرورة خوضهن المعارك؛ أو وقوفهن خلف من يجاهد؛ فنصرة الإسلام ضرورة تتطلب حشد كل الطاقات في المعارك الحاسمة التي يخوضها الأبطال في عزة وإباء من أجل حفظ الدين وحماية الأنفس وصيانة الأعراض والحرمات، ونحن يطيب لنا أن نتكلم عن امرأة من التابعيات كان لها في البطولة شأن عظيم؛ فقد أظهرت في الحرب شجاعة نادرة أذهلت قواد الحرب؛ وفرسان القتال، وأضحت فيها مضرب الأمثال، إنها بطلة فتوح أرمينيا أم عبيد الله بنت يزيد الكلبية رضي الله عنه .

لعلك أيها القارئ الكريم قد نزع بك الشوق إلى سماع طرف من أخبار هذا الفارسة الشجاعة، والوقوف على بعض عجائبها؛ فإليكم شيئًا منها كما جاءت في كتب السير والتراجم، فتعالوا بنا لنعيش سويًا في هذه السطور مع هذا الموقف الرائع، والبطولة النادرة.

في عام ٣١هجرية أرسل عثمان بن عفان جيش بقيادة حبيب بن مسلمة الفهري لفتح أرمينيا، والتقى جيش المسلمين الذي لا يتجاوز الثمانية آلاف مع جيش الروم الذي تجاوز الثمانين ألف عند منطقة قليقلا، وقبل أن تبدأ المعركة، وقف حبيب بن مسلمة يحمس الجيش، ويحثهم على الجهاد والاستشهاد في سبيل الله، ويطلب منهم دك معاقل الروم.

وأثناء حديثه خرجت له زوجته أم عبيد الله بنت يزيد الكلبية رضي الله عنها ، وكانت قد ارتدت ملابس الحرب، فقد كانت جنديه ضمن هذا الجيش، وكانت دائمًا ما تجاهد في صفوف المسلمين الأولى.

وحينما كان حبيب يحمس جند الله، إذا بزوجته تسأله سؤالٌ، فقد قالت له: «يا حبيب، أين ألقاك إذا حمي الوطيس، وماجت الصفوف؟!»،

فأجابها قائلا: «تجديني بإذن الله في خيمة الموريان قائد الروم، أو في الجنة».

بدأت المعركة الشرسة؛ وأبلى المسلمون فيها بلاءً حسنًا، وفي الليل حمي وطيس المعركة أكثر وقاتل حبيب ومن معه ببسالة منقطعة النظير، وافترق حبيب عن زوجته؛ وحقق انتصارًا عظيمًا على جموع الروم.

ثم انطلق رضي الله عنه مسرعًا نحو خيمة قائد الروم ليعلن النصر منها؛ وينتظر زوجته كما وعدها، وما أن وصل حبيب إلى الخيمة حتى كانت المفاجأة حيث وجد فارسًا ملثمًا قد سبقه إلى الخيمة، وعندما اقترب منه وكشف عنه اللثام إذا بها زوجته قد سبقته قبل أن يسبقها؛ وانتظرته قبل أن ينتظرها.

- عبرة

يا سادة، لقد عبَر حبيب رضي الله عنه عن النصر على الأعداء بالوصول إلى خيمة الموريان قائد الروم باعتبار أن الوصول إلى مقر القائد يعني هزيمة الأعداء، وقد جعل لزوجته موعدًا في الدنيا إن انتصروا على الأعداء، وهو اللقاء في مقر قيادة جيش الأعداء، وجعل لها موعدًا في الآخرة إن

ظفر بالشهادة، وهو اللقاء في الجنة، وهذا دليل واضح على أن من صفات الجيل الرباني أنهم يجعلون هدفهم إحدى الحسنيين، إما النصر على الأعداء، وإما الظفر بالشهادة في سبيل الله.

وما قام به حبيب بن مسلمة دليل على براعته في التخطيط؛ حيث فاجأ الأعداء بذلك الهجوم الليلي المباغت، وهذا مثل على تفوق المسلمين الحربي، ولم يكن الأعداء على مستوى المسلمين في الحذر والرصد الحربي، فلذلك وقع الروم في الفشل وانهزموا رغم التفوق العددي الكاسح.

يا أيتها الأخوات الكريمات، لقد كانت أم عبيد الله امرأة حبيب بن مسلمة رضي الله عنه مثالًا للمرأة المؤمنة الشاعرة بمسئوليتها أمام زوجها، وأمام واجبها نحو أمتها؛ فقد كانت مشاركة لزوجها في مشاعره وأفكاره وتخطيطه في أهم عمل يقوم به في حياته، وهو جهاد الأعداء، ولا شك أن سؤالها عن موعد اللقاء، وجواب حبيب لها يدلان على مشاركة سابقة في تصور طموحاته ومراحل عمله، وإذا كانت المرأة ذات كفاءة، وشاركت زوجها في المشورة والتشجيع والمؤازرة فإن إنتاج زوجها يكون مضاعفًا؛ لأنه سيعيش في نطاق عمله ليل نهار.

يا أيتها الأخوات المؤمنات، إذا كانت المرأة وهي التي تتصف عادة باللين السلامة والبعد عن المخاطر، وإذا كانت هي التي تدفع بزوجها كهذه المرأة إلى اقتحام الأهوال والدخول في المغامرات، فإنها امرأة عظيمة حقًا، ولا شك أن زوجها سيكون مندفعًا لذلك بطاقته المعتادة، مضافًا إليها ما ناله من تأييد وتشجيع من الجانب الذي ينتظر منه ضد ذلك.

ولقد كانت هذا المرأة عظيمة حقًا حينما لم تكتف بتشجيع زوجها ودفعه إلى بذل كل ما يملك من جهد في النجاح، بل غامرت بنفسها حتى سبقت زوجها إلى خيمة القائد، وهكذا يجب أن تكون المرأة المسلمة المؤمنة فهي تقف مع زوجها في تحقيق أحلامه، بل يجب عليها أن تشاركه في ذلك أن قدرت على ذلك.

نهاية الطاغية

إن الحديث عن شجاعة أبطال الإسلام قديمًا وحديثًا لا تكفيه صفحات وإنما يحتاج ذلك إلى المجلدات الكبيرة، فمن أشجع قلوبًا من هؤلاء العظماء المجاهدين؟! فهم الذين وقفوا في وجوه الباطل، وكسروا شوكة الطاغين وأذلوا جبروت الأعداء، وأقاموا للإسلام دولة خالدة وسط دنيا تموج بالطاغين والكفر والضلال لقد صمدوا صمود الجبال الراسيات، وواجهوا أعتى الأمم، وأشجع الرجال فخضع لهم وأذعنوا، وانقادوا مستسلمين لهم، وهكذا يفعل الإيمان في قلوب أصحابه.

ونحن الآن مع نموذج رائع من نماذج عمالقة الإسلام المغاوير البواسل، إنه بطل عين جالوت المغوار جمال الدين آقوش الشمسي رحمه الله قاتل الطاغية كتبغا نوين، فتعالوا بنا لنتقرب في غبطة من معركة عين جالوت لنرى هذا المشهد البطولي الخالد.

في معركة سهل عين جالوت الخالدة، وعندما أصبحت معركة سهل عين جالوت في أعنف مرحلة للقتال، وقد بدأت الكفة بفضل الله تميل لصالح المسلمين؛ وارتد الضغط على جيش التتري، وأطبق المسلمون الدائرة تدريجيًا على التتار.

في هذه الأثناء تقدم أمير من أمراء المماليك المهرة في القتال وهو جمال الدين آقوش الشمسي، وهو من مماليك الناصر يوسف الأيوبي أمير حلب ودمشق، وقد ترك الناصر لما رأى تخاذله أمام التتار، وانضم إلى جيش الإسلامي، وأبلى بلاءً حسنًا في القتال، واخترق الصفوف التترية في حملة صادقة موفقة حتى وصل في اختراقه إلى كتبغا قائد التتار.

ورفع البطل المسلم سيفه، وأهوى بكل قوته على رقبة الطاغية المتكبر كتبغا، وطار الرأس المتكبر الذي سفك دماء الآلاف من المسلمين منذ اجتياح التتار لأرض الإسلام، وقد سقط قائد التتار، وبسقوطه سقطت كل عزيمة عند جيش التتار، وتغير سيناريو القتال عند التتار، فما أصبح لهم من هَمٍّ إلا أن يفتحوا لأنفسهم طريقًا في المدخل الشمإلى لسهل عين جالوت ليتمكنوا من الهرب، وانطلق المسلمون خلف التتار، يقتلون فريقًا ويأسرون فريقًا.

وسقطت جحافل التتار تحت أقدام المسلمين صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، ضاعت السمعة الرهيبة، وسقطت الهيبة، ومُزّق الجيش الرهيب.

- عبرة

يا سادة، إن المجاهد في سبيل الله عز وجل يتحصل له بجهاده تزكية كريمةَ لنفسه، تدخله على ربه، وتدنيه منه، وتقربه إليه، وتصيره محبوبًا له، فيمنحه الله عز وجل كمالًا بشريًا مشتقًا من مقتضى الكمال الإلهي، فإذا كانت مقومات الإبداع الجهادي القدرة والقوة، والعزة والمال، والحياة والقيام بتكاليف الجهاد، فإن الله بفضله ومنه يسريل المجاهد بما أراد فيكسبه قدرة من قدرته، فإنه القادر، وقوة من قوته، فإنه القوي، وعزة من عزته، فإنه العزيز، ورزقًا من خزائنه، فإنه الغني، وحياة جليلة، فإنه الحيّ، وقيامًا جريئًا بأمر الله دون خشية لائم، وذلك من قيومته، فإنه القيوم.

أمير حلب المجاهد

لله رجال ارتسمت على وجوههم سمات العزة والعفةَ والشرف، وانساقت إليهم المفاخرة من قرونها، ولم تكن لهم أنساب ولا أحساب ولا أموال يتفاخرون بها، ولكن أُعزهم الإسلام بعزه الذي لا يرام، وانعكس نور الإيمان من قلوبهم النقيةَ على وجوههم فزانها وإن لم تكن ذات جمال، وظهرت مآثرهم للناس واضحةَ جليةَ فشهدوا لهم بها، وأحبوهم من أجلها، وخلد التاريخ ذكراهم فكانوا بعد موتهم أحياء يذكرهم الأخيار في مجالسهم كلما جد الجد واحتاجوا إلى القدوة، فالأواخر يكملون ما بناه الأوائل من صروح المجد والشرف، إذا ما أحسنوا القدوة، وأخلصوا النيةَ، وصدقوا الله في القول والعمل، وفي تاريخنا الكثير من هؤلاء الرجال الإفذاذ.

وحينما نعود إلى الماضي المجيد لنستلهم منه الدروس والعبر في هذا الحاضر العاثر، عودًا لسيرة رجلٌ من أبطال الأمة العظائم، رجلٌ لا يعرف عنه الكثير من أبناء الأمة شيئًا، لكنه بطل مغوار قام بتضحيات عظيمة من أجل الأمة، إنه البطل المقدام الأمير سوار الحلبي رحمه الله، قاهر التحالف الصليبي البيزنطي أمام أسوار حلب، فتعالوا بنا لنعيش سويًا مع هذه البطولة النادرة.

نزلت قوات التحالف النصراني البيزنطية والصليبية حول أسوار مدينة حلب عاصمة عماد الدين زنكي رحمه الله في ٦ شعبان سنة ٥٣٢ هجرية، وكان على رأس المدينة المجاهد الأمير سوار الحلبي نائب زنكي على مدينة حلب، وقد فوجئت القوات النصرانية بالاستحكامات العسكرية القوية التي جهزها الجيش المسلم هناك؛ فالخنادق كثيرة وعميقة، والأسوار عالية وسميكة، والجيش المسلم متحفز، والسهام تنهل على الجيوش النصرانية من كل مكان مما منع التحالف الصليبي من الاقتراب من المدينة.

لم يكتف البطل سوار رحمه الله بذلك بل أخرج عدة سرايا من الجيش المسلم تقابل بعض الفرق المحاصرة، فأخذتهم على حين غرة، وقتل من الصليبيين والبيزنطيين خلقٌ كثيرٌ، بل إن أحد كبار قساوستهم قتل في أثناء هذه المعارك، مما أزعجهم إزعاجًا شديدًا.

لقد وجد إمبراطور الروم البيزنطيين يوحنا كومين، أن حلب بجيشها وقائدها الشجاع، وتحصيناتها المنيعة حلم بعيد المنال، وهذا دفعه إلى أن يقرر فجأة وبعد ثلاثة أيام فقط من حصار حلب، أن يرفع الحصار تمامًا عن مدينة حلب الباسلة.

ترك الامبراطور البيزنطي حلب يائسًا، واتجه إلى حصن الأثارب غرب حلب، وكانت به حامية إسلامية صغيرة، فآثرت أن تنسحب لأن احتمال هلكتها قريب، وبالتالي امتلك الامبراطور يوحنا كومين حصن الأثارب، ووضع فيه أسرى وسبايا مدينة بزاغة - وهي المدينة التي داخلها وهو في طريقه إلى حلب وقتل معظم سكانها -، الذين كان الامبراطور يستصحبهم معه في طريقه، ثم وضع معهم حامية بيزنطية قوية، وأكمل طريقه غربًا وجنوبًا حيث احتل معرَة النعمان وكفر طاب، ويمَّم وجهه تجاه شيزر.

ورأت الحامية الإسلامية في حلب أن الجيوش التحالف الصليبي قد رحلت عن المدينة، فأرسلوا خلفهم العيون لتعرف مسارهم، وأدرك الأمير سوار الحلبي أن البيزنطيين تركوا الأسرى والسبايا

المسلمين في حصن الأثارب، وتركوا معهم حامية بيزنطية قوية، فانتهز الفرصة، وخرج من حلب مسرعًا في فرقة من جيشه، وحاصر حصن الأثارب، ثم ما لبث أن أسقطه وقتل معظم جنود الحامية البيزنطية وأسر الباقي، وحرَّر كل الأسرى المسلمين، وعاد بهم جميعًا إلى حلب، واستطاع سوار وقائده عماد الدين زنكي بعد ذلك من تحرير المدن التي سقطت في يد الامبراطور يوحنا كومين، وطرد قواته من أرض الإسلام.

- عبرة

يا شباب، لقد عجزت الجيوش العملاقة أن تكسر إرادة المسلمين في حلب، ولعلنا نتذكر صبر الصليبيين على حصار أنطاكية قبل ذلك بأكثر من أربعين عام حيث صبروا على الحصار سبعة أشهر كاملة حتى سقطت المدينة في أيديهم ، أما الآن فالجيوش النصرانية أضعاف الجيوش التي كانت تحاصر أنطاكية ومع ذلك لم يصبروا ، فما السر في ذلك؟!

إن السر لا يكمن في طبيعة الجيوش النصرانية أو أعدادها، إنما يكمن في الأساس في طبيعة الجيش المسلم وقوته؛ فالمسلمون المحاصرون في حلب مختلفون تمام الاختلاف عن المسلمين الذين حاصروا قبل ذلك في أنطاكية أيام الحملة الصليبية الأولى، فقد ظهرت في هذه الأزمة نتيجة التربية الإيمانية والجهادية والعلمية والعسكرية، التي بذل فيها عماد الدين زنكي الأوقات، وسخر من أجلها طاقات الأمراء والعلماء، فأفرزت هذا الجيش المسلم القوي، وهذا الشعب الصابر على المحن.

العلماء الربانيين

التاريخ الإسلامي مليء بسير العظماء والأبطال؛ زاخرٌ بقصص القادة، والزعماء، والعلماء، حافلٌ بأمجادهم؛ مزدحم بكفاحهم، وسير العظماء وأعمال الصالحين والأبطال هي زينة التاريخ وحليته، وهي فوق هذا كله تعلب دورًا مهمًا في حياة الشعوب التي تعيش في ذيل الأمم، وحينما يتحدث التاريخ عن هؤلاء القادة العظماء والأبطال يذكرهم في صفحاته بكل التعظيم والإعزاز، ويتكلم عنهم في سطوره بكل فخر وإكبار؛ ذلك لأنهم لهم مواقف عظيمة وأدوار مجيدة خليقة بأن تذكر في مجال الإعزاز.

فتاريخ الإسلامي حافل بالتضحية والفدائية، لا طعمًا في مال أو جاه أو سلطان، إنما مبعثها الإيمان العميق الصادق النابع من القلب، والحب العميق لله ولرسوله، ونحن في هذه السطور نخط بأيدينا لعملاقين من عمالقة الأمة عاشوا لربهما، وماتوا في سبيل دينهما، فتعالوا بنا لنعيش سويًا هذا المشهد العظيم لهؤلاء العظماء البواسل.

كان من أساليب العبيدين في المغرب الإسلامي مع علماء المالكية وفقهاها الذين أبوا الدخول في مذهبهم، التسلط والتجبر والتعسف الذي لا حدود له، حيث أطلقوا أيدي قضاتهم ودعاتهم في العلماء قتلًا وضربًا وتنكيلًا، - كان ذلك يشبه ما فعله الإسبان مع مسلمي الأندلس في مذابح محاكم التفتيش فيما بعد -، وقد عرف هذا العصر في بلاد المغرب الإسلامي بعصر المحنة المالكية.

وكان من أعنف الشخصيات في تعذيب علماء المالكية عبيد الله بن المهدي بن ميمون الحاكم الأول للعبيدين في بلاد المغرب الإسلامي، فقد كان ميالًا لاستخدام العنف والقسوة لحمل الناس على التشيع، وقد كان سريع الغضب والإثارة، بل كانت الوشاية وحدها كافية لأن تحرك فيه نزوعه إلى القتل، فقد قتل الحسن بن مفرج، وأبا عبيد الله السدري رحمهما الله – وهم من أعظم علماء المالكية - وقد صلبهما لأنهما قدحا في التشيع.

وكذلك فعل مع أبو إسحاق بن البرذون - وهو من أشهر علماء المالكية عبر التاريخ -، وصاحبه أبو بكر بن هذيل - أحد أعلام المالكية -، وقد وشي بهما عند المهدي أنهما قدحا في التشيع، وفي المهدي نفسه، فأصدر أمره بقتلهما، فتم القبض عليهما، وعندما جرد بن هذيل من ملبسه على يد الوزير ابن خنزير عامل المهدي على القيروان، فقال له ابن خنزير: «ترجع عن مذهبك؛ وسأجعلك أغنى الناس».

فقال له ابن هذيل رحمه الله: «هل أترك الإسلام من أجل سيدك أو المال، والله هذا لن يكون؟!»، قال: «إذًا أقتلك»، قال: «افعل ما تشاء»، فقتله بعد أن عذبه أشد العذاب، وكان قد جاء إليه كتاب المهدي، وقد خط فيه: «يدخلان في الدعوة، أو يضربان بالسياط حتى يموتا»، فعرض عليهما ابن خنزير ذلك فقالا له: «والله ما نترك الإسلام أبدًا»، فقال لهما: «قولا للناس ولا تفعلا»، فقالا: «يقتدي بنا الناس فيما نقول إن عذاب الدنيا أيسر من عذاب الآخرة»، ثم قال أبو إسحاق: قول الله تعالى: {فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} (طه: ٧٢)، فقتلا ثم ربط جسداهما بالحبال وجرتهما البغال مكشوفين بالقيروان وصلبا نحو ثلاثة أيام، ثم أنزلا فدفنا.

• عبرة

يا شباب، لا يملك الإنسان أمام هذه المواقف الخالدة التي تقف لها الهَامّ إلا أن يقول: «إنها النفوس المؤمنة يوم تجاهد في سبيل الله، لا في سبيل قول، ولا في سبيل نفس، ولا في سبيل وطن، بل في سبيل الله؛ لتحقيق منهج الله في أرض الله في سبيل الله؛ لتنفيذ شرع الله على عباد الله، ليس لها لنفسها حظ، بل كلها لله الواحد القهار، لا يخافون لومة لائم، وفيما الخوف من لوم الناس، وقد ضمنوا حب وعبودية رب الناس؟ إنما يخشى الناس ولومهم من يستمد حركاته وسكناته ومقاييسه من أهواء الناس، فهو أرضيٌ طينيٌ دونيٌ».

أما من يعود إلى موازين الله ليجعلها فوق كل الموازين فما يبالي بأهواء البشر وشهواتهم وقيمهم، ولا يبالي بما يقولون، ولا بما يفعلون، ولا بما يدعون، إنها سمة المؤمنين المحبين لله ورسوله، الاطمئنان إلى الله يملأ قلوبهم، فهلا أعددت نفسك لتكون من أمثال هؤلاء؟!

فإن الينبوع واحد، وإن المورد واحد، وإن النهر واحد، ما أخذوا منه أنت تأخذ منه، ثبات على المبادئ، وصدق مع الباري، وإخلاص في الظاهر والخافي، سماويون لا أرضيون، ولا دونيون، ولا طينيون، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

يا ضعيف العزم ويا دنيء الهمة أين أنت؟ لا تستطل الطريق، الطريق طريق تعب فيه آدم، وناح لأجله نوح، ورمي في النار الخليل، وأفجع للذبح إسماعيل، وبيع يوسف بثمن بخس، ولبث في السجن بضع سنين، ونشر بالمنشار زكريا، وذبح السيد الحصور يحيي، وقاسى الضر أيوب، وزاد بكاء داود، وعالج الأذى محمد صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين، ولكنكم تستعجلون.

أين الذين يريدون الجنة؟!

إن كل أمة من الأمم تعتز بتاريخها، وتفخر بأمجاد رجالها؛ لتستمد من ماضيها المجيد نورًا يضيء لها طريق المستقبل المشرق، وإن أحق أمم الأرض بهذا الاعتزاز والفخار، بجدارة واقتدار هي أمتنا، فهذا ليس كلامي بل شهادة العزيز الغفار، فهي ليست مجرد أمة عادية من أمم الأرض، بل هي خير أمة في الأرض.

ونحن مع عملاق من عمالقة العصر الذهبي للتاريخ الإسلامي، لقد كان لهذا البطل المغوار؛ وأسرته شأنٌ عظيمٌ في تاريخ الرَجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فقد كانوا من مشاهير الدنيا، وكان هذا البطل من الذين تتناقلُ سيرهم الأجيالُ تلو الأجيال، والذكرُ للإنسان عمر ثان، إنه أسد بني أمية الهصور العباس بن الوليد، فتعالوا بنا نعيش سويًا في رحاب هذا المشهد البطولي لهذا البطل المغوار.

خرج مسلمة بن عبد الملك ومعه ابن أخيه العباس ابن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك لغزو بلاد الروم في أوائل شهر جمادى الأولى من سنة ثمانية وثمانون هجريًا، وكان أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك قد كتب إلى صاحب أرمينية يعلمه بتحرك الروم نحو أرمينية، وبعث ابنه العباس مع أخوه مسلمة على رأس الجيش الإسلامي، وقد ساروا نحو الجزيرة الفراتية، ثم عطفوا منها إلى بلاد الروم قبل أن يتحرك جيش الروم نحو أرمينية.

جاء جيش الروم البيزنطيين بأعداد كالرمال، فاقتتلوا هم والمسلمين، وكان العراك عنيف في كل أرجاء الميدان، وثبت المسلمون ثبوت الجبال الراسيات لهجوم الروم، ثم قام القائد الميداني للجيش الإسلامي العباس بن الوليد بهجوم كاسح على الروم، فتخلخل جيش الروم وانهزموا؛ وكادت أن تكون هزيمة نكراء، لكن قائد الفرسان في الجيش الروماني قام بصد الهجوم في منتهى الشجاعة، فتراجع المسلمين تحت ضغط الرومان، ثم قاموا بهجوم صاعق على المسلمين؛ فانهزم المسلمون أمام هذا السيل الجارف، وكانت هزيمة نكراء، وفر المسلمين من ميدان المعركة.

ولم يبقَ في أرض المعركة إلا الأمير العباس بن الوليد في نفر من الجيش ومعه الوزير ابن محيريز الجمحي، فقال العباس له: «أين أهل القرآن يا عم... أين الذين يريدون الجنة؟!»،

قال ابن محيريز: «نادهم يأتوك يا عباس»، فنادى العباس بأعلى صوته وقال : «يا أهل القرآن، يا من تريدون الجنة، إنها ورب العباس الجنة، فإلى أين تفرون من الجنة؟»؛ فأقبلوا عليه جميعًا؛ ثم زحف المسلمين على الروم بقلوب كالجبال؛ ونزلوا عليهم كالطوفان الهادر الذي لا يبقى شيء أمامه، فكانت معركة طاحنة قلما يشهد التاريخ مثلها، فهزم الله الروم حتى دخل المسلمين حصونهم، وحاصرهم المسلمون؛ وفتح الله على المسلمين الحصن، وكان من أمنع الحصون.

- عبرة

يا شباب، لا شك أن أعلى وجوه الفداء وأكثرها خيرًا وأثرًا، هو أن يكون قائد المجاهدين أحرصهم على روح البذل والفداء، حتى يعطى القدوة من نفسه فإذا الذين من ورائه يسارعون إلى

مواطن التضحية بلا تردد ولا إبطاء، وتاريخ الإسلام العظيم يعرض علينا الكثير من نماذج القادة الذين كانوا أسوة حسنة لجنودهم في الحرص على صدق الجهاد، وروعة الاستشهاد، ومن هؤلاء كان العملاق العظيم العباس بن الوليد، وقد كان من أكبر أبطال المسلمين وحماتهم، وكان لا يحب الابتعاد عن الميدان والجهاد، وقد ناضل نضالًا كريمًا طوال المعركة حتى حقق الله على يده النصر الحاسم.

الأسد المجاهد

نحن الآن مع عملاق أعجوبة من أعاجيب الدهر، ونادرة من نوادر الزمان؛ فهو بطلٌ لا يسبق؛ ورام لا يُخطئ؛ ومقدامٌ لا يهاب؛ ومغامرٌ لا تنتهي عجائب مغامراته؛ تقرأ أخبار بطولاته؛ فيخيل إليك أنها ضرب من الأساطير، وما هي بالأساطير، بل هي وقائع حدثت بالفعل كانت أغرب من الخيال، إنه السلطان البطل لابو لابو رحمه الله قاهر الإسبان على أرض الإسلام في جزر الفلبين.

ولعلك أيها القارئ الكريم قد نزع بك الشوق إلى سماع طرف من أخبار هذا الفارس المغوار، والوقوف على بعض عجائبه؛ فإليك شيئًا منها كما جاءت في كتب السير والتراجم، فتعالوا بنا لنعيش سويًا هذه السطور مع هذا الموقف الرائع، وهذه البطولة النادرة.

في شهر شوال سنة ٩٢٧ هجرية وصل ماجلان القائد الصليبي الحقد إلى جزر الفلبين قادمًا من القارة الجديدة أمريكا لتطويق وضرب العالم الإسلامي، واتفق مع حاكم جزيرة سيو الوثني الأمير هومابون على أن يدخل هذا الحاكم في الديانة النصرانية مقابل أن يكون ملكًا على الجزر كلها تحت سلطة التاج الإسباني - هذا التاج الذي أسقط غرناطة الإسلامية آخر معاقل للمسلمين في الأندلس سنة ٨٩٧ هجريًا -، ومن جزيرة سيو انتقل ماجلان ومن معه إلى جزيرة ماكتان للتمكين للنصراني الجديد عميل الإسبان هومابون من أن يكون حاكم لكل جزر الفلبين باسم ملك إسبانيا.

كان صاحب جزيرة ماكتان حاكم مسلم يدعي السلطان لابو لابو وكان رجلًا لا يخاف أحدًا إلا الله، فقد كان بطلًا جسورًا؛ وأسدًا مغوارًا، وقد قرر الإسبان في نفوسهم الحقد على الإسلام جعل جزر الفلبين كالأندلس فبدوءا بارتكاب الأعمال الوحشية بحقد صليبي الذي حملوه معهم من إسبانيا بل من أوروبا كلها، فطاردوا النساء، وسطوا على طعام السكان فقاومهم الأهالي بشدة، فأضرموا النار في أكواخ السكان الآمنين، وفروا هاربين.

رفض السلطان لابو لابو الخضوع لماجلان؛ وحقده وغطرسته الصليبية، فحرض السكان المسلمين في الجزر الأخرى على الجهاد، وأعلن النفير في البلاد، فاستنفرت النفوس؛ واستعلى الإيمان في القلوب، إلا أن ماجلان قد غرته قوته وأسلحته الحديثة، وأراد أن يضرب خصمه ضربة قوية يرهب بها بقية الأمراء فذهب مع فرقة من جنده لقتال لابو لابو وتأديبه.

ولما التقى به طلب منه التسليم، قائلًا: «إنني باسم المسيح أطلب منكم التسليم، ونحن العرق الأبيض أصحاب الحضارة أولي منكم بحكم هذه البلاد!»،

فأجابه السلطان المجاهد: «إن الدين لله؛ وإن الإله الذي أعبده هو إله البشر جميعًا على اختلاف ألوانهم»، ثم قام لابو لابو بالهجوم على ماجلان وقتله بيده في أول مرحلة للقتال أمام جيشه، وشتت شمل جيشه، ورفض تسليم جثته لأتباعه الذين غادروا البلاد عائدين إلى ديارهم عن طريق جنوب آسيا فوصلوا إلى إسبانيا في شوال ٩٢٨ هجرية أي بعد عام من نزول الحملة أرض الفلبين.

بعد ذلك بعث ملك إسبانيا أربع حملات متتابعة، نزلت كلها على سواحل جزيرة ميندنا وهى أكبر مدن المسلمين في الجنوب، فتم قتل أفراد هذه الحملات كلها، وأطلق على هذه الجزر اسم الفلبين في عام ٩٤٩ هجرية على اسم أمير النمسا فيليب الثاني الذي أصبح فيما بعد ملكًا على

إسبانيا، الذي دخلت الفلبين تحت التاج الإسباني في عهده.

- عبرة

يا سادة، ما كان أجدر أن يلقن جنودنا مثل هذه المواقف التي حفظها لنا الرواة عن الأبطال المجاهدين من المسلمين لتكون حافزًا لهم على التضحية، والفداء والاستبسال في سبيل الدين والعقيدة، وليس هذا بعجيب من المجاهدين اليوم الذين قام أباءهم وأجدادهم بهذه التضحيات، والصور الفدائية الخالدة التي قصصنا عليكم أحدها، وسنقصَ عليكم المزيد منها بإذن الله تعالى.

يا شباب، ما أحوج أمتنا في هذا الوقت الصعب الذي نعيش فيه إلى أبطال مغاوير يكونوا لنا قدوة في وقت قلَّت فيه القدوة والمثل، والتعرف على سير هؤلاء العمالقة الأبطال، لا لمجرد المعرفة والإعجاب السالب؛ أو الثقافة الذهنية الباردة، وإنما لربط ماضينا المجيد؛ بحاضرنا، ومستقبلنا المشرق بأذن الله.

الأمير الشهيد

إنَّ الإطلالة على سير هؤلاء العمالقة العظماء؛ تمدُ المرء بتجارب جليلة، يتعلَّمُ منها مرضاة الله ورسوله، وما يصلح أحواله من زاده لمعاده، فهم كالنجوم يهتدى بها الإنسان في طريق سيره إلى ربه جل وعلا، فيعيش الإنسان حياته لله، ويخوض غمار التجارب لربه، فهو يعمل لله، ويعيش مع الله، ويحيي بحب ربه.

ونحن الآن مع عملاق من عمالقة التاريخ الأندلسي، بل هو واحد من أعظم أبطال تاريخ الإسلام قاطبة، عاش لدينه، ومات من أجله، كان يحلم أن يدخل الإسلام في كل بيت في أوروبا، عاش لذلك واستشهد وهو في طريقه إلى تحقيق ذلك، إنه البطل الباسل أسد معركة تولوز السمح بن مالك الخولاني رحمه الله، فتعالوا بنا لنعيش سويًا في هذه السطور مع هذا البطل المقدام.

ما كاد أمير المؤمنين عمر بن العزيز ينفض يديه من تراب سلفه سليمان بن عبد الملك، حتى بادر يعيد النظر في أمراء الأمصار، فلقد أراد الخليفة الجديد أن يعيد ترتيب الدولة الإسلامية، وأن ينظر في أمر الحكام والولاة من جديد، فلا يبقى في مكانه منهم إلا الذي يستحق البقاء، وكان من أول الذين عيَّنهم عمر بن العزيز السمح بن مالك الخولاني؛ ولأنه كان يثق فيه تمام الثقة فقد ولاه حكم ولاية شديدة الأهمية من بلاد المسلمين؛ ألا وهي الأندلس وما جاورها من المدن المفتوحة من بلاد غالة - فرنسا اليوم -، وقد خلت الأندلس من القادة العظام مثل موسى بن نصير ووالده عبد العزيز بن موسي وطارق بن زياد.

ومثلما اشتاقت نفس موسي بن نصير القائد المغوار من قبل إلى دخول بلاد الأندلس ثم زحف إلى أوروبا حتى يفتح القسطنطينية، اشتاقت نفس السمح بن مالك إلى فتح فرنسا كلها، وراح تطلُع المؤمن بداخله يدفعه إلى ضمها إلى عقد الدولة الإسلام العظمى.

لقد راحت نفسه التقية تصور إليه حال الذين يقيمون في بلاد غالة وما وراءها وهم يتخبطون في ظلام الوثنية والشرك، يحكمهم حكام ظلمة، يظلونهم في الدنيا، ويجرونهم إلى النار معهم يوم القيامة، ذلك أن نور الإسلام لم يكن بلغهم بعد، ولم يعرفوا تعاليمه السامية؛ وحقائقه الغالية، راحت نفسه التي تشجعه على الخير تصف الثواب العظيم الذي سوف يناله عند ربه إن هو أقدم على فتح هذه البلاد.

ولم يكن السمح يتطلع إلى فتح بلاد غالة فحسب، بل كانت أمنياته تمتد إلى أن يأخذ منها نواة لفتح البلقان التي هي اليوم شبه جزيرة واقعة جنوب شرق أوروبا، وتقتسمها اليوم رومانيا، وألبانيا، واتحاد يوغوسلافيا سابقًا، وبلغاريا، وتركيا، واليونان، وعلى اتساع دول البلقان إلا أن آمال المؤمن داخل السمح كانت أكثر اتساعًا، إنه يريد أن يصل من دولة فرنسا إلى القسطنطينية في بلاد البلقان، تحقيقًا لبشارة الرسول القائد ﷺ.

رأى السمح أن الخطوة الأولى إلى تحقيق الهدف الكبير المرجو إنما يكون بداية بفتح مدنية أربونة - التي تقع اليوم في جنوبي فرنسا قرب البحر المتوسط في سهل لنغودول -، رأى السمح أن قيمة أربونة قيمة كبيرة جدًا؛ ذلك لأنها كانت أكبر المدن الفرنسية التي تجاوز بلاد الأندلس

وهي مفتاح فرنسا الكبرى، وكان المسلمون كلما انحدروا من جبال البيرينيه؛ وجدوها تنتصب أمامهم كما ينتصب المارد الجبار.

أعد السمح العُدة للزحف، وحشد قواته، وانطلق على بركة الله، وعبر جبال البيرينيه وهي من أصعب الجبال وعورة وعُلُوًا، وأشدها مشقة، وتقع من خلفها عند سفوحها مدينة أربونة التي كانت من أحصن مدن الأرض، وصلها السمح فحاصرها بقواته، ثم عرض على أهلها الإسلام أو الجزية فعز عليهم ذلك وأبوه، فهب يهاجمهم الهجمة تلو الأخرى، ويقذفهم بالمنجنيقات حتى سقطت المدينة العريقة الحصينة في أيدى المسلمين بعد أربعة أسابيع من الجهاد البطولي الذي لم تشهد أوروبا نظيرًا له من قبل.

لم يكن أمام القائد المظفر المنتصر وقت للراحة؛ لذلك تابع الجيش الإسلامي الظافر زحفه في الأراضي الفرنسية باتجاه المدينة الكبرى في جنوب فرنسا تولوز عاصمة مقاطعة أوكتانية - وهي تقع على الساحل الجنوبي من فرنسا -، فعرض على أهلها مثلما عرض أهل مدينة أربونة من قبل إما الدخول في الإسلام، وإما أن يدفعوا الجزية نظير دفاع المسلمين عن بلدهم وبقائهم على دينهم، دون أن يشتركوا هم في الدفاع عنها إن شاءوا فلم يوافق أهلها على أحد الخيارين، فلم يكن أمام السمح إلا أن يحاصرهم ويقذفهم بالمنجنيق، وبالفعل كادت المدينة المنيعة الحصينة إن تقع فريسة للهزيمة الساحقة.

لكن حدث ما لم يكن في الحُسبان، ولأمر قدره الله تعالى في علمه وقضاه في حكمه، فلما أصبح النصر قريبًا جدًا من جيش الإسلام، لما بدأ تحرك الجيش الإسلامي نحو تولوز، كان حاكم مقاطعة أكتانية يستنفر لحربهم البلاد والعباد، وأرسل رسله فطافوا أوروبا من أقصاها إلى أقصاها، وأنذروا ملوكهم وأمراءهم باحتلال ديارهم، وسبي نسائهم وولدانهم إن لم يصدوا الجيش الإسلامي.

فلم يبق شعب في أوروبا إلا أسهم معه بأشد مقاتليه بأسًا، وأكثرهم عددًا، وقد بلغ من وفرة الجيش، وعنف حركته، وثقل وطأته، ما لم يعرف له الدنيا نظيرًا من قبل، حتى إن الغبار والأتربة المتطايرة من تحت قدميه قد حجبت ومنعت عين الشمس عن منطقة الرون، وهي التي تضم نهرًا في إنجلترا وفرنسا.

ولما تدانى الجمعان خيَل للناس أن الجبال تلاقي الجبال، ثم دارت بين الفريقين رحى معركة ضروس لم يعرف التاريخ لها مثيلًا من قبل، وثبت جند الله ثبوت الجبال الرواسي، بما أُلهموا من صبر وإيمان وفداء.

وكان السمح رحمه الله يظهر أمام جنود عدوه في كل مكان من أماكن المعركة حتى يضعف من قوتهم ويدفع جنود المسلمين لقتالهم بضراوة وقوة، ولا يفتأ يتنقل بين كتائب جيشه يذكرهم بأيام الله، ويقرأ عليهم آيات الجهاد، ويحرضهم على الاستشهاد في سبيل الله، وفيما هو كذلك أصابته رمية من سهم، فخر صريعًا عن جواده.

رأى الجند قائدهم الباسل مجندلًا فوق الثَرى، دب اليأس إلى قلوبهم، والذعر إلى نفوسهم، وفت في عضدهم، ووقعت البلبلة في صفوهم، ولاحت في الأفق فوق رؤوسهم الهزيمة الفاجعة، وأصبح في وسع الجيش الجرار أن يبيدهم عن بكرة أبيهم.

هنا أدركت المسلمين الذين كادوا أن يُبادوا جميعًا في ميدان المعركة رحمة من عند الله تعالى،

وهكذا فما إن اشتدت الظلمة إلا وأرسل الله بدرًا يذهبها، ولقد ذهبت ظلمة معركة تولوز لما أذن الله تعالى للبطل العظيم والمؤمن المخلص عبد الرحمن الغافقي بأن يتوجه نحو مكان القيادة من الجيش المسلم، فتولى أمر انسحابهم بأقل قدر من الخسائر، وعاد بهم إلى الأندلس، لكنه عقد العزم على أن يعيد الكرة عليهم من جديد.

- عبرة

يا أخي الكريم، هل رأيت الغيوم كيف تنقشع عن البدر في الليلة الظلماء فيستضيء بنوره التائهون ويهتدي بسناه الحيارى؟ وهكذا انقشعت معركة تولوز عن استشهاد بطل الإسلامي جديد، أيضًا فقد أشرقت المعركة بنور مجاهد من أعظم أبطال التاريخ البطل الفذ عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، وهكذا أبصر العطاش المقبلين على الهلاك في جوف الصحراء على نهر ماء، فيمدون أيديهم إليه؛ ليغترفوا منه غرفة ترد إليهم الحياة.

يا شباب، كانت هذه المعركة حاسمة بين المسلمين والنصارى حيث تعثَّر الجهاد الإسلامي بعدها لفترة، وكانت نتيجتها خسارة كبرى لأوروبا حيث حُرمتْ من نور الإسلام وحضارة المسلمين، ولذلك اعتبرها الكثير من الكُتَّاب الغربيون هي ومعركة بلاط الشهداء نكبة كبيرة أصابت أوروبا، وضربةً عنيفة حرمتها من الحضارة المنيرة التي كانت تمتع بها الأندلس لثمانية قرون.

أقسمت أن أجاهد في سبيل ديني

لا شك أن أعلى وجوه الفداء وأكثرها خيرًا وأثرًا، هو أن يكون قائد المجاهدين أحرصهم على روح البذل والفداء، حتى يعطي القدوة من نفسه فإذا الذين من ورائه يسارعون إلى مواطن التضحية بلا تردد ولا إبطاء، وتاريخ الإسلام العظيم يعرض علينا الكثير من نماذج القادة الذين كانوا أسوة حسنة لجنودهم في الحرص على صدق الجهاد، وروعة التضحية والبذل والفداء، ومن هؤلاء كان العملاق العظيم؛ والمجاهد الفدائي حامد الزغبي رحمه الله صاحب ملحمة صمود مدينة مالقة في وجه التحالف الصليبي إحدى عشر شهرًا.

لقد كان هذا العملاق من أكبر أبطال المسلمين وحماتهم، وكان رحمه الله لا يحب الابتعاد أبدًا عن الميدان والجهاد، وقد ناضل نضالًا كريمًا طوال حياته حتى لقى ربه على ذلك، فتعالوا بنا لنعيش في هذه السطور مع هذه الملحمة الخالدة.

كان مالك قشتالة فرناندو قد أجمع على تحقيق خططه لسحق البقية الباقية من دولة الإسلام في الأندلس قبل أن يعود إليها اتحاد الكلمة، فيبعث إليها روحًا جديدة من العزم والمقاومة، وكان من الطبيعي أن يؤثر البدء بغزو القواعد الشرقية والجنوبية من غرناطة التي يسيطر عليها أبو عبد الله الزغل، لأن الزغل لم يكن يدين بطاعته، وكان يبدى في مقاومته عزمًا لا يلين ولا يخبو فاتجه بقواته إلى قاعدة بلش حصن مدينة مالقة وبعد دفاع عنيف من أهلها سقطت في يده كان ذلك في جمادى الأولى سنة ٨٩٢ هجرية = مايو ١٤٨٧م.

وعلى إثر سقوطها غادرها معظم أهلها، وتفرقوا في حواضر الإسلام الباقية، وجاز كثير منهم إلى عدوة المغرب، واستولى النصارى على جميع الحصون والقرى المجاورة، واستطاعوا بذلك أن يشرفوا على مدينة مالقة من كل حدب وصوب، وكانت مالقة من أمنع ثغور الأندلس، وقد أضحت بعد سقوط جبل طارق عقد صلتها الأخيرة بعدوة المغرب في حالة يرثى لها، وكان فرناندو يحرص على أن يقطع كل وسيلة ناجعة لقدوم الأمداد من المغرب الإسلامي وقت الصراع الأخير، وكان الاستيلاء على مالقة يحقق هذه الغاية.

وما كاد النصارى يظفرون بالاستيلاء على بلش والحصون المجاورة، حتى زحفوا على مالقة وطوقوها من البر والبحر بقوات كثيفة، كان ذلك في أوائل جمادى الثانية عام ٨٩٢ هجرية = يونيه ١٤٨٧م، وكانت المدينة تموج بالمدافعين عنها وعلى رأسهم المجاهد الكبير حامد الزغبي ومعه نخبة مختارة من أكابر الفرسان من المغاربة والأندلسيين، ومع ذلك قرر أهل البلدة تسليم المدينة للطاغية لعدم جدوى المقاومة، وقبول دعوة السلطان الخائن أبي عبد الله الصغير صاحب غرناطة حليف الطاغية للتسليم.

لما علم المجاهدون بأمر تسليم المدينة للطاغية طارت عقولهم عندما سمعوا بما عزم عليه أهل البلدة، واستنفروا من باقي من أهله المدينة على عهد الأمير الزغل صاحب وادي آش، واستدعى القائد حامد الزغبي الخواص إلى حضرته فجاءوا جميعًا، فقرروا المقاومة حتى الموت.

وجاء وافد من الطاغية ومعه وافد من أنصار أبو عبد الله الصغير أصحاب فكرة التسليم، يطلبون من حامد الزغبي التسليم بدون قتال حقن للدماء، فقال حامد للرئيس الوافد: "اذهب

وقل لسيدك إنني قد تسلمت مدينة مالقة لأحميها لا لأسلمها".

عند ذلك علم فرناندو أنه لن يستطيع دخول المدينة إلا بعد قتل حامد الزغبي ومن معه فقدم المدافع، وزحف بالجيش وقابلته أساطيله من البحر، فأحرق حامد الأرباض، وسير ثلاث فرق لمصادمة العدو، وذلك أنه لما كان لا بُد للإسبان من المرور بمضيق بين قصر المنارة والجبل، أمر الزغبي فرقة من جيشه باحتلال المضيق، وأخرى باحتلال الصخرة، وأخرى بالنزول بالجبهة البحرية.

كانت بداية الحرب في المضيق وكانت الحرب طاحنة بين الفريقين وتلاحقت النجدات للنصارى، فعظم سوادهم، واشتدت وطأتهم، لكن المجاهدين ثبتوا في مواقفهم وصدوا جموعهم فتراجعوا تحت ضغط المقاومة الإسلامية، فبدأ فرناندو بضرب الأسوار بالمدافع، فحدثت حرائق هائلة، ولكن المدينة قاومت مقاومة شديدة لمتأنة أسوارها، ومنعة مواقعها، ولم تؤثر النيران إلا في برج واحد كبير تداعى أكثره للخراب، فتسلقوه الإسبان فدحرهم المسلمون أول مرة وأهلكوا منهم خلقًا كثيرًا، فحملوا ثانية وصدقوا الحملة فأزاحوا المسلمين، وملكوا الحصن، فتجمع المسلمون وحملوا عليهم، ووضعوا النار في الأخدود فخر من كل جانب ومات جميع الإسبان داخله.

هنا جاءت الملكة إيزابيلا بجيش عظيم لمساعدة زوجها، وبعثوا وافدًا آخرًا إلى حامد الزغبي بطلب تسليم المدينة، فترجاه بعض الخواص بقبول التسليم فرفض حامد العرض، هنا أمر الطاغية بإطلاق المدافع فأطلقت نيرانها نحو المدينة، وأمر الطاغية فرناندو المركيز صاحب حصن قادس بالهجوم على برج قريب من جبل المنارة، وإطلاق النيران بشدة نحو الحصن، وتقدم بالجند نحو ذلك البرج وطمع في أخذه، فانهال عليه ألف مغربي فذبحوا أجناده، وهزموا من سلم منهم فتلاحق المدد للنصارى، فأعادوا الكرة والتحم الفريقان وهلك منهما خلق كثير، وتولى الصبر مقام المغاربة فكاد المركيز ينهزم ثانية، وكادت رايته تقع في يد المسلمين لولا أن قائد المجاهدين إبراهيم بن زناتة جرح في معمعة القتال، فعاد به الجنود إلى الحصن، لكنهم أرسلوا إليهم رماة السهام، فقتلوا معظم الإسبان وتراجع الإسبان وقد فشا فيهم القتل، وهلك في هذه الوقعة أحد أشهر فرسان النصارى ويدعى أورتاغو دوبرادوا، فكان يومًا عصيبًا على الإسبان.

كان حامد الزغبي لا يكل ولا يمل، وكان في كان مكان يبعث الحماس في نفوس المجاهدين، يجاهد كما يجاهدون، ويعاني كما يعانون، وشرع يرمم المتهدم من أسوار المدينة، حتى إنه عزم على بناء ست سفن حراقات لقصد الهجوم على أسطول الإسبان.

وفي هذا الوقت توافدت جموع المتطوعين من جميع من مدن أوروبا تحت راية الصليب، وقد استجلب الملك والملكة الذخائر والأقوات من جميع مدن إسبانيا، وأمرا ببناء أبراج من الخشب يسع الواحد منها مائة مقاتل تمشي على دواليب، ولها سلالم لأجل التسلق والنزول، ثم أمر بحفر الخنادق تحت الأرض.

وكان حامد لا يترك للمحاصرين راحة ولا يمهلهم فواقًا، بل يغاديهم النزال ويراوحهم، حتى ملوا وامتلأت الخيام بالجرحى والمرضى، ثم لم يلبث أهل مالقة أن اكتشفوا الحفر تحت جدران المدينة، فحفروا بإزائها ونقبوا تحت الأرض فكان المسلمون والنصارى في تلك الدهاليز يتصارعون في بطن الأرض صراعهم فوق ظهرها، إلا أن الظهور كان للمسلمين وقتلوا جميع المهاجمين.

ثم تجمع المحصورون وحملوا من البحر والبر حملة واحدة على العدو، واستمر القتال ست ساعات فلم يهزموا العدو، وعادوا إلى المدينة وكان الجوع قد فشا في مالقة، وانقطع عنها جميع المدد وسدت دونها المسالك، وفنيت الغلال فاشتد الكرب على الناس، وأجمعوا على مراسلة الطاغية، في أمر التسليم بشرط الأمان على النفوس والنفائس، وأنفذوا بالرسالة مع رجل منهم، فشعر به أصحاب حامد فرشقوه بالسهام فأصيب الرجل ثم مات.

ولما رأى أهل وادي آش ما حل بأهل مالقة من الضيق سألوا السلطان الزغل المسير لنجدتهم، فحشد جيشًا، وجهز له ما يلزم وتحرك بقواته نحو مالقة، فلما علم الخائن أبا عبد الله الصغير تحرك عمه الزغل نحو مالقة، تحرك بجيشه لمعارضة جيش عمه في الطريق إثباتًا لأمانته وتأكيدًا لصداقته لملوك النصارى، ولم تأخذه رأفة بأبناء دينه، وعلى حين غفلة من جيش الزغل انقض الخائن بكل شراسة واستطاع أن يهزم الزغل هزيمة نكراء، فقل الزغل إلى وادي آش، وبعث الخائن بالبشائر النصر إلى فرناندو وإيزابيلا.

كان الجوع قد عض أهل مالقة حتى طلبوا لحم الخيل فلم يجدوه، فأكلوا الجلود وطبخوا الورق بالزيت، وهلك منهم خلقٌ كثيرٌ، والتجأ جماعة إلى معسكر النصارى مؤثرين الرق على الموت جوعًا، عند ذلك ذهب جماعة من أعيان المدينة إلى حامد الزغبي فوجدوا عنده جماعة من العلماء، فقالوا: "إننا نتوسل إليك بالله وبرسوله أن لا تصر على مقاومة عقيمة من الجدوى، فإن أسوارنا دون أسوار رندة وقد تهدمت رندة، ورجالنا ليسوا بأشد من رجال لوشة وقد سلمت لوشة، وليس لنا في غرناطة كبير أمل، فإن سلطانها أبا عبد الله تابع لملوك النصارى، وإن الزغل عمه طريد منها شريد في وادي آش، فما ننتظر ونساؤنا وأطفالنا يهلكون أمامنًا جوعًا"، فأجابهم حامد: "علينا بعد هجمة أخيرة، فلا تثبطوا عزائمنا عنها".

وفي اليوم التالي خرج رافعًا راية أحد الدروايش ووراءه إبراهيم الزناتي، وجماعة من مغاوير غمارة، وصعد النساء والأولاد على أعالي الأبراج لمشاهدة الوقعة الأخيرة، وزحف المجاهدون نحو معسكر صاحب قلعة رباح ومعسكر صانتياغو فصدق المسلمون الحملة، وهبت الريح بالنصر وخفقت لها راية الدرويش، وحمى الوطيس وتسابقت غمارة إلى رياح الجنة فانكشف الإسبان، وطاردهم المجاهدون بالقتل والأسر، فوقع الرعب في قلوبهم، وتداعوا من كل ناحية للفرار.

وبينما الأمر كذلك إذ خرَّ الدرويش صريعًا بحجر أصابه، وسقطت الراية فتطير المسلمون، ونزل بهم الهلع ورجعوا أدراجهم فلما رآهم النساء مدبرين ارتفع عويلهن ونادين بالويل والثبور، وصمد المسلمون للهجوم المضاد لكنهم فشلوا، هنا قام الزغبي يحاول بكل قواته تنظيم الصفوف لكنه فشل، فراجع إلى معقله مع قومه، وانقطع أمل أهل مالقة في النصر، فراسوا الملوك على التسليم، فرضوا منهم على التسليم، ودخلوا مالقة، وبقى الزغبي ممتنعًا في أحد القلاع، إلا أن جماعته جنحوا إلى التسليم من الجوع.

فبعث أصحاب الزغبي إلى الملك بالتسليم، فأجابهم أنه لا ينالهم إلا ما ينال أهل مالقة، فلما استسلم الزغبي غدر به، وأخذه هو وأصحابه أرقاء، وحينما سأله الطاغية عن سبب مقاومته الشديدة له كل هذه الشهور، أجابه الزغبي: "إني أقسمت أن أجاهد في سبيل ديني ووطني، ولو طاوعني جندي ما أسلمت السلاح أبدًا"، فغضب الطاغية وصب عليه جام غضبه؛ وعذبه عذابًا شديدًا وقتله أمام الناس، ثم غدر الطاغية بأهل مالقة وقتل معظم أهلها.

- عبرة

يا شباب، هكذا يتحفنا تاريخ قادة المسلمين بالروائع الجهادية في المشرق والمغرب، حيث يرى أولئك القادة أن سعادتهم الروحية ليست في التقلب في نعيم الدنيا، وإنما هي في إغاثة الملهوفين؛ وإنقاذ المكروبين؛ وإعزاز الإسلام والمسلمين؛ وإذلال الأعداء، لقد رفض الزغبي رحمه الله أن يعيش في القصور ويترك مدن المسلمين في يد أعداء الله، فجاهد بكل بسالة حتى لقى ربه جل وعلا على ذلك.

في هذا الخبر أيضًا إيثار هذا المجاهد البطل الحق على الهوى، وترك هذا العرض الزائل لله تعالى، فعوضه الله خيرًا، فرفعه في الدنيا بذكره، وفي الآخرة بالفوز برضوان ربه بإذن الله.

اللهم عافني حتى أنتقم

حب الفداء، والتضحيةَ والنضال، روح تسري في كيان المؤمنين، وتجري جريان الدم في عروقهم إذا ما دعا الداعي، حيَ على الجهاد، فهمْ جند الرحمن في هذه الأرض، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون به من طاعة المولي عز وجل، وهم يعلمون أن الجهاد في سبيله فريضة محكمةَ، وضرورةَ ملحة، به تصان الأعراض والأروح والبلاد، وتصان به الأرض من الفساد، والفوضى، والاستبداد، وبه يتحقَّق النصر لهذا الدين الذي فطر الله الناس عليه.

وكان أبطال المسلمين عبر التاريخ يتنافسون في بذل أرواحهم وأموالهم في سبيل الله، لا يدخر أحدهم وسعًا في إحقَاق الحق، وإبطال الباطل، وهذه قصة أحد هؤلاء الرجال الإفذاذ من شرق العالم الإسلامي، كما جاءت الرواية عند ابن الأثير رحمه الله.

ففي سنة ٤٠٨ هجرية خرج الترك من بلاد الصين في عدد كثير يزيدون على ثلاثمائة ألف مقاتل من أجناس الترك، وكان سبب خروجهم أن الملك طغان خان، لما ملك تركستان مرض مرضًا شديدًا، وطال به المرض، فطمعوا في البلاد لذلك.

فساروا إليها وملكوا بعضها، وغنموا وسبوا الكثير من الناس، وبقي بينهم وبين عاصمة تركستان بلاساغون ثمانية أيام فقط.

فلما بلغه الخبر كان بها مريضًا، فسأل الله تعالى أن يعافيه، لينتقم للمسلمين من الكفرة، ويحمي بلاد الإسلام من الطغيان، ثم يفعل الله به بعد ذلك ما أراد، فاستجاب الله المجيب لهذا الملك الصالح وشفاه.

فجمع العساكر، وكتب إلى سائر بلاد الإسلام يستنفر الناس للجهاد في سبيل الله، فاجتمع إليه من المتطوعة مائة وعشرون ألفًا، وتحرك بالجيش الإسلامي لمواجهة الترك.

فلما علم الترك بخبر عافيته، وجمعه للعساكر وكثرة من معه، عادوا إلى بلادهم ، فسار خلفهم نحو ثلاثة أشهر حتى أدركهم، وهم آمنون لبعد المسافة، فكانت معركة هائلة بين الطرفين، وقد صمد طغان خان في أول المعركة لهجوم الترك الكاسح، ثم قام بهجوم مضاد على قوات الترك، حتى لحق بهم هزيمة نكراء، وقتل منهم زيادة على مائتي ألف مقاتل، وأسر نحو مائة ألف، ولم يفلت منهم إلا الشريد.

وغنم من الدواب، وغير ذلك من الأواني الذهبية والفضية، ما لا عهد لأحد بمثله، وعاد إلى العاصمة بلاساغون قاعدة الملك، فلما يلبث إلا قليل حتى عاوده المرض أشدَ ما كان عليه، فمات منه رحمه الله، وكان عادلًا محبًا للخير، صاحب دين، يحب العلم وأهله، ويميل إلى أهل الدين ويصلهم ويقربهم.

- عبرة

يا سادة، بالجهاد الذي فيه المشقَة والعناء، يذهب الهم والغم، ولكنها المشقَّة البعيدة التي تتقاصر دونها الهممُ الساقطة، والعزائمُ الضعيفةَ، ولكنه الجهاد الخطير الذي تجزع منه الأرواح الهزيلةُ المنخوبة، ولكنه الأفق العالي الذي تتخاذل دونه النفوسُ الصغيرة، والبنية المهزولة.

كثرٌ هم أولئك الذي يتهاوْن في الطريق الصاعد إلى الآفاق الكريمة، إنهم ليعشون على حاشية الحياة، وإن خيّل إليهم أنهم بلغوا منافع ونالوا مطالب، واجتنبوا أداء الثمن الغالي، فالثمن القليل لا يشتري سوى التافه الرخيص.

الهزائم منك يا إسماعيل

الإنسان عبد لله تعالى في الحقيقة، فإذا ما تيقن حقيقته، وقدر الله حق قدره، عاش لله بصورة كلية، لا يخاف من بطش جبار، أو إرهاب ظالم، فحياته كلها لله، يعيش مع ربه في كل ثانية، يتكلم بكلمة الحق، لا يخشى في الله لومة لائمة، يعمل للدار الآخرة، ولا يعمل من أجل الحياة الدنيا، يخشى الله، ولا يخشى سواه، وفي تاريخنا المجيد الكثير من هؤلاء العظماء الذين صدعوا بكلمة الحقّ لا يخافون إلا الله عز وجل، منهم العالم الأزهري الكبير الشيخ توفيق البتشتي رحمه الله، فتعالوا بنا لنعيش سويًا في رحاب هذا المشهد الخالد.

لما وقعت الحرب بين مصر والحبشة، وتوالت الهزائم على مصر، لوقوع الخلاف بين قوادها وجيوشها، ضاق صدر الخديوي إسماعيل لذلك، فذهب يومًا إلى شريف باشا رئيس النظار، وهو محرج، فأراد أن يفرج عن نفسه، فقال لشريف باشا: «يا باشا، ماذا تصنع حينما تلم بك ملمَّة تريد أن تدفعها؟»، فقال يا أفندينا: «إن الله عودني إذا حاق بي شيء من ذلك أن ألجا إلى كتاب الله، وإلى صحيح البخاري، يقرؤه عليّ علماء أطهار؛ فيفرج الله عني ذلك الهم».

فكلم الخديوي شيخ الأزهر، وكان في ذلك الوقت الشيخ العروسي، فجمع له صلحا العلماء جميعًا، وأخذوا يتلون في البخاري أمام القبلة القديمة في الأزهر، ومع ذلك ظلت الهزائم تتوالى على مصر، فذهب الخديوي ومعه شريف باشا إلى مشيخة الأزهر، وقابل العلماء، وقال لهم محنقًا: «إمَّا أن هذا الذي تقرؤونه ليس صحيح البخاري، أو أنكم لستم العلماء الذين نعهدهم من رجال السلف الصالح، فإن الله لم يدفع بكم، ولا بتلاوتكم البلاء علينا».

فوجم العلماء لهذا الكلام، ولم يتكلم أحد، إلا شيخ من أخر الصف، هو الشيخ العلامة توفيق البتشتي رحمه الله، فقال: «كل الهزائم منك أنت يا إسماعيل، وليست منَّا، أو من أحد أخر، فإنّا روينا عن النبي ﷺ أنه قال: ((لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعوا خياركم فلا يستجاب لهم)) « صحيح رواه البزار» فاندهش العلماء لذلك.

وانصرف الخديوي ومعه شريف باشا، ولم ينطق بكلمة، وأخذا العلماء يلومون الشيخ توفيق البتشتي ويؤنبونه على ما قاله للخديوي.

فبينما هم كذلك، إذا جاء شريف باشا مرة أخرى، وقال: «أين الشيخ الذي تكلم مع الخديوي؟»، فقام الشيخ توفيق إليه، وقال: «أنا يا باشا»، فأخذه وقام، وأخذ العلماء يودعونه وداعٌ من لا يأمل أن يرجع مرة أخرى.

وسار شريف باشا مع الشيخ، ودخلا على الخديوي في قصره، فإذا به قاعد في البْهو وأمامه كرسي، فجلس الشيخ أمامه على كرسي، وقال الخديوي له: «أعد يا شيخ ما قلته لي في الأزهر»، فأعاد عليه الشيخ ما قاله، وشرح له الحديث الذي قاله.

فقال الخديوي: «يا شيخ توفيق، وماذا صنعنا حتى ينزل هذا البلاء بنا؟»، فقال له: «يا أفندينا أليست المحاكم المختلطة فُتحت بقانون يبيح الربا؟ أليس الزنا برخصة؟ أليس الخمر مباحًا؟ أليس...؟»، وأخذ يردد المنكرات التي تجري بلا إنكار، وقال: «يا أفندينا كيف ننتظر النصر من السماء بعد كل هذا؟»، فقال الخديوي: «وماذا نصنع، وقد عاشرنا الأجانب، وهذه هي

مدينتهم»، فقال الشيخ: «إذن فما ذنب البخاري، وما حيلة العلماء؟»، ففكر الخديوي مليًا، وأطرق طويلًا، ثم قال له: «صدقت يا شيخ»، وانصرف الشيخ من القصر.

- عبرة

يا أيها السادة الكرام، يحتاج مبلغو الدعوة من العلماء والدعاة إلى عقيدة قوية، ويقين خالصٍ، لأنهم يعملون على تقويتهما في حياة الناس، ولا يُمكن للدعاة أن يصلوا إلى ذلك إلا إذا اتصفوا هم بها أولًا، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، ومن المعلوم أن الدعوة العملية أبلغ تأثيرًا من الدعوة النظرية، وما خرج من القلب الصادق يصل إلى قلوب الآخرين.

ومن الصفات التي يجب أن يتمتع بها الدعاة إلى الله القيادة، فهم قواد في مجتمعهم، ورواد يأخذون بيد الناس إلى ما يعلمون له، وأهم صفات القيادة تتمثل في الشجاعة، ليتمكن الدعاة من توجيه الدعوة الدينية إلى الناس، بلا خوف أو فزع، ويتمتع برباطة الجأش، وقوة العزيمة، وبهذا يتمكن من التعامل مع الواقع بهدوء وروية، وقد تسلح هذا الشيخ الجليل رحمه الله بخلق الشجاعة، والجرأة في مواجهة الخديوي بسلطانه، وهيبته.

الشهيد المسلوخ

من آثار الإيمان الثبات بكل صوره ومعانيه عند الشدائد، والمحن، والمصائب، الثبات يوم تمتحن الأمة بأعدائها، فآثار الإيمان على الحياة آثار مشرقة تنعكس على تصورات الأفراد وسلوكهم في الحياة، حتى إنك لترى القرآن يمشي على الأرض في أشخاص بعض الأفراد، وفي تاريخنا المجيد من أمثال هؤلاء الرجال الكثير، منهما العالم الرباني الجليل الإمام أبو بكر النابلسي رحمه الله، هذا الرجل الذي حمل كلمة الحق في صف، والطاغية المتكبر، وجنوده في صف، فانتصر بإيمانه، الذي صدع به لا يرده عنه رادٌ، ولا يصده عنه صادٌ، فتعالوا بنا لنعيش سويًا في هذه السطور مع هذا الجبل الراسي.

أسس عبيد الله بن ميمون المهدي الدولة العبيدية الخبيثة، واتخذ مدينة المهدية - التي نسبها إليه - عاصمة له، - وتقع هذه المدينة على ساحل تونس -، ولقد توغلوا حتى ضم المغرب الإسلامي كله، فلما مات سار أبناء عبيد الله المهدي على نهج سياسته التوسعية، حتى استطاع أبو تميم معد بن إسماعيل الملقب بالمعز لدين الله احتلال مصر، فدخلها في يوم الجمعة الثامن من شهر رمضان عام ٣٦٢ هجريًا .

وكان قد مهد له قائده جوهر الصقلي الأمور، وأقام له الدعوة، وبنى له مدينة القاهرة فنزلها، وكان حكام الدولة العبيدية يدعون الناس إلى دين الشيعية، والمذهب الاثني عشري، بينما كان أهل المغرب الإسلامي، ومصر، وفلسطين، وسوريا يعتنقون المذهب السني.

كانت محنة العبديين عظيمة على المسلمين، كما يقول الإمام الذهبي في تاريخه: «لما استولوا على الشام هرب الصلحاء والفقراء من بيت المقدس».

وكان العبيديين يجبرون علماء المسلمين على لعن الصحابة رضي الله عنهم على المنابر، فكانت محنة عظيمة، وكان ممن هرب من العلماء من وجه العبيديين الإمام النابلسي، الذي هرب من الرملة إلى دمشق.

ولما ظهر المعز لدين الله بالشام، واستولى عليها، أظهر الدعوة إلى نفسه، وأظهر المذهب القبيح ودعا إليه، وأبطل صلاة التراويح، وصلاة الضحى، وأمر بالقنوت في الظهر بالمساجد.

أما الإمام النابلسي فكان من أهل السنة والجماعة، وكان يرى قتال العبيديين قبل قتال الصليبيين، فقد قال النابلسي يومًا: «لو كان في يدي عشرة أسهم كنت أرمي واحدًا إلى الفرنجة، وإلى هؤلاء العبيديين تسعة».

وبعد أن استطاع حاكم دمشق أبو محمود الكتامي أن يتغلب على القرامطة أعداء العبديين، قام بالقبض على الإمام النابلسي وأسره وحبسه كان ذلك في شهر رمضان، وجعله في قفص خشبي، ولما وصل قائد جيوش المعز إلى دمشق، سلمه إليه حاكمها، فحمله إلى الإسكندرية.

اتجه المعز العبيدي إلى الإسكندرية فذبح فيها من علماء السنة من ذبح، وقبضوا على الكثير منهم، وإجبارهم على قول الباطل، ثم أمر المعز الجنود بإحضار الإمام أبو بكر النابلسي بين يديه من السجن، فلما جاء إلى القصر، أمر الجنود أن يدخلوا الإمام النابلسي إليه، فلما واقف

بين يديه قال المعز له: «بلغني عنك أنك قلت لو أن معي عشرة أسهم لرميت الروم بتسعة، ورميت الفاطميين بسهم؟»، قال النابلسي: «ما قلت هذا».

هنا ظن هذا الطاغية المتكبر، أن الشيخ رجع عن قوله، فقال: «كيف قلت إذًا؟»؛

فرد عليه هذا العالم الرباني بقوة وعزة المؤمن لقد قلت: «ينبغي أن نرميكم بتسعة ثم نرمي الروم بالعاشر».

فقال المعز: «ولمَ؟ «،

قال الإمام: «لأنكم غيرتم دين الأمة، وقتلتم الصالحين، وأطفأتم النور الإلهية، وادعيتم ما ليس لكم».

فأمر المعز الجنود بإشهاره في أول يوم، ثم الضرب في اليوم الثاني بالسياط ضربًا شديدًا، ثم أمر بسلخه في اليوم الثالث، فجيء بيهودي فجعل يسلخه، من مفرق رأسه حتى بلغ الوجه، فكان يذكر الله، وهو صبر على هذا البلاء، وهو يردد قول رب العزة سبحانه: {كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا} (الإسراء: ٥٨). فقال اليهودي: «فأخذتني رقة عليه، فلما بلغت تلقاء قلبه طعنته بالسكين فمات».

- عبرة

يا شباب، لقد كان رحمه الله عابدًا صالحًا زاهدًا، لم يبع دينه على أبواب السلاطين، بل كان قوالًا بالحق، مع إمامته في الحديث والفقه، صائم الدهر، كبير الصولة عند الخاصة والعامة.

يا سادة، هكذا مات هذا الإمام الجليل رحمه الله، وكم من عالم سقط على الطريق من أجل أن تعيش كلمة الحق، وكم من عالم عذب وأهين من أجل أن تبقى كلمة الحق عزيزة عالية لا تنالها يد الظالمين، وكم من عالم قد حرم جميع حقوقه من أجل أن يحفظ حق الله، ولا غرابة في ذلك ولا عجب، فهم أهل لتلك المواقف، إذ على أكتافهم عملت شريعة الإسلام، وفي صدورهم حفظ كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ.

السلطان أقل من القط

لم تكن البطولة الإسلامية قاصرة يومًا على مواطن الحرب والطعان، ولا على أصحاب الأجسام الفارعة، والقوة الخارقة، ولكنها تكون في الرأي والاعتزاز به، والمجاهرة بالحق، والانتصار له، والثبات عليه، مهما تآزرت قوى الشر والباطل، وقد تكون من ضعيف في بدنه؛ قوي في نفسه، ولا تكون من قوي في جسمه؛ خائر في عزيّمته، وإذا اجتمعت القوة البدنية، والقوة الروحية والنفسية لشخص فقد استحوذ على البطولة من جميع جوانبها.

وفي تاريخنا الناصع الكثير من أمثال هؤلاء الرجال الذين لا يخشون مع الله عز وجل أحدًا من البشر مهما كان سلطانه، والشيخ العز بن عبد السلام رحمه الله على رأس هؤلاء الرجال، فتعالوا لنرى هذا المشهد المشرق من حياة هذا الرجل العظيم.

لما خرج الإمام العز بن عبد السلام من الأسر، ورحل إلى مصر، وقد سبقته إليها مجده وفقهه، وقوته في الحق، استقبله العلماء بالإجلال، وكان يوم وصوله إلى القاهرة كأيام الأعياد، فقد احتشد الناس في أبهى ملابسهم لاستقباله، وأمر السلطان نجم الدين أيوب أمراءه؛ وقادة الجيش أن يرتدوا حلل العيد، وخرج السلطان في أبهته على رأسهم يستقبلون الشيخ، وقد أعدوا له الخيل المطهمة ليمتطيها هو وأهله وأبناؤه، وسكن في دار فسيحة وسط حديقة غناء اشتراها أهل مصر له عرفانًا بمكانته.

وكان المحدث العظيم الحافظ المنذري رحمه الله صاحب الفتيا بها، فامتنع عنها إجلالًا لعلمه قائلًا: «كنا نفتي قبل حضور الشيخ العز، وأما بعد حضوره فالفقه متعين فيه، ولا يفتي أحد وهو بيننا»، ورأى الشيخ كثيرًا من محبة السلطان أيوب وعنايته به؛ إذ ولاه الخطابة بجامع عمرو بن العاص، ومنصب قاضي القضاء، والتفت القلوب حوله، وارتوت العقول من علمه، وأشرقت القلوب بنور محبته، وسار على سنته المعهودة يأمر بالمعروف؛ وينهى عن المنكر.

وكان المتوقع أن يقول العز بن عبد السلام: «هذه مناصب توليتها بعد المحن في دمشق، وأن من المصلحة أن أحافظ عليها حفاظًا على مصالح المسلمين، وألا أعكر ما بيني وبين الحاكم بقول الحق»، خاصة أن الصالح أيوب مع أنه رجلٌ عفيف اللسان، إلا أنه كان رجلًا قوى الشكيمة، شديد الهيبة، حتى إنه ما كان أحدٌ يستطيع أن يتكلم بحضرته أبدًا، ولا يشفع لأحد عنده، ولا يتكلم إلا جوابًا لسؤال، حتى إن بعض الأمراء في مجلسه يقولون: «والله إننا دائمًا نقول ونحن في مجلس الملك الصالح أيوب أننا لن نخرج من المجلس إلا إلى السجن»، فهو رجل مهيب، شديد البطش بالمخالفين، إذ سجن إنسانًا نسيه، ولا يستطيع أحد أن يكلمه فيه، أو يذكره به، وكان له عظمة وأبهة، وخوف وذعر في نفوس الناس، سواءً الخاصة منهم والعامة، فماذا كان موقف العز بن عبد السلام معه؟

فمن الطبيعي أنه يعظم نفوذ الرجل، وقد وثق بربه، وبذل جهده الجاهد في مرضاته فلم تأخذه رهبة في محاربة بغي، واستئصال فساد، فها هو يمر يوم العيد على السلطان الصالح نجم الدين أيوب وقد خرج إلى الصلاة بموكبه ودبدبته وعظمته، والعساكر مصطفون بين يديه، ووجوه المملكة يسيرون وراءه، والأعلام تلوح على رأسه، والخيول تصهل، والدنيا تجتمع لتشهد، فإذا بشيخ يخرج من بين الناس فيناديه باسمه: «يا أيوب».

هكذا باسمه مجردًا بلا ألقاب، فالتفت السلطان ودهش، ووقف، ووقف الناس ودهشوا، حتى كأن الطير على رؤوسهم، فقال له الشيخ: «ما حجتك عند الله إذا قال لك ألم أبوئ لك ملك مصر ثم تبيح الخمور؟».

فاندهش السلطان وقال: «هل حصل ذلك؟»، قال الشيخ: «نعم، الخمارة الفلانية يباع فيها الخمر، وفيها المنكرات، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة»، فقال الصالح أيوب: «يا سيدي هذه من زمان أبي، وما صنعت شيئًا»، فقال الشيخ: ما هذا! أأنت من الذين يقولون {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ} (الزخرف: ٢٢) فرسم السلطان أمرًا بإغلاق الحانة فورًا.

ورجع الشيخ إلى درسه، وإلى مجلسه يعلم الطلاب ويدرّسهم، وكان يعلمهم مواقف البطولة والشجاعة كما يعلمهم الحلال والحرام، ويعلمهم الغيرة على الدين مثل ما يعلمهم الأحكام، إذ ما قيمة أن يوجد طالب يحفظ القرآن والصحيحين والسنن، ومع ذلك هو ميت الغيرة على الإسلام، لا يغضب لله ورسوله ﷺ، ولا يتمعَّر وجهه إذا رأى المنكر، ويتطلع لمنازل الصديقين والشهداء؟ ما قيمة هذا العلم؟

فسأله تلميذه العلامة الباجي رحمه الله: «يا سيدي لم فعلت ذلك؟»، قال: «يا بني لقد رأيته في تلك العظمة فأردت أن أهينه، لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه»، فقال: «يا سيدي أما خفته؟»، قال: «لقد استحضرت هيبة الله تعالى إذا أخاطبه، فصار السلطان عندي أقل من القط، ولو كانت بنفسي لديه حاجة من حاجات الدنيا لرأيته الدنيا كلها».

- عبرة

يا أيها القارئ الكريم، هذا هو شيخ كان يعيش في دنيا من عقيدته وإيمانه، ترك دنيا الناس وزهد فيها، ولم يحرص على متعها ولذائذها، فانقادت له الدنيا، وذل له جبابرتها، حتى وقف هذا الموقف التي نراها أدنى إلى الخيال.

من خاف الله يا سادة خافه كل شيء، ومن أخلص له وضع هيبته ومحبته في كل قلب، أما من كان مثلنا يطلب الدنيا، ويريد المال، ويبتغي الجاه والمجد، ويحرص على ثناء الناس، فهيهات أن يقدر على شيء من هذا.

دفاعًا حتى الموت

من لم يمت بالسيف مات بغيره، تعددت الأسباب والموت واحدٌ، كان هذا شعارهم، قومٌ اختارهم الله ليقودوا السفينة، كانت نفوسهم كبيرة، وإذا كانت النفوس كبيرة تعبت بمرادها الأجساد، اختاروا العيش بحياة كريمة، وإلا فالموت لهم سبيل، لقد غامروا لطلب شرف رفيع، وأيقنوا أن الموت لا بُدَّ منه، فرأوا من العيب أن يموتوا جبناء، لذلك طلبوا الموت بغزة، وطلبوا المعالي، والمعالي ليست رخيصة، فانتصروا وسطروا تاريخًا عقم الزمان أن يأتي بمثله، كانوا يقولون للصخر أفسح المجال لنا، فنحن أعمدة الفداء، نحن رجال الخلود من سُؤدد المجد طريقنا، لن نقف قبل تحقيق المُنى، ونبذل الروح دونه، نسطر في التاريخ صفحات ساطعات بسيوفنا، نحن الأُسودُ لا نهاب شيئًا، نخوضُ غمار الحرب نريد الموت ثمنًا لديننا، ونحنُ نعيش في السطور مع رجل عملاق من هؤلاء الرجال الأبطال.

كانت قلعة المهدية من بين أهم القلاع التي استولى عليها تورجوت رئيس في المغرب الإسلامي سنة ١٥٤٩م، وتقع هذه القلعة في مدينة المهدية في الجزائر، وقلعتها عند رأس بونة - عنابة فيما بعد -، وكانت هذه القلعة محصنة للغاية، لإحاطتها بأسوار مزدوجة، وقد أسند تورجوت رئيس إدارة المدينة إلى شقيقه الصغير خضر، وخرج هو مرة أخرى على رأس أسطوله الصغير إلى غزواته البحرية.

لقد أصيب الإسبان والإيطاليون بقلق وفزع كبيرين بعد فتح قلعة المهدية على يد تورجوت رئيس، والسبب في ذلك أن فتح هذه المدينة يعتبر إضافة جديدة إلى قاعدة الجهاد التي أسسها القائد العثماني خير الدين بربروسا، وستؤدي هذه التطورات لاحقًا إلى استحالة تجول السفن الإسبانية والإيطالية في البحر المتوسط، وستتعرض رحلات الأساطيل التجارية الصليبية إلى ضربة قاصمة.

دفعت هذه التداعيات الإمبراطور كارل الخامس إلى عقد اجتماع برفقة أعضاء مجلس الحرب، واتخذوا قرارًا بشن حرب على مدينة المهدية، وتم أسند قيادة هذه الحملة للقائد الصليبي الشهير أندريا دوريا، وكان الأسطول الصليبي مكون من ٥٣ قادسا - وهي السفن الحربية العملاقة - من إسبانيا، ونابولي، والفاتيكان، وصقلية.

انطلق أندريا دوريا على رأس الأسطول الصليبي الضخمة حتى وصل إلى المهدية وحاصرها، لكن قوات دوريا عانت الأمرّين في الاستيلاء على هذه القلعة الحصينة، حتى إن سفينة القائد العام للأسطول الصليبي أندريا دوريا أصابتها قذيفة مدفعية أطلقت من داخل القلعة، بعدها رغب قادتها في عدم الاقتراب أكثر لتفادي قذائف المدفعية، فسقط منهم أشخاص قتلى جراء هذا القصف.

وقد أدّت هذه الواقعة إلى إجبار مجلس الحرب على إعادة النظر في مخططاتهم، وقرروا في نهاية المطاف السيطرة على مدينة منستير في البداية، فانطلق دوريا إلى المدينة، وأنزل جنوده إلى الساحل، واستولى على المدينة من دون مقاومة تذكر، إلا أن القلعة الداخلية للمدينة قاومت كثيرًا حتى إن حاميتها كبدت القوات الإسبانية خسائر كبيرة.

وفي مقابل هذه المقاومة الباسلة، اضطر دوريا للتقهقر إلى الخلف للحصول على دعم إضافي، فجاءت إليه الآلاف من القوات الصليبية، ثم حاصر مدينة المهدية مجددًا، وأنزل جنوده إلى ساحلها في يونيو ١٥٥٠م.

وفي هذه الأثناء بادر تورجوت رئيس إلى توفير المؤن والتموين الزم لأهل القلعةَ، ثم بعدُها خرج على رأس أسطوله من القلعة عازمًا على توفير التموين الضروري من الخارج لعلمه أن القلعة ستسقط في أيدي الأعداء لا محالة إن لم يأتها العون والمدد من خارجها.

كان خضر رئيس الذي أُسندت إليه مهمة الدفاع عن القلعة، قد بدأ في تحفيز معنويات حامية القلعة، وأعدّهم للدفاع عن القلعة حتى الموت، وكان يدافع عن القلعة ١٧٠٠ جندي من المشاة و٦٠٠ فارس، وعلى الرغم من هذه القوة العسكرية قليلة العدد، استطاع خضر رئيس الخروج من القلعة في هجوم مباغت شنه على قوات العدو، وألحق بالقوات الصليبية خسائر فادحة.

أعقب هذا الهجوم تنظيم الصليبيين هجومًا فاشلًا للاستيلاء على القلعة، وأسفرت هذه الأوضاع عن وقوع القوات الصليبية في مأزق حقيقي، فهرع إلى نجدتهم حاكم تونس السابق مولاي حسن، وبدأ جنود مولاي حسن في دعم قوات التحالف الصليبي في حربها ضد أبناء دينهم.

صمد خضر رئيس في دفاعه عن المهدية، وقد كبد العدو خسائر بالجملة، بحيث استطاع الصمود ورفاقه في مواجهة قوات التحالف الصليبي، وقوات الخائن مولاي حسن لأكثر من شهرين، ولم يتمكن الإسبان من دخول القلعة إلا بعد استشهاد آخر جندي عثماني من القوات المدافعة عن المدينة، وكان خضر رئيس من بين الشهداء الذين سقطوا وهم يدافعون عن القلعة، وكان الدفاع عن المهدية ملحمة عسكرية بكل المقاييس.

- عبرة

يا أيها القارئ الكريم، كانت تلك لمح عن بطل من أبطال الأمة المجهولين، اتصف بالفداء والشجاعة، والوفاء والإخلاص لدينه ووطنه، فقد كان رحمه الله دائمًا على استعداد دائم للتضحية والفداء، فقد كان جبلًا من الجبال، وبطلًا من الأبطال العظام، وعلم من أعلام الأمة، فرحمه الله، وأحسن مثواه.

بطل على محفة الموت

إن الشجاعة قوة عقَل قبل أن تكون قوة جسد، وسلامة قلب قبل أن تكون سلامة خطة، وعظمة خلق قبل أن تكون عظمة نسب، وعزة إيمان قبل أن تكون عزة جاه ومنصب، شجاعة تراعى فيها المبادئ القويمة التي عرفها أقطاب الرجال الموصوفون برجاحة العقل وسداد الرأي، وسلامة القلب، ووضوح الهدف، وتقدير الأمور قدرها في الوقت المناسب، مع صدق الهدف، ونبل الغاية، وفي تاريخنا من هذا الصنف من الرجال الكثير، من هؤلاء كان ملك المغرب السعدي مولاي عبد الملك أبو مروان رحمه الله، ولن ينسى له التاريخ موقفه في معركة وادي المخازن، هذا المشهد الأسطوري، فتعالوا بنا لنتعرف على هذا المشهد.

توفي السلطان السعدى أبو محمد عبد الله الغالب بالله في سنة ٩٨١ هجرية = ١٥٧٣م، وتولى أمر السعديين من بعده محمد المتوكل على الله ابن السلطان السابق، وكان يضمر الشر لعميه مولاي عبد الملك أبي مروان، وأحمد المنصور، وتحالف السلطان الجديد مع الإسبان، فاتجه عمه مولاي عبد الملك إلى السلطان العثماني لدخول في طاعة العثمانيين، فوافق السلطان سليم الثاني على هذا الأمر، وتم خلع السلطان الخائن المتوكل، فعبر هذا الخائن بحر الزقاق - مضيق جبل طارق - إلى إسبانيا، واستغاث بملكها فيليب الثاني، وتضرع إليه في معاونته ونصرته، لكن فيليب الثاني لم يسعفه إلى طلبه، - بسبب انشغال فيليب الثاني بأحداث أوروبا الغربية حيث ثورة الأراضي المنخفضة -.

فذهب إلى ملك البرتغال دون سبتيان، وتضرع إليه في معاونته، فوافق ملك البرتغال على الفور، وكان شابًا في الثالثة والعشرين من عمره، رُبيّ في كنف اليسوعيين، متعصبًا يضطرم بروح صليبية عميقة، وتملأ مخيلته سير الفروسية الصليبية، وكان جُل أمانيه أن يشهر حرب صليبية مقدسة على بلاد المغرب الإسلامي، فجمع هذا الملك المتعصب قوات هائلة من جميع أقطار أوروبا، بلغت خمسة وعشرين ومائة ألف مقاتل.

فجمع سلطان المغرب مولاي عبد الملك حوالى أربعين ألف مجاهد من العثمانيين والعرب والأمازيغ، والتقى الجيشان، وكان الجيش الإسلامي بقيادة مولاي عبد الملك، وكان مريضًا ومحمولًا على محفة وسط الجيش، وكان معه والي الجزائر العثماني رمضان باشا، وقد طلب منه عدم خوض المعركة وهو مريض، فرفض هذا السلطان المجاهد أن يتخلف عن المعركة قائلًا: «يا باشا، متى كان المرض يثني المسلمين عن الجهاد في سبيل الله، ودفاع عن الإسلام».

انطلقت عشرات الطلقات النارية من الطرفين، إيذانا ببدء المعركة، فقام جيش العدو بهجوم قوى مع أول لحظات المعركة، وكان هجوم عنيفة، فقام السلطان برد الهجوم، وسار منطلقًا كالسهم شاهرًا سيفه، يمهد الطريق لقوته لخلخلة صفوف القوات الصليبية، ونجح الجيش الإسلامي في هذا، فتوقف الهجوم الأول للنصارى، وتراجعت القوات الصليبية بسبب الهجوم المضاد.

لكن السلطان غالبه المرض الذي سايره من مراكش، واشتد عليه من عنف القتال، فدخل خيمته وما هي إلا دقائق حتى فاضت روحه في ساحة الجهاد، وقد كان آخر ما تكلم به هو ثبات في المعركة، وحينما فاضت روحه واضع سبابته على فمه مشيرًا أن يكتموا نبأ موته حتى لا يتأثر

الجنود بخبر موته، فلم يعلم أحد بموته إلا أخوه أحمد المنصور، ورمضان باشا، وحاجبه رضوان العلج، وقد صار حاجبه يقول للجند: «السلطان يأمر فلانا أن يذهب إلى موضع كذا، وفلانا يلزم الراية، وفلانا يتقدم، وفلانا يتأخر».

وانتصرت القلة المؤمنة، وهزم الصليبيون، وقتل ملك البرتغال، وقتل الملك الخائن المتوكل، واستشهد مولاي عبد الملك كما ذكرنا، وسميت المعركة بمعركة الملوك الثلاثة، وكان من أمر هذه المعركة أن انقرضت الأسرة الحاكمة البرتغالية، ودخلت تحت التاج الإسباني.

- عبرة

يا شباب، لقد كان مولاي عبد الملك رحمه الله قائدًا عظيمًا، لم يكتفِ بمقام القيادة العسكرية في المعركة فقط، بل شارك بنفسه في القتال، ليس ذلك فحسب بل كان في الصفوف القريبة من العدو رغم وطأة المرض الذي ينخر في جسده، بل قام بنفسه يقود الهجوم على العدو، حتى سقط من شدة المرض، ليرتقي لدرجات الإيمان، ليقدم بذلك للأجيال على مر العصور نموذجًا للشجاعة والبطُولةُ والإقدام في حب هذا الدين.

الأسود المغاوير

الكلام عن أبطال الإسلام ذكرى عزيزة على كل نفس مجاهدة، حبيبة إلى قَلب كل مؤمن ومؤمنة، وتاريخ الإسلام حافل بالمثل العليا الرائعة، التي يقف أمامها المتأمل، وقفة الإكبار والإجلال لهؤلاء الأبطال، فهذه الثلة المؤمنة قدمت بصبرها، وكفاحها للدين القويم، ما يعجز القلم عن وصفه، فلا بلد من بلاد الإسلام، إلا ولهؤلاء الأبطال بصماتهم الخالدة في تاريخه، ونحن الآن مع فئة من أصحاب البطولة في تاريخ الأندلس.

ففي سنة ٣٧٣ هجرية انتقل أولاد زيري بن مناد وهم زاوى، وجلالة، وماكسن، إخوة بلكين بن زيري حاكم المغرب الأدنى إلى الأندلس، وسبب ذلك أنهم وقع بينهم وبين أخيهم حماد حروب وقتال على بلاد بينهم، فغلبهم حماد، فتوجهوا إلى طنجة ومنها إلى عاصمة النور قرطبة، فأنزلهم محمد بن أبي عامر المنصور، وأجرى عليهم الوظائف، وأكرمهم وسألهم عن سبب انتقالهم إلى الأندلس، فأخبروه، وقالوا له: «إنما اخترناك على غيرك، وأحببنا أن نكون معك نجاهد في سبيل الله».

فاستحسن ذلك منهم، ووعدهم ووصلهم، فأقاموا أيامًا ثم دخلوا عليه الزاهرة حاضرة الدولة العامرية وسألوه إتمام ما وعدهم به من الجهاد، فقال: «انظروا ما أردتم من الجند نعطيكم»، فقالوا: «ما يدخل معنا بلاد العدو غيرنا إلا الذين معنا من بني عمنا، وأهل صنهاجة ومواليناً»، فأعطاهم الخيل والسلاح والأموال، وبعث معهم دليلًا، وكان الطريق ضيقًا، فأتوا أرض جليقية في أقصى شمال بلاد الأندلس.

فدخلوها ليلًا وكمنوا في بستان بالقرب من قشتالة القديمة، وقتلوا كل من به من الجنود، وقطعوا أشجارها، فلما أصبحوا خرجت جماعة من البلد ضربوا عليهم وأخذوهم، وقتلوهم جميعًا، فرجعوا وتسامع العدو بأمرهم، فركبوا في أثرهم، فلما أحسوا بذلك كمنوا وراء ربوة عالية، فلما جاوزهم العدو خرجوا عليهم من ورائهم، وضربوا في ساقتهم، وكبروا، فلما سمع العدو تكبيرهم ظنوا أن العدد كبير، فانهزموا، فتبعهم أهل صنهاجة فقتلوا خلقًا كثيرًا وغنموا دوابهم وسلاحهم وعادوا إلى قرطبة، فعظم ذلك الأمر عند ابن أبي عامر، ورأى من شجاعتهم ما لم يره من جند الأندلس، فأحسن إليهم وجعلهم بطانته.

ولما رأى أهل الأندلس فعل هؤلاء المجاهدين حسدوهم، ورغبوا في الجهاد، وقالوا للمنصور بن أبي عامر: «لقد نشطنا هؤلاء للغزو»، فجمع الجيوش الكثيرة من سائر الأقطار وخرج كثير من المتطوعين معه إلى الجهاد».

وكان المنصور قد رأى في منامه تلك الليالى كأن رجلًا أعطاه الأسبراج - وهو طعام سائد عند أهل ليون في ذلك الوقت - فأخذه من يده وأكل منه، فعبره الشيخ على بن أبي جمعة رحمه الله – وهو إمام أهل الأندلس في عهد المنصور- وقال له: «اخرج يا سيدي إلى بلد ليون فإنك ستفتحها»، فقال: «من أين أخذت هذا؟»، فقال: «يا سيدي لأن الأسبراج يقال في المشرق الهليون» - وهو عندنا أهل مصر كشك ألماس -.

فخرج المنصور إليها ونازلها، وهي من أعظم مدائنهم، واستمدّ أهلها بالفرنج في بلاد الغال –

فرنسا الآن -، فأمدوهم بجيوش جرارة، واقتتلوا مع المسلمين ليلًا ونهارًا فكثر القتل بين الطرفين، وصبرت صنهاجة مع المنصور صبرًا عظيمًا، ثم خرج قومص كبير من الفرنج لم يكن له نظيرًا ، فجال بين الصفوف يحرض النصارى، وطلب المبارز، فخرج إليه جلالة بن زيري، فحمل كل واحد منهما على صاحبه فطعنه القومص، فمال عن الطعنه، فضربه جلالة بالسيف على عاتقه، فأبان عاتقه فسقط القومص صريعًا على الأرض.

ثم حمل المسلمون على النصارى، فانهزموا إلى بلادهم، وقتل منهم ما لا يحصى، وملك المنصور المدينة، وغنم غنيمة لم ير مثلها من قبل، واجتمع من السبي ثلاثون ألفًا، وأقام المنصور الصلاة في ليون لأول مرة منذ الفتح الإسلامي للأندلس.

- عبرة

يا أيها السادة الكرام، مهما بذل المسلم من جهد في الإعداد والتخطيط فلا نفع ولا فائدة ما لم يستمد العون من الله تعالى، وما لم يوقن بأن النصر من عند الله عز وجل، ولو لم تتوفر أسبابه المادية، فالإيمان بالله، والجهاد في سبيل إعلاء كلمته، والإكثار من ذكره ودعاؤه، واستشعار معيته، والثابت أمام عدوه، فهذه كلها هي عدة المؤمن الحقيقة في لقاء العدو، ومن بعد ذلك يأتي الإعداد والتخطيط.

ولذلك وجدنا المسلمين في بدر الكبرى ينتصرون وفارق العدد والعدة ليس في صالحهم، وفي اليرموك ينتصرون وعدد عدوهم يقارب الربع مليون، وهم لا يتجاوز عددهم الأربعين ألفًا، وكذلك في القادسية، وفي عين جالوت، وفي ملاذكُرد، والزلاَقة، والأّرك، وسهل كوسوفا، وغيرهما، وكان النصر دائمًا حليف المؤمنين المستعينين بالله رب العالمين.

أسد اندونيسيا الثائر

يخطئ من يظن أن الجذوة الملتهبةَ التي أوقدها الإسلام في صدور أبنائه قد خمدت على تناسل الأحقاب، ومرور السنين والأيام، فمهما تألب الباطل على الحق بجيوشه وعدده، فلن يستطيع أن يقوض العزة الإسلامية المنيعة، التي يعتصم بها أبناء الإسلام، والتي يذكيها القرآن الكريم في القلوب، فتدفع بأصحابها إلى التضحيةَ، والاستشهاد في سبيل الله، ويسجل ذويها الأبرار للعالم المتربص أن المسلمين خير أمة أخرجت للناس.

والذين يذيعون الإفك عن الإسلام، وأبنائه المستبسلين، تنقَبض صدورهم غيظًا وألْمًا، حين نقدم إليهم شخصيةَ فذة متوثُبة، كشخصية الأمير الإندونيسي ديبا نيكارا، ذلك البطل الأعزل الذي انتزع سلاحه من عدوه المتوحش، ووقف برهطه الضئيل، أمام جيوش الاحتلال الهولندي المتلاحقَة، فأطاح برقابها، ومزق أشْلاءها، وجعلها أُضُحوكةَ الناس في كل مكان، وأعلم أوروبا المتوحشةَ كيف تندحر الذئاب العاوية أمام الآساد الأشاوس البسلاء.

كان الأمير الإندونيسي ديبا نيكارا ابن ملك مقطعة متارام (في أواسط جاوة) في اندونيسيا هامنكوبوان الثالث، وقد ولد هذا الأمير المجاهد سنة ١٧٩٥م، وقد رفض هذا الأمير أن يتولى الحكم بعد وفاة أبيه، وأرادوه الناس مكان أبيه، لكنه رفض وقال: «أنا لست أهلًا لحمل أعباء الحكم»، وكانت إندونيسيا في ذلك الوقت تقع تحت الاحتلال الهولندي المجرم.

ولما اشتد بطش الاحتلال الهولندي وظلمه لأبناء اندونيسيا - وكان الاحتلال الهولندي يطلق على أهل اندونيسيا شعب الأقزام -، رأى الأمير ديبا نيكارا أن الجهاد أمر واجب عليه، فأعلن الجهاد في سبيل الله ونشر رايته، وكان حينما أعلن الثورة ضد الاحتلال الهولندي يبلغ من العمر ثلاثين عامًا، فقد بدأت ثورته سنة ١٨٢٥م.

ظلت حركة الجهاد التي أشعلها الأمير ديبا نيكارا خمس أعوام، حارب الاحتلال الهولندي خلالها في معارك طاحنة كان النصر له في كل المعارك، فقد كان رحمه الله قائدًا عسكريًا بارعًا؛ وفارسًا لا يشق له في البطولة غبار، كان يخوض المعارك بنفسه، وقد قتل من جيوش أوروبا خمسة عشرة ألفًا مقاتل، وثمانية آلاف من الهولنديين.

ولما عجزت جيوش الاحتلال عليه، استنجدوا بجيوش أوروبا، فأنجدتهم بقوات هائلة كسرها الأمير كلها، فحاولوا إثارة الناس عليه، وجعلوا لمن جاء به حيًا أو ميتًا مكافأة ضخمة، فما نفعهم ذلك في شيئًا، لالتفاف الناس حوله وحبهم له، فلم ضاقت بهم السبل، عمدوا إلى الغدر كعادتهم، فأعلنوا الرغبة في الاستجابة لمطالب الشعب، ودعوه إلى المفاوضات، فلما جاء إليهم، وكان ذلك في شهر رمضان الموافق ٨ فبراير ١٨٣٠م قبضوا عليه، وتم نفي الأمير إلى أقصى الجزر الإندونيسي، فبقي فيها سجينًا منفيًا إلى ٨ فبراير سنة ١٨٥٥م أي ظل رحمه الله في السجن ربع قرن كامل.

وكان رحمه الله في فترة جهاده قد أمر زوجته وقال لها: «على بركة الله فرقي كل ما نملك في أسر المجاهدين»، فأطاعت المرأة أمر زوجها، وفرقت كل ما يملك الأمير، وقد بدأت بحليها وثيابها بين زوجات المجاهدين.

ولما أحرق الهولنديون داره، فرآها رحمه الله من بعيدا تتوهج نارها تأكل كل شيء فقال لعمه: «انظر يا عم إن منزلنا يحترق، ولم يبق لنا على ظهر الأرض منزل، فلنتخذ منزلًا بدلًا منه في الجنة، ومشى يدفع دمه ثمنًا لمنزله الجديد في الجنة».

- عبرة

يا شباب، إن للجبان المتثاقل إلى الأرض يعيش في الناس عاجزًا فقيرًا، ميتًا ضعيفًا ذليلًا، ولو كان أكثر الناس مالًا، فإن الجبان يموت في اليوم مرات عديدة، بخلاف صاحب العقيدة الذي لا يموت إلا مرة واحدة في عمره كله، وإن مات فإنه يموت مختارًا، ويسمى شهيدًا حيًا لا ميتًا، أمَا الجبان فيموت إجبارًا، ثم تنتشر العقوبة لمجمل أجزاء حياته، فجرثومة الجبن والذل كجرثُومة الوباء، تنتشر عدواها انتشار النار في الهشيّم، فثبت عند العقلاء أن الحياة كل الحياة في سبيل الله كالموت تمامًا في سبيل الله، بل أفضل ورب الكعبة.

الشهيد الفدائي

إن تاريخ النضال الإسلامي يحدثنا بأن هناك أناسًا كثيرين اشتركوا في هذا النضال ببعض الأعمال، ثم هيأت لهم الظروف أن تلمع أسماؤهم، وتذيع بين الناس بطولاتهم، وتتردد على الآذان سيرتهم، ويبرز أمام الأبصار تاريخهم، وبجوار هؤلاء العظماء يوجد أناس شاركوا في النضال أفضل المشاركة، في صبر، وصمت، وإخلاص، ثم مضوا إلى ربهم كرامًا شهداء، دون أن يطيل الناس ذكرهم، أو يتوسع التاريخ في سيرتهم، فظلوا جنودًا مجهولين، ما يضيرهم أن لا يعرفهم الناس، ينتظرون حسن الثواب من رب الناس.

ولئن فات التاريخ أن يخلد أعمالهم في صفحات الدنيا الفانية، حسبهم أن أسماءهم، وأرواحهم، وأجسادهم، تخلد في كنف الرحمن، وجناته، ورضوانه، ونعم الكنف، كنف الرحمن، ونعمت الجنة، جنة الرضا والرضوان.

وبطلنا في هذه السطور الذي لم نقرأ عنه في مناهجنا شيئًا، بطل من أعظم أبطال التاريخ بلا أدنى شك، فقد حال دون وقوع أكبر جريمة كانت ستعرفها الإنسانية في التاريخ، ولمعرفة هذا الموقف الذي ليس له مثيل، يجب عليك أيها القارئ الكريم أن تتحول معي بقلبك إلى عاصمة الدولة الإسلامية المدينة المنورة، في السنة الثالثة من الهجرة النبوية الشريفة، بالتحديد عند سفح جبل أُحد حيث كتبت أعظم ملاحم الصمود والتضحية والفداء، فتعالوا بنا لنعيش سويًا هذه السطور مع هذا البطل المغوار.

كان الصحابي الجليل شماس بن عثمان المخزومي رضي الله عنه ، واسمه الحقيقي عثمان وقيل عامر - وهو ابن عم أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنه - من السابقين الأولين في الدخول إلى الإسلام، فلما اشتد عليه الإيذاء هاجر إلى الحبشة مع غيره من المؤمنين فرارًا بدينهم من بطش الجبارين، ثم رجع إلى مكة، ثم هاجر إلى المدينة ونزل على مبشر بن عبد المنذر، وآخى النبي ﷺ بين شماس بن عثمان وحنظلة بن أبي عامر غسيل الملائكة رضي الله عنهم أجمعين.

ومن عجب الاتفاق أن البطلين الذين تآخيا في الله عز وجل، قد تآخيا أيضًا في الجهاد، وتآخيا كذلك في الاستشهاد، وتآخيا في ميعاد هذا الاستشهاد فلقيا ربهما جل وعلا في معركة واحدة، وفي وقت واحد تقريبًا، وربك يفعل ما يشاء ويختار.

لما بدأت المعارك بين الفئة المؤمنة والجموع الكفر شهد شماس غزوة بدر الكبرى، فنال شرفها وثوابها ووعدها الكريم، وأبلى فيها أعظم البلاء.

وشهد معركة أُحد هذه المعركة العصيبة الشديدة، فأبلى فيها بلاءً حسنًا، فعندما تكالبت شراذم قريش على الرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه، هب رهط من شباب الإيمان وشيبه يذبون بسيوفهم، وصدورهم، عن رسولهم القائد صلوات ربي وسلامه عليه.

ولما اشتدت هجمة شراذم الكافرين على رسولنا القائد ﷺ، وإذا كادوا يحيطون به من كل صوب كان شماس رضي الله عنه ، وإخوته من جند الإيمان، يتراصون من حول قائدهم العظيم سورًا منيعًا يحول بين سيوف الكافرين وبينه.

ويجيل الرسول القائد بصره في هؤلاء الرهط المؤمن وهم يترسون من دونه بأجسادهم وصدورهم، فيلمح من بينهم شماسًا رضي الله عنه يثخن في المشركين الجراح، ويثخنون في جسده الجراح، فيدعو الرسول ﷺ له، ويقول: «ما وجدت لشماس بن عثمان شبيهًا إلا في الجنة».

ويحتدم العراك أكثر من ذي قبل، وتشتد هجمة المشركين على الرسول القائد، ويلمح شماس رضي الله عنه سيفًا مشركًا يوشك أن ينقض غدرًا على ظهر رسوله القائد، فيندفع كالبرق الخاطف، ويتصدى للسيف المشرك بجسده، ليحول بينه وبين اغتيال النبي ﷺ، فيخر صريعًا وبه رمق من حياة، فيسارع إخوانه إليه يذبون عنه.

وعندما هدأ وطيس المعركة، حملوا شماسًا وما زال به رمق إلى المدينة، فأدخلوه على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنه ، فتشفق أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنه أن لا يكون لها شرف استضافته وهو ابن عمها، فيأمر الرسول الكريم ويقول: «احملوه إلى أم سلمة، فيُحمل إلى أم سلمة، فلا يلبث عندها إلا قليلًا حتى يستشهد.»

فيأمر الرسول القائد أن يرد إلى أحد ليدفن هناك، كما هو في ثيابه التي ضمختها دماؤه الطاهرة التي ضحى بها دفاعًا عن الرسول القائد ﷺ، ودفن مع إخوانه من الشهداء الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

وكان حسان بن ثابت رضي الله عنه يرثيه ويعزى فيه أخته:

أبقى حياءك في ستر وفي كرم

فإنما كان شماس من الناس

قد ذاق حمزة سيف الله فاصبري

كأسًا رواء ككأس المرء شماس

- عبرة

يا شباب، هكذا حوَّل شماس بن عثمان رضي الله عنه جسمه إلى ترس يقي به الرسول القائد ﷺ من سلاح الأعداء إلى جانب الدفاع عنه بسيفه، حتى إذا غُشي رسول الله ﷺ ترس بنفسه دونه حتى استشهد رضي الله عنه .

وفي هذا الخبر وأمثاله نستشف مثلًا من أمثلة العظمة حيث تذوب الأجسام في مراد العقول السليمة يتمثل بالطموح العالي نحو بلوغ رضوان الله تعالى والجنة، فيتعرض أولو الألباب لمواطن الشهادة التي فيها رجاء الوصول السريع لتحقيق ذلك الهدف العالي.

يا شباب، يا له من موقف.. يا لها من رجولة.. يا له من إيمان.. يا له من صدق.. ويا لها من تضحية! هذه صفحة من صفحات الصدق، صدق العزم، وصدق العهد، وصدق في الوعد، وصدق في اليقين، وصدق في الإيمان بالآخرة، وصدق في النية، وصدق في التضحية.

الحنين إلى الشهادة

إن الجيل الصاعد المتطلع إلى المجد يتطلب إعدادًا صالحًا متدرجًا متينًا ليستطيع سد الثغرات، وحمل الأعباء التي وضعها القدر على كاهله، فلذلك لا بُد لنا من إنارة جوانب الإيمان الواعي في نفسه، لأن العقيدة السديدة هي حجر الزاوية في كل عمل مثمر بنَّاء، وها أنا أُهدى من خلال هذا الموقف قدَوة طيبةَ مباركة لبراعم الأمة المسلمة، ليتعلموا كيف يكون الولاء لدين الله، وكيف تكون المحبة للإسلام، وكيف تكون الغيرة عليه، وذلك لأننا نعيش زمانًا قد انتكست فيه الفطرة في قلوب أكثر المسلمين إلا من رحم ربي، ولنعرف كيف ربَّى الإسلام أهله، شبابًا وشيبًا وأطفالنًا، من أجل أن نسترد هذا المجد التليد؟!

ارجع معي أيها القارئ الكريم إلى السنوات الأولى من الهجرة النبوية الشريفة، وانتقل بروحك وبقلبك إلى المدينة المنورة، هناك عند ساحة معركة بدر الكبرى، كان هناك غلام صغير يحمل سيفه ليذود به عن الإسلام، يقف في آخر صف من صفوف الجيش الإسلامي، يُطاول في وقفته ليكبر في عين قائد الجيش حتى لا ينحيه عن المعركة كباقي الصغار، ينظر بعينيه الصغيرتين كأنه شبل ليث مفترس، يبحث عن الشهادة، إنه الصحابي الجليل عُمير بن أبي وقاص أخو سعد بن أبي وقاص أسد القادسية المغوار رضي الله عنه ، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد البطولي لهذا الفدائي الصغير.

لما أراد رسول الله ﷺ الخروج إلى بدر ليقاتل المشركين، خرج مع الجيش الإسلامي الصحابي الجليل عُمير بن أبي وقاص رضي الله عنه ، وعمره ست عشرة سنة - وقيل ثلاث عشرة -، وكان عمير يخاف أن لا يقبله النبي القائد صلوات ربي وسلامه عليه، لأنه صغير، فكان يجتهد أن لا يراه أحد، وكان يتوارى عن الأنظار.

ولكن رآه أخوه الأكبر سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، فقال له: «مالك يا أخي؟ لماذا أتيت مع الجيش، ولأي شيء تتوارى؟»،

قال عمير: «يا أخي، أخاف أن يردني رسول الله ﷺ، فإني صغير، وأنا أحب الخروج، لعل الله يرزقني الشهادة في سبيله»،

وكان كما خاف عمير، فلما نظر إليه رسول الله ﷺ رأى أنه صغير، والحرب ليست من شغل الأطفال والغلمان، وما يصنعون في الحرب، وإنها لكبيرة على الرجال؟

ولكن عميرًا ما أحب أن ينصرف، ويقعد في البيت، أو يلعب مع أترابه وأصدقائه في المدينة، وإنه ليريد الشهادة في سبيل الله!

ولكن عميرًا لا يعصي رسول الله ﷺ، ولا يعاند في أمره، فإنه لا يريد إلا رضا الرحمن، والفوز بالجنان، وهل ينال رضا الله والجنة إذا عصى رسول الله ﷺ؟ أبدًا.

كان عمير في حيرة وحزن شديد، فهو لم يبلغ سن القتال، ولكنه يحن إلى الشهادة، وإلى الموت في سبيل الله، ويحن إلى الجنة، ويراها غير بعيدة، ولكن كيف يصل إليها، وهو لم يبلغ سن القتال؟!

كل ذلك ثقل على قلب عمير رضي الله عنه ، وكان قبله صغيرًا، ونفسه كبيرة، وإيمانه عظيم، فبكى؛ ولما بكى عمير رق له قلب رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ رقيقًا رفيقًا فأجازه.

لا تسألوا عن فرح عمير وسروره لما أجازه النبي ﷺ، فكأنما نال تذكرة السفر إلى الجنة.

وخرج عمير مع أخيه ومع المسلمين، وكلهم كبار وأقوياء، وكان كما أراد، فقد قتل شهيدًا في الغزوة على يد فارس العرب عمرو بن عبد ود، وسبق كثيرًا من الشبان والشيوخ.

- عبرة

يا شباب، قوة الإيمان لا تقاس بالسن، ولا بالجسم، فاندفع عمير للخروج للجهاد في سبيل الله، وقد كان عمير رضي الله عنه نحيف الجسم، شديد الحب للجهاد والاستشهاد في سبيل الله مع صغر سنه، وخوفه من أن لا يقبله رسول الله ﷺ في الجيش، وظهر ذلك في حديثه مع أخيه سعد بن أبي وقاص قبل أن يعرض على رسول الله.

يا أيها الأخوة الكرام، إنّ الاهتمام بأبنائنا وتربيتهم تربية إسلامية صحيحة غير مشوهة هو واجب على كل أب وكل أم، لأن أبناءنا هم رجال المستقبل وهم الأمل في تحقيق النهضة لأمتنا، ولذا فمن المهم تعليم أبنائنا الآداب والأخلاق، وتعويدهم الحفاظ على أداء العبادات في أوقاتها، إننا في أشد الحاجة إلى أن نربي أولادنا على حبُ الله وحب رسول الله ﷺ، لينشأ الطفل نشأة طيبة مباركة، فيحب الله حبًا يحول بينه وبين معصيته، ويسعى لرضونه ويستنفر همته إلى العمل لنصرة هذا الدين.

كما أننا في أشد الحاجة في هذه الأيام أن نربط الطفل بالقدوة والمعلم الأول محمد بن عبد الله ﷺ فقد قال الله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} (الأحزاب: ٢١).

فعليك أيها الأخ الكريم أن تربي ولدك تربية القادة، لا تربية العبيد، وكل ما ذكرناه في هذا الكتاب من قدوات ما هي إلا خطوة في طريق بعث الأمة لكي ينشأ جيل يعرف الله ويحبه، فينصر الله به الإسلام، ويعز به المسلمين في كل مكان، كما نصر الإسلام بأصحاب الحبيب ﷺ وبأولادهم الذين تربوا على القرآن والسنة.

الفتيان الأبطال

لما خرج الرسول القائد صلوات الله وسلامه عليه إلى أُحد لرد الطوفان الوثني القادم لغزو عاصمة الإسلام المدينة، خرج معه من المدينة غلمان يحبون الله ورسوله، يعشقون الشهادة في سبيله، لا يهابون الموت، خرجوا من ديارهما دفاعًا عن الدين، قلوبهم تتحدى الموت، شعارهم دائمًا الله والجنة، كانوا صغارًا، لم يتجاوز أحدهم الخامسة عشرة عامًا، فردَهُمْ الرسول القائد صلوات الله وسلامه عليه، لأنهم صغار في عمر الزهور، لم يبلغوا سن القتال فيكونون كالمتاع، ويشغلون الكبار أيضًا يراقبونهم ويحرسونهم، ولكن إذا كانت النُفوسُ كِبارًا تعِبت في مُرادِها الأجسام، والنفسُ البشرية تختلف مِن إنسانٍ إلى آخر، وتتفاوت في تفكيرها بين عَظيمَةٍ لا ترضى بالقليلِ وبين أخرى رضيت بالدون.

وكان من بين هؤلاء الغلمان ولد يحمل نفس عظيمة اسمه رافع بن خديج، وهو دون الخامسة عشرة من سنه، كان يتطاول من شدة الشوق للجنة، ليظن القائد العظيم والناس من حوله أنه كبير، قد بلغ سن القتال، فلا يفطن لصغر سنه وضعفه أحد.

لكن الرسول القائد ﷺ ردَّهُ، لأنه يعرف أنه صغير، وأنه يتطاول، فبكى رافع وقال: «إني أريد الشهادة معك فلا تردني يا رسول الله»، فشفع له أبوه، وقال: «يا رسول الله إن ابني رافعًا رام»، فأذن له رسول الله ﷺ.

ففرح رافع كثيرًا لما أذن رسول الله ﷺ، وخرج مع المجاهدين، وهو أكثر سرورًا من غلمان يخرجون إلى المصلى يوم العيد في لباس جديد.

وكان هناك ولدٌ آخر اسمه سمرة بن جندب في سنَ رافع، كان قد عرض نفسه على رسول الله ﷺ لكن رده النبي ﷺ، فلما علم أنّ رسول الله قد أجاز رافع، قال لربيبه مُري بن سنان الحارثي، وهو زوج أمه: «يا أبي، أجاز رسول الله ﷺ رافع بن خديج وردني، وأنا أصرع رافع»، فقال مري بن سنان: «يا رسول الله رددت ابني سمرة، وأجزت رافع بن خديج وابني يصرعه».

فأمر رسول الله ﷺ سمرة ورافعًا بالمصارعة، فصرع سمرة رافعًا كما قال، واستحق أن يسمح له بالدخول في صف المجاهدين، فأجاز رسول الله ﷺ سمرة للخروج، فخرج سمرة، وقاتل يوم أُحد في سبيل الله.

- عبرة

يا شباب، في هذا الخبر مثل جيد على حب الصحابة رضي الله عنهم للجهاد، وارتفاع مستواهم التربوي، حيث حببوا الجهاد لأبنائهم فأصبح غلمانهم يتسابقون إلى ميادين الجهاد، وتتبدى هذه المظاهر المتأصلة في نفوس هؤلاء الغلمان في خروجهم مع جيش المسلمين، وكلهم أمل في أن يجيزهم رسول الله ﷺ وأن يشاركوا في الجهاد، كما تتبدى في إلحاح رافع ابن خديج على ولي أمره ليقنع النبي ﷺ بالسماح له بالجهاد بحجة أنه يجيد الرماية، ويشفق على نفسه من رد النبي ﷺ بالرفض فينتصب قائمًا على أصابع قدميه ليبدو طويلًا قد بلغ مبلغ الرجال مخفيًا هذا التطاول بخفيه السابغين اللذين يخفيان عقبيه، ويتم فوزه بإجازة النبي ﷺ إياه.

وتأخذ الحسرة سمرة بن جندب الذي رُدَّ مع الغلمان، ويعصف به الشوق إلى الجهاد فيُدْلي بمسوغ آخر للقبول، أوليس يصرع رافعًا؟ فهو إذًا أقوى منه وما دام الأمر كذلك فهو أحق منه بالإجازة، ويهمس بذلك في أذن وليه فينطلق بها إلى النبي ﷺ فرحًا مسرورًا بظفر ابنه بذلك المسوغ، ويتصارعان بأمر النبي ﷺ ويتم لسمرة ما أراد من تلك الإجازة.

إن فرحة هذين الغلامين وأمثالهما بالمشاركة في الجهاد تفوق كل ما يخطر على بال أقرانهم من أسْرى المباهج الدنيوية والأهداف القريبة، وذلك شاهد على ارتفاع مستوى المجتمع الإسلامي آنذاك في الْمُثل السامية والقيم العالية.

وما يجدر التأمل فيه، حال سمرة بن جندب ورافع بن خديج، وهما طفلان لا يزيد عمر كل منهما عن خمس عشرة سنة، وكيف جاءا يناشدان الرسول القائد ﷺ أن يسمح لهما بالاشتراك في القتال، وأي قتال؟! قتال قائم على التأهب للموت، لا تجد فيه أي معنى من التعادل بين الفريقين: المسلمون وعددهم لا يزيد على سبع مئة، والمشركون وهم يتجاوزون ثلاثة آلاف مقاتل.

والعجيب حقًا أن يقف محترفي الغزو الفكري على مثل هذه الظاهرة، فيذهبوا في تحليلها إلى أن العرب كانوا أمة تعيش في ظل الحروب والغزوات الدائمة، فكانوا ينشأون في أجوائها وظروفها، ولذلك كانوا ينظرون إليها شيبًا وشبانًا وأطفالًا نظرة طبيعية لا تسبب لهم قدرًا بالغًا من المخاوف.

لا ريب أن أرباب هذا التحليل، يغمضون أعينهم في إصرار عجيب، أثناء هذا الكلام عن تخاذل أمثال عبد الله بن أبي بن سلول مع ثلاث مئة من أصحابه، تحت وطأة الخوف من عواقب القتال، والرغبة في الجنوح إلى السلامة والأمن، وعن تخاذل أولئك المنافقين الذين استعذبوا ظل المدينة وثمارها ومياهها وسط حرارة الصيف، وأعرضوا عن نداء الرسول القائد بالخروج والقتال، قائلين: «لا تنفروا في الحر».

بل وعن هزيمة المشركين في غزوة بدر، على الرغم من ضخامة عددهم وقلة المسلمين، ووقوع الرعب في أفئدتهم، وهم هم العرب الذين نشأوا في ظلال الحروب ورضعوا ألبانها واستهانوا بصعابها.

من الصعوبة البالغة للمنصف أن يتهرب عما تحكم به البداهة الواضحة، من أن سرّ هذا الإقدام على الموت من مثل هؤلاء الأطفال، إنما هو الإيمان العظيم الذي استحوذ على القلب، والذي ترتبت عليه محبّة عارمة لرسول الله ﷺ، فحيثما وجد الإيمان ووجدت هذه المحبة، ظهر هذا الإقدام والاستبسال، وحيثما ضعف الإيمان، وضعفت المحبة في القلب انقلب الإقدام إحجامًا والاستبسال كسلًا وتقاعسًا.

الشهيد المهاجر إلى ربه

من بواعث البطولة التي ملأت الدنيا بعظائم المواقف خلق الإيثار، والإيثار على النفس من المكارم التي خصها الله جل وعز بالذكر في محكم كتابه، ونعت بها أنصار نبيه ﷺ في جملة مانعتهم به من جليل الشمائل، وقد قال رب العزة سبحانه: {يُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} (الحشر: ٩).

وتاريخُنا حافلٌ ببطولات الإيثار على النفس غني بها فلو نسي المسلمون المواقف كلها؛ فإنهم لن ينسوا ذلك الموقف الرائع الذي ختمت به معركة اليرموك، لهذا البطل الجابر لتقصيره بصدق وفائه، وروعة فدائه، المبايع على الموت في موقعة اليرموك، المُؤثر إخوانه على نفسه حين سقط على الأرض جريحًا، إنه البطل المغوار والصحابي الجليل عكرمة بن أبي جهل، فتعالوا بنا لنعيش سويًا في هذه السطور مع هذا البطل المقدام، نرى شيئًا من بطولاته، ثم نرى المشهد الختامي من حياته.

كان عكرمة بن أبي جهل رضي الله يفجر أنهار الحب والإعجاب في قلبه، وأنهار الإيمان في نفسه وهو يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ثم قال يا رسول الله: «أشهد الله وأشهد من حضر أني مسلم مجاهد مهاجر في سبيل الله».

ولقد برَّ عكرمة رضي الله عنه بما قطعه للرسول القائد ﷺ من عهد، وقد ترجم هذا الكلام واقعًا عمليًا، فما خاض المسلمون معركة بعد إسلامه إلا وخاضها معهم، ولا خرجوا في بعث إلا كان في طليعتهم، فبعد فتح مكة ارتفعت رايات الجهاد، فسارت جيوش الرحمن تدق صروح الكفر صرحًا صرحًا مبتدئة بهوازن وثقيف وأبلى عكرمة من خلالها البلاء العظيم، حتى قرت عين الرسول القائد ﷺ به، فاستعمله على هوازن في حجة الوداع أميرًا، ثم مات رسول الله ﷺ وصعد إلى الرفيق الأعلى.

ولما ارتدت معظم القبائل في الجزيرة العربية، كان له أثر عظيم في قتال أهل الردة، حيث كان أحد القادة الاثني عشر الذين قادوا الجيوش في حروب الردة، وقد أرسله الصديق أبو بكر رضي الله عنه إلى أهل عمان حين ارتدوا فظفر بهم، ثم سار إلى اليمن فجاهد فيها وانتصر.

ثم اتجه رضي الله عنه إلى الجهاد في ربوع الشام من غيره من أبطال الإسلام، فأبلى بلاءً حسنًا في أجنادين ومرج الصفر وغيرهم، وفي معركة فحل بسيان يقول عنه ابن الأثير صاحب كتاب أسد الغابة عنه: «كان عكرمة يومئذ أعظم المسلمين بلاءً، وقد كان يركب الأسنة حتى جرحت صدره ووجهه»، فقيل له: «اتق الله يا عكرمة، وارفق بنفسك»، فقال: «كنت أجاهد بنفسي عن اللات والعزي فأبذلها لها فأستبقيها اليوم عن الله ورسوله؟! لا والله هذا لن يكون»، ثم قال: «فلم يزدد إلا إقدامًا حتى إنه لم يعرف من الجراح».

وفي رابع أيام معركة اليرموك الطاحنة كان المشهد الختامي لحياة هذا البطل الباسل فتعالوا بنا لنعيش سويًا في رحاب هذا المشهد العجيب، ففي هذا اليوم أقبل عكرمة على القتال إقبال الظامئ على الماء البارد في اليوم القائظ، ولما تم تطويق الجيش الإسلامي في هذا اليوم؛ واشتد الكرب على المسلمين، وكاد يتم إبادة الجيش عن بكرة أبيه.

هنا نزل الأسد الكاسر عن جواده، وكسر غمد سيفه، وأوغل في صفوف الروم يصرع الرجال، فبادر إليه قائد الجيش خالد بن الوليد رضي الله عنه وقال: «لا تفعل ذلك يا عكرمة؛ فإن قتلك اليوم سيكون شديدًا على المسلمين».

فقال: «إليك عني يا خالد، فلقد كان لك مع رسول الله ﷺ سابقةٌ، أما أنا وأبي فقد كنا من أشد الناس على رسول الله، فدعني أكفر عما سلف مني لعل الله يرحمني»، ثم صرخ بأعلى صوته: «لقد قاتلت رسول الله ﷺ في مواطن كثيرة وأفر من الروم اليوم؟! إن هذا لن يكون أبدًا».

ثم نادى في الجيش الإسلامي: «من يبايع على الموت؟» فيبايعه عمه الحارث بن هشام، وضرار الأزور، وعياش بن أبي ربيعة، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عكرمة بن أبي جهل في أربعمائة من صناديد الإسلام رضي الله عنهم أجمعين – وقد قتلوا جميعًا في هذا اليوم إلا سهيل وضرار - فقاتلوا جميعًا دون فسطاط خالد بن الوليد أشد القتال وذادوا عنه أكرم الذود.

وأخذ رضي الله عنه يقاتل ويناضل في تضحية وفداء لم يعرف التاريخ لها مثيل حتى أصبحت الدائرة على جيش الروم، وسقط البطل شهيدًا مضرجًا بدماء العزة والكرامة ماضيًا إلى أكرم مآل عند الله جل وعلا.

وفي آخر اليوم كان يتمدد على أرض اليرموك ثلاثة من أعظم المجاهدين قد أثخنتهم الجراح هم الحارث بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، فجاء إليهم خالد، فدعا الحارث بماء ليشربه فلما قدَّم له خالد الماء نظر إليه عكرمة فقال: «ادفعوا إليه الماء»، فلما قربوه منه نظر إليه عياش فقال: «ادفعوه إليه»، فلما دنوا من عياش وجدوه قد قضى نحبه، فلما عادوا إلى صاحبيه وجدوهما قد لحقا به، وقد علم خالد فيما بعد أنهم أقسموا ألا يشربوا الماء إلا في الجنة، فسقاهم الله من حوض الكوثر شربة لا يظمأون بعدها أبدًا.

- عبرة

يا شباب، لقد كان رضي الله كفئًا كريمًا في الجاهلية والإسلام، ومثل صورة المعدن النفيس الذي غمرته أوحال الجاهلية، وكما تكون المعادن في قلب، ومنذ أن الإسلام أزيح هذا الركام عنه تبينت نفاسته وجوهره، لقد ظل رضي الله عنه منذ أن دخل الإسلام في قلبه وفيًا لبيعته لله ورسوله، فلقد مضى إلى ربه شهيدًا وقد وجدوا في جسمه بضعًا وسبعين ما بين طعنة وضربة، فرضي الله عنه بعد أن كان من المغضوب عليهم والضالين، فسبحان مقلب القلوب، وسبحان الذي بيده حسن الخواتيم، وسبحانه الذي يخرج الشهداء الأبرار من ظهور الأشقياء.

بطل بألف فارس

الجهاد في سبيل الله، لإعلاء كلمةَ الله تعالى، هو وظيفة الأبطال من خيرة الرجال، لا تفارقهم ولا يفارقونها، يبذلون فيها مهجهم خالصةً لوجه الله تعالى، لتكون كلمةَ الذين كفروا السفلي، وكلمة الله هي العليا، وقد علمنا من سيرة البطل الشجاع القعقاع بن عمرو رضي الله عنه إنه كان الفارس المقدام في ميادين القتال دون منازع، بوازع من دينه، وبحافز من رجولته الكاملة، وبطُولته النادرة، وآداب فروسيته الجامعة لفضائل الإنسانية كلها، الدالة على اجتماع شعب الإيمان فيه بأسرها، ففي كل مجال من مجالات العظمة كان له فيها أوفَر نصيب.

وفي كل ميدان من ميادين الشرف والنضال كان له فيها الصدارة، فلو سرحنا بخواطرنا في سيرته العطرة، وبطولاته النادرة، ما وسعتنا في ذكرها مجلدات، ونحن هنا نعيش سويًا مع هذا المشهد الخالد لهذا العملاق الكبير.

ما كاد خالد بن الوليد رضي الله عنه يسلم جنبه إلى الراحة بعد الفراغ من حروب الردة؛ حتى جاء كتاب الصديق يأمره بالزحف لمحاربة الإمبراطورية الساسانية، وفتح بلاد العراق واستنقاذها من أيدي الفرس، لكن جنود خالد كانوا قد تناقصوا، حيث استشهد منهم من استشهد في حروب الردة الطاحنة، وسرح منهم إلى أهله من سرح؛ بعد أن طال بينه وبينهم العهد، فلم يبق مع خالد من جيشه إلا ألفان مجاهد فقط، فكتب خالد على الفور إلى الخليفة يعلمه بما حدث، ويطلب منه العون والمدد.

وعندما وصل كتاب خالد إلى الخليفة رضي الله عنه كان جالسًا بين أصحابه ومستشاريه، فقرأ الكتاب بصوت مرتفع بحيث يسمعه جميع الحاضرين، ثم أرسل في طلب شاب شجاع يدعى القعقاع بن عمرو، فجاء القعقاع إلى الخليفة، وهو مسلح ومجهز للسفر، فأمره الخليفة أن يذهب إلى اليمامة كتعزيز لجيش خالد، فنظر الحاضرون إلى أبي بكر بدهشة وقالوا: "يا خليفة رسول الله أتمد قائدًا انفض عنه أكثر جنده برجل واحد؟!"،

فنظر الصديق إلى القعقاع قليلًا ثم قال: "إن صوت القعقاع بن عمرو في الجيش لخير من ألف فارس"، ثم التفت إليهم وقال: "لا يهزم جيش فيه مثل القعقاع"، مضى خالد بن الوليد بجيشه نحو العراق ومعه القعقاع بن عمرو؛ الذي عده عليه الصديق رضي الله عنه بألف فارس، وفي الطريق انضم المثنى بن حارثة بقواته فأصبح الجيش عشرة آلاف مقاتل.

وجه خالد وجهه شطر منطقة الحفير الواقعة على مقربة من الخليج الفارسي؛ مما يلي الصحراء، وكان هرمز أميرًا لهذه المنطقة من قبل ملك الفرس، وكان هرمز هذا من أعظم قادة الفرس في عصره.

ما إن حط خالد بن الوليد رحاله في المنطقة؛ حتى وجه كتابًا إلى هرمز يقول فيه: "أما بعد، فأسلم تسلم، أو اختر لنفسك وقومك الإسلام، أو الجزية، أو الحرب، وإن كانت الحرب فلا تلومن إلا نفسك فقد جئتك بقوم يحبون الموت؛ كما تحبون الحياة".

طار صواب هرمز لما قرأ رسالة خالد، وكتب إلى ملك الفرس أزدشير يخبره بقدوم المسلمين نحو العراق، ثم هبّ من ساعته ورص صفوفه وجمع جموعه، وأسرع بهم نحو موارد الماء في

الحفير، ونزل عليها قبل أن يصل إليها خالد بجيشه، ووقف هرمز في مقدمة جنده، وكان قد أضمر في نفسه شرًا لخالد، وطوى صدره على غدرة.

بدأت المعركة بمبارزة بين قائدي الجيشين، وكان هرمز محاربًا قويًا عملاقًا، معروفًا في الإمبراطورية كبطل لا يجرؤ على منازلته في المبارزة أحد، فتقدم هرمز على فرسه من بين الصفوف في الساحة التي تفصل بين العسكرين، وهتف هتاف المتحدي، وأخذ يقول: "إليّ يا خالد، ابرز لي يا ابن الوليد، لكنه قد جعل وقفته قريبًا من معسكر الفرس بعيدًا عن معسكر المسلمين".

فما إن سمع خالد بن الوليد نداءه؛ حتى ترجل عن جواده، ومضى إلى لقائه، فنزل هرمز من على فرسه وكان هذا الاجراء دليلًا على شجاعة هرمز، لأن المبارزة بين مترجلين لا تدع مجالًا للهرب؛ لكن هرمز لم يكن فارسًا كما يتخيل المرء في هذه الحادثة، لأن هرمز قبل أن يخرج للمبارزة، اتفق مع بعض رجاله الشجعان ووضعهم في الصف الأمامي قرب المكان الذي اختاره للمبارزة، وأخبرهم أنه سيبارز خالد؛ وفي الوقت المناسب سوف يناديهم، عندئذ يندفعوا ويحيطوا بالمتبارزين ويقتلوا خالد.

بدأ القائدان يتضاربان بالسيف والترس، وضرب كل منهما خصمه عدة مرات، لكن هذه الضربات لم تؤثر على أي منهما، هنا اقترح هرمز أن يلقيا بسيفيهما ويتصارعان، فألقى خالد بسيفه على الأرض وهو لا يعلم بالمؤامرة، وبدءا بالمصارعة، وبينما كان خالد يحتضن هرمز، نادى هرمز على رجاله، فاندفع هؤلاء إلى الإمام، وقبل أن يعرف خالد ما الذي يجري، وجد نفسه وهرمز معه محاطين بعدة رجال أشداء من الفرس.

الآن عرف خالد المؤامرة، وكان بدون سيفه وترسه، وهو لن يسمح لهرمز أن يتخلص من قبضته الحديدية، وبدا أنه لا مهرب من الورطة؛ ولكن بما أن خالد كان أقوى من هرمز، بدأ يدير خصمه باتجاه الرجال الأشداء بحيث لا يستطيع هؤلاء أن يضربوا ضربتهم خشية أن يصيبوا قائدهم هرمز.

هنا ثار الضجيج في صفوف الجيشين؛ فأحدهما كان مبتهجا والآخر كان فزعًا، وأثناء هذا الضجيج، كانت الأنظار متجهة إلى المتصارعين، ولم يسمع رجال هرمز وقع الحوافر التي كانت تقترب منهم، ولم يعرفوا ما الذي أصابهم، فقد سقط منهم ثلاثة رجال على الأرض بعد أن تدحرجت رؤوسهم أمامهم، قبل أن يدرك الآخرون أن عدد المتحاربين في هذا الاقتتال قد ازداد رجلًا واحدًا، إنّ هذا الرجل الإضافي هو الذي عدّه الصديق بألف فارس.

لقد رأى القعقاع رجال هرمز وهو يندفعون نحو خالد، فأدرك بسرعة غدر القائد الفارسي والخطر الذي يتهدد خالدًا، ولم يكن لديه وقت ليخبر أحدًا بذلك؛ ولم يكن لديه ليشرح أو ليجمع المقاتلين، فامتطي صهوة حصانه وانطلق من مكانه انطلاق السهم، وقذف بنفسه في الساحة في اللحظة المناسبة، وانصب على رجال هرمز انصباب الصاعقة، وصرع القعقاع وحده العصبة الغادرة، وألقوهم جثثًا هامدة في ساحة المعركة على مرأى من الفرس ومسمع، فلم يجرؤ أحدٌ منهم على أن يحرك ساكنًا، وبعد دقيقة كان هرمز ممددًا وهو الآخر على الأرض بدون حراك بعد أن قتله خالد.

ولما وضعت الحرب أوزارها؛ نظر خالد إلى القعقاع بن عمرو وقال: "لله در الصديق؛ فإنه

أعرف منا بالرجال، لقد صدق حين قال إن جيشًا فيه القعقاع بن عمرو لا يهزم".

- عبرة

لله در خليفة رسول الله الصديق أبو بكر رضي الله عنه حينما اكتشف في وقت مبكر عظمة القعقاع ومقدرته الحربية، فبعثه وحده مددًا لخالد بن الوليد في العراق، وقال عنه: "لا يهزم جيش فيهم مثل القعقاع"، ولقد أثبتت الأيام صدق فراسة أبي بكر رضي الله عنه كما جاء في هذه المعركة وما لحقها من معارك.

أما خالد فقد ضرب أروع الأمثلة في البطولة ورباطة الجأش فقد أجهز على قائد الفرس وحاميته من حوله فلم يستطيعوا تخليصه منه، ثم ظل يجالدهم حتى وصل القعقاع وقضى عليهم، إن ما قام به القعقاع وخالد رضي الله عنه لأصدق دليل على أن الله تعالى قد أودع في الجسم الإنساني طاقة ضخمة، ولكن الإنسان العادي لا يبذل إلا جزءًا من طاقته، ولا يمكن أن يوجد من يبذل طاقته الكاملة في القتال إلا المسلمون الذين صدقوا مع إسلامهم، لأنهم ينسون أنفسهم تمامًا في سبيل الدفاع عن دينهم وأمتهم الإسلامية، وهؤلاء يتفاوتون في بذل الطاقة حسب قوة إيمانهم.

وهذا بطبيعة الحال لا يغنى عن التدريب البدني الطويل المتواصل، ولكن هذا التدريب متوافر لدى العرب منذ الجاهلية لكثرة ما يقوم بينهم من الحروب، وجاء الإسلام فحث المسلمين على ركوب الخيل والرماية والسباحة وغير ذلك من إعداد القوة البدنية، مع ما رسخ في قلوبهم من العقيدة الإيمانية التي تجعل هدف المسلم الأعلى ابتغاء رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية، فتجردوا لله تعالى ونسوا ذواتهم في سبيله جل وعلا، فأتوا بالعجائب، ودوخوا الأمم، وأقاموا دولة الإسلام العظمى، لأنهم بلغوا الغاية في الأمرين: التدريب البدني، والقوة الروحية، فأما حين يحصل الضعف والخلل في الأمرين أو أحدهما فإن الإنسان لا يبذل إلا جزءًا من طاقته ويهدر بقيتها لضعف الدوافع التي تدفعه لإبراز الطاقة المدخرة.

بطل الريف

إن الإسلام يشد المسلمين إلى الآخرة لتهون عليهم الحياة الدنيا، فإذا عرفوا الهدف وطبقوه انتصروا على أعدائهم، لأن وصولهم إلى هذا الهدف يستدعي تسابقهم إلى العيش في سبيل الله تعالى، والموت في سبيله، أما أعداؤهم فإن أهدافهم دنيوية قريبة، وإن الوصول إليها يستدعي تنافسهم على البقاء، والمنطق الطبيعي في ذلك أن يحاول كل واحد منهم أن يدرأ الخطر عن نفسه، ويتقي بغيره، بينما المنطق بالنسبة للمسلمين الذين يعرفون الهدف السامي أن يفدي كل واحد منهم إخوانه بنفسه ليسبقهم في الوصول إلى الهدف، ومن هنا كان المسلمون الحقيقيون المدركون لأهداف دينهم المطبقون لمناهجه لا يمكن أن يُغلبوا بشكل نهائي، وإنما قد يصابون بانتكاسات مؤقتة بسبب أخطاء يرتكبونها ثم يعودون لمحاولة بلوغ الأهداف السامية كما كان.

نحن في هذه السطور نعيش سويًا مع رجل عملاق من أعظم عمالقة التاريخ قاطبة، إنه المؤسس الحقيقي لفكرة حرب العصابات لصد الأعداء، الرجل الذي جاء إليه المناضل تشي جيفارا إلى القاهرة، وقال له: "أيها الأمير لقد جئت إلى القاهرة خصيصًا كي أتعلم منك"، إنه أمير الريف المغربي العملاق القاضي البطل محمد عبد الكريم الخطابي رحمه الله، هذا الرجل الذي بث الرعب في قلوب أوروبا الصليبية قرابة عقد من الزمان.

فلعلك أيها القارئ الكريم قد نزع بك الشوق إلى سماع طرف من أخبار هذا القاضي المغوار، والوقوف على بعض عجائبه؛ فإليك شيئًا منها كما جاءت في كتب السير والتراجم، فتعالوا بنا لنعيش سويًا في هذه السطور مع هذه الشجاعة الرائع، والبطولة النادرة، نحن على مواعد مع وقائع كالأساطير، والأساطير خيال لم تحدث، ولكن نعيش الآن مع وقائع حدثت بالفعل.

تقاسمت إسبانيا وفرنسا النفوذ في بلاد المغرب، التي كانت تُعاني من ضعف وانقسام وصراع داخلي، واستعانة بالقوى الخارجية، وترتَّب على هذا التقسيم أن صار القسم الشمالي من مرَاكش خاضعًا للسيطرة الإسبانية، وهذا الجزء ينقسم بدوره إلى قسم شرقي يُعرف ببلاد الريف، وغربي يُعرف بالجبالة، وتمتدُ بلاد الريف بمحاذاة الساحل لمسافة تبلغ ١٢٠ ميلًا، وتمتدُ عرضًا لمسافة ٢٥ ميلًا، وتسكنها قبائل ينتمي معظمها إلى أصل بربري، تأتي في مقدمتها قبيلة ورياغل، التي ينتمي إليها الأمير محمد عبد الكريم الخطابي رحمه الله.

كانت قبيلة ورياغل أكبر قبائل البربر في بلاد الريف، وكان زعيم القبيلة الشيخ عبد الكريم الخطابي قد رفض تقديم الولاء للمندوب السامي الإسباني الجنرال جوردانا؛ فعزل الإسبان ابنه محمدًا عن قضاء مدينة مليلة وأُودع السجن، ليضغطوا على أبيه حتى يكف عن الجهاد، وذلك لأنهم كانوا يريدون أن يتوسعوا ويخرجوا من سبتة ومليلة - وهم إلى الآن بأيديهم وهذه من المصائب التي لا يعرفها أكثر المسلمين – ليحتلوا باقي مناطق المغرب الأقصى الشمالية، ولقد حققوا مع الابن الذي فاجأهم بألوان من العزة والثبات، وأخبرهم أنه لا مناص له ولا لأبيه إلا أن يقاتلوا مع الدولة العثمانية، وفي أثناء اعتقال الأمير محمد قتل والده في معركة مع الإسبان سنة ١٩٢٠م، فبايع أفراد قبيلته ولده محمدًا زعيمًا عليهم، وبعد ذلك بقليل أطلق سراحه من السجن.

ابتدأ الأمير القاضي محمد عبد الكريم الخطابي سلسلة المعارك مع الإسبان وكان معه أخوه وعمه عبد السلام، وقد أعلن الجهاد في سبيل الله، وجمع الأمير محمد أنصاره؛ فانضمت إليه

كثير من قبائل الريف المغربي، وكان ذلك سنة ١٣٣٩ هجرية= ١٩٢١م، فابتدأهم الأمير بمناوشات أسفرت عن انتصاره؛ وطرد الإسبان من حاميتين مهمتين، بل كانت إحداهما ذات موقع استراتيجي فريد.

فغضب الإسبان وأرسلوا له جيشًا من ستين ألف جندي مُجهزين بالأسلحة الحديثة، والمدفعية، وطائرات، وعتاد ضخم تحت قيادة الجنرال السفاح سلفستر قائد قطاع مليلة، ولقد حذروا هذا الجنرال قائد الحملة من قوة الخطابي وبأسه فاستهزأ قائلًا: "أنا ذاهب لأمسح حذائي في بلاد الريف"!

ولما لا وقد كانت إسبانيا آنذاك ثالث قوة عسكرية في أوروبا، وهي وسائر حليفاتها الأوربيات قد انتصرت في الحرب العالمية الأولى مما جعل زهوها وغرورها يعظم ويتضاعف.

زحف الجنرال الإسباني سلفستر بقواته نحو بلاد الريف؛ ليحكم السيطرة عليها، ونجح في بادئ الأمر في الاستيلاء على بعض المناطق، وحاول الأمير الخطابي أن يحذر الجنرال من مغبة الاستمرار في التقدم، لكن الجنرال المغرور لم يأبه لكلام الأمير، واستمر في التقدم لعله يفوز باحتلال بلاد الريف.

لم تصادف هذه القوات في زحفها في بلاد الريف أيَ مقاومة، واعتقد الجنرال أن الأمر سهلٌ، وأعماه غرورُه عن رجال الأمير الخطابي الذين يعملون على استدراج قواته داخل المناطق الجبلية المرتفعة، واستمرَّت القوات الإسبانية في التوغل في الصحراء، وتحقيق انتصارات صغيرة؛ حتى احتلت مدينة أنوال في ٧ رمضان ١٣٣٩ هجرية = ١٥ مايو ١٩٢١.

وفي هذه المدينة كان يكمن لهم الأمير الخطابي في ثلاثة آلاف مجاهد، ولما استقر الجنرال في المدينة، بدأ رجال الخطابي هجومهم على كل المواقع التي احتلها الإسبان، وحاصروا هذه المواقع حصارًا شديدًا، وفشل الجنرال في ردَ الهجوم الكاسح، أو مساعدة المواقع المحاصرة، وأصبحت قواته الرئيسية في مدينة أنوال مهددة بإبادة شاملة بعد أن حاصرها وطوقها رجال الخطابي، وحين حاول الجنرال الانسحاب بقواته اصطدم بقوات الخطابي في ١٦ من ذي القعدة ١٣٣٩ هجرية = ٢٢ يوليو ١٩٢١م في معركة حاسمة عُرفت في تاريخ بمعركة أنوال.

كانت الهزيمة ساحقة للقوات الإسبان؛ حيث أبيد معظم الجيش الإسباني، وأسر الباقي حتى لم يسلم من هذا الجيش الضخم سوى ستمائة مقاتل، وغنم الخطابي عشرين ألف بندقية، وأربعمائة رشاش، ومليون طلقة، وطائرتين، وتفرق القتلى على مساحة خمسة أميال.

وكان وقع الهزيمة في أوروبا مدويًا، واستغل الخطابي الفرصة فطهر الريف المغربي من الإسبان وحاصرهم في سبتة ومليلية فقط وهذا باق كذلك إلى يوم الناس هذا، وأقام إمارة إسلامية في بلاد الريف.

كان من إثر هزيمة أنوال المدوية للإسبان أن قام انقلاب عسكري في إسبانيا بقيادة الجنرال بريمودي ريفيرا سنة ١٩٢٣م، فطلب الجنرال الجديد التحالف مع دول الصليبية، فاجتمع لهم مائة ألف مقاتل وتوجهوا في سنة ١٩٢٤م إلى عاصمة الخطابي أغادير وحاصروه ثلاثة أسابيع، فأظهر الخطابي ومن معه بطولات رائعة جدًا ونادرة في وقت عزت فيه البطولة، وانعدم النصر أمام الغرب في العصر الحديث، واستطاع الخطابي ومن معه إبادة معظم جيش التحالف، واضطروا لرفع الحصار عن عاصمة الخطابي.

كان على أوروبا التحرك من جديد بشكل أكبر لوقف هذا النمو المطرد للخطابي ودولته، فأرسل المارشال المتجبر الفرنسي ليوتي الذي كان حاكمًا في بلاد الجزائر إلى باريس رسالة يقول فيها: "إن انتصار المسلمين في الريف المغربي على الإسبان، وفي سواحل البحر المتوسط يعني إعادة إحياء الدولة العثمانية من جديد، وفتحًا جديدًا لأوروبا من قبل المسلمين، وهذا أمر لا يمكن القبول به".

هنا تشكل الحلف الصليبي الأقوى من الفرنسيين والإسبان بقرابة نصف مليون مقاتل، ومعهم مائة وخمسين ألفًا من الخونة الذين انضموا للصليبيين في القتال ضد إخوانهم في الدين والوطن، وكان الجيش الصليبي مدعومًا بالأسطول البريطاني، وكان أعظم أسطول بحرى في العالم آنذاك، وكانت الطائرات التي حاربته منتظمة في أربعة وأربعين سربًا.

في حين كان تعداد المجاهدين ستين ألفًا، وما أن انتهى شهر رمضان سنة ١٣٤٣ هجرية = ١٩٢٥م، حتى اندلع القتال الشامل، وصارت الطائرات تقذف الخطابي وجنده بأنواع القنابل وهو صابر محتسب في خندقه، وأوقع بهم خسائر جسيمة، وصبر صبرًا جميلًا، حتى إن صحفيًا أمريكيًا كان موجودًا آنذاك في ساحة المعارك يتابعها وهو فانسن شين فيقول عن الخطابي:

"دخلت على عبد الكريم في خندق أمامي، والطائرات الإسبانية والفرنسية تقذف المنطقة بحمم هائلة فوجدته مبتسمًا مرحًا مقبلًا يضرب ببندقيته الطائرات، فتعجبت من هذا الرجل الذي استطاع أن يحافظ على إيمانه وعقيدته في خضم الظروف المحيطة به، وكنت أتمنى أن أمكث أكثر فأكثر مع هذا الرجل العظيم الذي تحيطه هالة من الوقار والجلال، وأقارن به ساسة أوروبا التافهين المشغولين بأمور تافهة فلا أكاد أجد وجهًا للمقارنة، وتمنيت أن أظل أكثر مما ظللت مع هذه الظاهرة البشرية الفريدة التي تأثرت بها أيما تأثر".

وفي هذا الوقت حقق المجاهدون نجاحًا باهرًا في أول القتال، واخترقوا الصفوف الفرنسية عند قطاع تازة إلى الشرق من فاس، على الرغم من صغر حجم المجاهدين، فذعر الفرنسيون بشدة وطلبوا مساعدة الأسطول البريطاني، وقاموا بهجوم عكسي في صفر سنة ١٣٤٤ هجرية، ولكن الأمطار الشديدة أوقفت القتال، وخلال ذلك الوقت حاول الأمير الخطابي إثارة القبائل في جبال الأطلس والقاطنة خلف الخطوط الفرنسية، وذلك لتخفيف الضغط على المجاهدين، ولكنهم خافوا من انتقام الفرنسيين فلم يستجيبوا لدعواته.

هنا حاول الخطابي القيام بعمل عسكري سريع وقوي ضد الحلف الصليبي ليجبر بذلك القبائل على الاشتراك معه، لكنه فشل في هزيمة العدو هزيمة نكراء.

لجأت فرنسا إلى المكر، فأغرت السلطان المغربي بأن يُعلن أن الخطابي أحد العصاة الخارجين على سلطته الشرعية؛ ففعل السلطان ما أمره به، وبدأ رجال السلطان يوزعون منشورات تقول إن القتال مع الخطابي ليس من الجهاد.

هنا لجأ الأمير إلى المفاوضات مع الحلف الصليبي لأن قواته قد أنهكت في القتال المتواصل، فاستمرت المفاوضات ثلاثة أسابيع، ولم تسفر عن شيء، اعتبر الفرنسيون والإسبان هذا التراجع من الخطابي دليلًا على ضعف مركزه، وبداية انهياره؛ فأوقفوا المفاوضات، ثم قاموا بهجوم فوري في غاية الشراسة لم يصمد له جيش الخطابي.

وكان من نتيجة ذلك أن بدأت الخسائر تتوالى على الخطابي في المعارك التي يخوضها، وتمكن

الإسبان والفرنسيين بصعوبة من احتلال أغادير عاصمة الأمير الخطابي، ثم تمكنت هذه القوات من الاستيلاء على حصن ترجست، الذي اتخذه الأمير مقرًا له بعد سقوط أغادير في ١١ من ذي القعدة ١٣٤٤ هجرية = ٢٣ من مايو ١٩٢٦م.

كان الأمير يرفض الاستسلام رفضًا باتًا لكنه لما استشار المائتين مجاهد الذين بقوا معه من جيشه أشاروا عليه بحقن الدماء، فالطائرات كانت تقذف بالغازات السامة والقنابل تقتل الرجال والنساء والأطفال، فأشاروا عليه بعقد صلح مشرف والبقاء في البلد والاستعداد للقتال في أقرب فرصة، وعندما سلم الأمير نفسه في أواخر شهر ذي القعدة، اتفقت فرنسا وإسبانيا على نفيه إلى جزيرة رينيون في شرق إفريقيا؛ وبذلك توقفت عمليات المقاومة الكبرى في بلاد المغرب.

- عبرة

يا سادة، لقد نصر الله عبده محمد عبد الكريم الخطابي نصرًا عجيبًا في وقت غريب، وفي زمن لا يتوقع فيه أحد أن ينتصر المسلمون على جيش أوربي مسلح بسلاح حديث، لكن الحماسة الإيمانية الدافقة التي كانت في قلب الخطابي وجيشه، كانت وراء كل هذه الانتصارات الهائلة، وقبل كل ذلك نصر الله تعالى له أولًا وآخرًا قلب كل المعادلات، وأخرس كل الألسنة.

يا شباب، لقد جرت هذه الوقائع في العصر الحاضر وهي لا تكاد تصدق؛ لأن أغلب المعارك التي دخلناها مع الغرب الصليبي آنذاك كنا ننهزم فيها على وجه مهين، فأن ينهزم جيوش التحالف الذين خرجوا ظافرين من الحرب العالمية الأولى على هذا الوجه فإن هذا يستدعي الفخر بقصة حياة هذا الرجل الأسطورة محمد عبد الكريم الخطابي.

نمر الصحراء

إن الحديث عن هذا العملاق المجاهد يملأ النفس إيمانًا وثقة بنصر الله تعالى لعبيده، حيث يرزقهم من آونة إلى أخرى برجال عظماء يعطون للإسلام بلا حدود، ويقدمون عصارة جهدهم ووقتهم وحياتهم لهذا الدين، وإذا أردت أن تعرف شيئًا عن أهلهم وأولادهم ووظائفهم ومناصبهم لم تظفر بشيء ذي بال، هذا من أجل إخلاصهم ودأبهم وعطائهم كل شيء لدينهم فماذا بقى لغيره؟!

فالله الله في أمثال هؤلاء، فلا بد للأجيال القادمة أن تطلع على سيرتهم، وتقف على أعمالهم وآثارهم، وتنهل من معين جهادهم وتضحياتهم، والناشئة اليوم لا تعرض عليهم سير العظماء على الوجه الذي ينبغي وتبرأ به الذمة، إنما يعرض لهم كل تافهة من الروبيضات المسمين نجومًا وأبطالًا.

ونحن هنا نعيش مع قصة نجم من النجوم لمع في سماء الإسلام، عاش لدينه ولربه ولرسوله ومات على ذلك، نحن على موعد مع نمر الصحراء القائد العثماني الباسل فخر الدين باشا ودفاعه الخالد عن قبر الرسول ﷺ، فتعالوا بنا لنعيش سويًا في هذه السطور في رحاب هذه الملحمة الخالدة الفريدة.

أرسلت الدولة العثمانية في ٢٣ مايو ١٩١٦م القائد العثماني الكبير فخر الدين باشا إلى المدينة المنورة ليدافع عن الأرض المقدسة من احتلال الإنجليزي، وفور وصوله إلى المدينة المنورة أعلن رجل الإنجليز الشريف حسين تمرده بمساعدة الإنجليز في ٣ يونيو، وبدأ الشريف حسين مع أولاده الأربعة بتخريب الخط الحديدي، وخطوط التلغراف المحيطة بالمدينة، وفي ليلة ٦ يونيو هاجموا المخافر في المدينة، إلا أنَّ فخر الدين باشا كان لهم بالمرصاد فردهم على أعقابهم.

كان عدد المتمردين خمسون ألف، وعدد الجنود العثمانيين في كافة أراضي الحجاز حوالي خمسة عشر ألف، ونتيجة لسوء تدبير والي مكة غالب باشا هاجم المتمردون جدة ثم مكة المكرمة ثم الطائف، واستولوا على معظم الأراضي التي خارج سيطرة فخر الدين باشا.

وقد قاوم فخر الدين قوات الإنجليز دفاعًا عن قبر الرسول الأعظم ﷺ، ورغم مكر الأعداء، وتخريب الخط الحديدي للحجاز؛ وصعوبة إيصال العتاد والذخيرة لقواته، وتسميم آبار المياه، وانقطاع المؤن وانعدم الزاد، اعتمدت القوات العثمانية على التمر وصنعوا الخبز من طحين نوى التمر، واضطر العديد من السكان إلى الرحيل عن المدينة.

كان فخر الدين باشا من ناحية يدافع عن المدينة ومن ناحية أخرى يبحث عن الحلول من أجل مواجهة المشقات، وكانت أصعب المراحل هي مرحلة اقتراب الأعداء من قلعة المدينة وإطباق الحصار عليها، وزاد الأمور صعوبة غزو الجراد للمدينة.

جمع فخر الدين رجاله وبين لهم أن الرسول ﷺ والصحابة الكرام قد تعرضوا لغزو الجراد، وأن الرسول الأعظم ﷺ ذكر بأن الله أحل أكل ميتتين ودمين، أما الميتتان الجراد والسمك وأما الدميان الطحال والكبد، وأن لا فرق بين الجراد والعصفور فكلاهما يأكلان الأخضر والنبات

النظيفة، وأن الله أكرمهم بشرف الدفاع عن قبر الرسول ﷺ وأن هذه المشقة منحةٌ من الله لهم.

وبناءً على ذلك عاش فخر الدين ورجاله على طعام الجراد ولم يرض تسليم المدينة للأعداء، وقد أعلنها للعالم أنه سيدافع عن المدينة حتى آخر جندي وآخر رصاصة، وآخر قطرة دم.

وفي ٣٠ أكتوبر ١٩١٨م وقعت الدولة العثمانية ودول الحلفاء على معاهدة موندروس لوقف إطلاق النار مع إعلان هزيمة العثمانيين، وتسريح الجيش العثماني الكبير، وكان يقتضي على فخر الدين باشا أن ينسحب من المدينة ويسلم نفسه لأقرب جيش من قوات التحالف، إلا أن فخر الدين باشا صعد المنبر وأعلن مرة أخرى أنه هو وقواته ملتزمون بالدفاع عن الروضة الشريفة حيث قال: "أيها الناس، ليكن في علمكم أن الجنود الأبطال قرروا الدفاع عن المدينة حتى الموت".

ثم أتته الأوامر من إسطنبول بالتخلي عن المقاومة والاستسلام، هنا ضرب فخر لدين مثلًا رائعًا، فقال لرجاله: "تأمرنا الحكومة بتسليم مفاتيح المدينة للجنرال الإنجليزي، لكن الأولى من ذلك أن نُقاتل بسلاحنا ونموت على ذلك".

رفض فخر الدين الأمر وظل يقاوم ويقاتل الإنجليز، ولكن في النهاية تقطعت السبل بفخر الدين ورجاله في المدينة وانعدم الزاد والذخيرة، وجاءت الأوامر بالاستسلام أو أن قوات التحالف سوف تحتل العاصمة إسطنبول، أبى فخر الدين باشا أن يسلم سلاحه للعدو، بل ذهب إلى قبر الرسول ﷺ ليلقي عليه النظرة الأخيرة، ودعا هناك واعتذر وبكى وترك السلاح إلى جانب الروضة الشريفة، وغدار المدينة إلى العاصمة، وانتهت بذلك قصة ملحمة من ملاحم الصمود في العصر الحديث.

- عبرة

يا شباب، إن الحق يحتاج إلى عزائم تنهض به، وسواعد تمضي معه، وقلوب تحنو عليه، وأعصاب ترتبط به، إنه يحتاج إلى الطاقة البشرية؛ الطاقة القادرة القوية، والطاقة الواعية الاملة، إنه يحتاج إلى جهد بشري، لأن هذه سنة الله تعالى في الحياة الدنيا وهي سنة ماضية: {فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا} (فاطر: ٤٣).

وهكذا يتضح أن سنة التدافع من أهم سنن الله تعالى في كونه وخلقه، وهي كذلك من أهم السنن المتعلقة بالتمكين للأمة الإسلامية، وما على الأمة إلا أن تعي هذه السنة؛ لتسفيد منها وهي تعمل لعودة التمكين الذي وُعدت به من الله رب العالمين، إن من الضروري للأمة الإسلامية أن تعي سنة الله تعالى في دفع الناس بعضهم ببعض لتدرك أن سنة الله تعالى في تدمير الباطل أن يقوم في الأرض حق يتمثل في أمة، ثم يقذف الله تعالى بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق.

أعظم ملحمة في العصر الحديث

في هذه السطور نرسم بالكلمات بحروف من ذهب سيرة مجاهد من أعظم المجاهدين في تاريخ الإسلام، جاء في زمن اشتدت فيه حاجتنا إلى المجاهدين العظماء، تعرض للشهادة في مواطنها، وأبى إلا أن يغترف من كأسها الطاهر المطهر، لكنه مات على فراشه بعد ملحمة طويلة، ومعارك جليلة أذاق فيها الروس القياصرة الذل والهوان، وهزموا أمامه مرارًا، هذا وروسيا آنذاك من القوى العالمية في الطبقة الأولى، وكانت في أوج عنفوانها وغطرستها، فقد هزمت نابليون وتقدمت حتى دخلت باريس عام ١٨١٦م.

نحن الآن مع بطل من أعظم أبطال الإسلام في العصر الحديث، لقد ضرب أروع الأمثلة في البطولة والتضحية والفداء، بشجاعته أثبت لدينه الولاء، بدم الروس كتب لدينه قصة من أعظم قصص الوفاء، فتعالوا بنا لنستمتع بسطور تروي لنا عن قصة عملاق صنع بشجاعته أعظم الملاحم الحربية في العصر الحديث، بل هي من أعظم ملاحم التاريخ قاطبة، إنها قصة ملحمة الدفاع عن بلفن الخالدة، وبطل هذه الملحمة؛ هو بطل الملاحم المغوار الذي سطر التاريخ اسمه بحروف من نور في سماء صافية لا للغبار فيها، فهو قاهر الروس عثمان باشا نوري رحمه الله.

في ٢٤ إبريل ١٨٧٧م أعلنت الإمبراطورية الروسية الحرب على الدولة العثمانية - وهي الحرب التي عرفت في تاريخ باسم الثالث والتسعين - ، فتلقى الغازي عثمان باشا أمرًا بالتوجه بفيلقه إلى مدينة بلفن - وهي مدينة في بلغاريا - ، وبدأت الحرب في السابع من يوليو ١٨٧٧م، ولم يكن في بلفن أية استحكامات عسكرية دفاعية، فقام بإنشاء هذه الاستحكامات من التراب وغيره من طبيعة الأرض، وأعلن أمام العالم للروس: "إلى هنا فقط ولن نسمح لكم بالتقدم أبدًا".

وفي اليوم الثاني هجم الروس بكل قوة لطرد العثمانيين، لكنهم فشلوا لقد كان الباشا يتفقد بالحصان كل جهة، ويذهب إلى نقاط المعركة، يبث الشجاعة في الجنود، وبعد نهاية معركة استمرت اثنتي عشرة ساعة هزم الروس؛ واضطروا للانسحاب، ووصل عدد قتلى الروس عشرة آلاف مقاتل، وبعد عشرة أيام من تلك المعركة قام الروس بالهجوم مرة أخرى في الثامن عشر من يوليو، وبلغ عددهم ستين ألفًا، بدأت المعركة الدامية مع الفجر، ومع غروب الشمس شتت القوات العثمانية الجيش الروسي، بعد أن وصل عدد قتلهم لأكثر من عشرين ألفًا.

وفي الحادي عشر من سبتمبر ١٨٧٧م حقق عثمان باشا أعظم نصر له على الروس، ورغم أن عدد جنود الروس في تلك الحرب فاق مائة ألف، ومدافعه أكثر من ٤٣٢ مدفع، وبلغ عدد قتلى الروس في بلفن الثالثة أكثر من خمسين ألف مقاتل، وبعد هذه الانتصارات المتوالية قلّده السلطان الجبل عبد الحميد الثاني لقب الغازي.

وحين هُزم الروس المرة الثالث، أدركوا أنهم لن يتمكنوا من الاستيلاء على بفلن عن طريق الحرب، لأن الخسائر قد وصلت بحلول منتصف سبتمبر قرابة تسعين ألف مقاتل، فقرروا فرض حصار خانق على المدينة، وقطع الروس خطوط التلغراف والاتصالات التي تربط المدينة بالعالم الخارجي.

ورغم أن في البلدة منازل جميلة جدًا لاستراحة عثمان باشا، إلا أنه لم يفصل نفسه عن الجنود، وأقام في خيمة بمعسكر الجيش، ولما تم حصار المدينة كانت تتم هناك حرب استنزاف يومية، ففي ٢٢ من سبتمبر بدأ قصف مدفعي مكثف على المدينة، واستمر عدة أيام بضراوة شديدة، وفي أحد الأيام وبينما الباشا يوجه التعليمات إلى الجنود، إذ بقذيفة مدفعية تسقط بجوارهم، فغطت المنطقة بالغبار الكثيف، وانبطح الضباط جميعًا على الأرض، ولما زال الخطر نهض الضباط، فرأوا الباشا واقفًا في مكانه هادئًا.

فسأله أحد الضباط بحيرة وقال: "سيدي الباشا، لقد انفجرت القذيفة بجانبك، ألم تشعر بالخوف؟"، فأجاب الباشا بصوت هادى: "لقد كتب الله سبحانه أسماء المقتولين في المعركة اسمًا اسمًا على كل قذيفة من القذائف، وحين يأتي أجل أحدنا ستقتله قذيفته، وأسماؤنا لم تكن على أي جزء من تلك القذيفة، لذا سلمنا جميعًا، ولهذا السبب لا يُخشى من قذيفة العدو".

كان الباشا البطل عديم الحيلة في هذا الحصار الخناق فهو بحاجة إلى الدعم والمساعدة، وشدة البرد تزداد تدريجيًا، والذخيرة والدواء والطعام على وشك الانتهاء، هنا رأى عثمان باشا أن من المناسب القيام بعملية اقتحام بدلًا من الجوع والاستسلام، واستدعى الباشا علماء البلغار ووجهاءهم لتأمين الجرحى والمرضى الذين سيبقون في بفلن، وعددهم ألف وخمسمائة شخص، فأقسموا على الصليب والكتاب المقدس أنهم سيحمون الجرحى المتخلفين عن الهجوم.

قبل التحرك خاطب البطل عثمان باشا جنوده قائلًا: "أبنائي الجنود، سنقوم بحملتنا الأخيرة بإذن الله، ونحن في شهر ذي الحجة، إن المسلمين في العالم الإسلامي ينحرون أضاحيهم اليوم، وأما نحن ليست لدينا أضحية لننحرها ونؤدي بذلك واجبنا الديني، وأنا أقترح عليكم أن نضحي بدماء العدو، أعانكم الله".

وفي صباح العاشر من ديسمبر ١٨٧٧م قسم البطل جيشه إلى قسمين متساويين، وهجمت القوة الأولى على المتاريس الروسية، ساعية إلى شق خط الحصار، أما القوة الثانية، فكانت ستدعم الهجوم الأول بهجوم آخر بعد ساعتين.

انطلق الباشا كالصاعقة نحو العدو، واخترقت القوة الأولى التي كانت تحت قيادة الباشا نفسه خط الجبهة، وهاجمت بعزم وحماسة عظيمين المواقع الروسية، وسيطرت بالحراب على مواقع عسكرية تدافع عنها القوات الروسية، لكن الروس بفضل التعزيزات المستمرة استردوا المواقع والمدافع.

وفي وقت الظهيرة تعثر جواد الباشا لإصابته بشظية ناجمة عن نيران المدفعية الروسية، وأصيب الباشا هو الآخر في قدمه اليسرى، وكانت زعامة الباشا وقوته المعنوية تحمي بفلن طوال خمسة أشهر، فأصاب الذعر القوات لحظة سماعها خبر موت عثمان باشا، وبدأت تتراجع، فصد الاقتحام، وحوصر جيش بلفن من الأمام والخلف على حد سواء، ولم يكن من السهل على الباشا أن يستسلم، وينتهك كرامة الجيش الذي يمثله، وقد ظل يقاتل وهو جنوده، حتى سقط معظم جيشه، وقد غمر الحزن العميق قلب الباشا، لكن لم يعد هناك أملٌ في الخلاص، وفي النهاية قرر الباشا الاستسلام بعد تشاوره مع القادة المقربين له.

وبينما كان الباشا ينقل بمركبة إلى مدينة بفلن، إذ بجرندوق نيقولا شقيق القيصر يعدو على حصانه وقد اقترب من العربة، ومد يده وضغط بحرارة على يد الباشا قائلًا: "أهنئك على دفاعك

عن بلفن، لقد كتبت واحدة من أعظم الملاحم التاريخية، وقام الضباط الروس المحيطون به بتحية عثمان باشا".

وقال الجنرال الروسي الشهير أسكوبالاو لما رأى عثمان باشا: "هذا الوجه، وجه قائد عظيم، وأنا سعيد غاية السعادة لرؤيتك"، وقال: "عثمان البطل قائد منتصر، وسيظل منتصرًا رغم استسلامه!".

وبينما كانت مركبة الباشا المكشوفة في طريقها نحو معسكر الروس بمدينة بوغوت إذ بفرقة كزاك تصل وتخبرهم بمجيء الإمبراطور إلى بفلن، وأنه ينتظرهم هناك؛ فعادوا به مرة أخرى إلى البلدة، واستقبل عثمان باشا عند وصوله إلى باب المنزل حيث القيصر بهتاف الضباط الروس المنتظرين عند الباب، وكان القيصر ينتظر الباشا على أحر من الجمر، وسأله مترجمه: "إلى أين كنتم تذهبون يا باشا، ألم تكونوا على علم بأن جند الروس قد أحاطوا بكم من كل جانب؟"،

أجاب عثمان باشا: "كنت أدرك هذا، لكنني كنت سأقتحم جندكم في سبيل الوصول إلى أي مكان أستطيع الوصول إليه".

قال له القيصر: "ولما لم تدع سلاحك؟"،

قال الباشا: "أرسلتني دولتي هنا للحرب ولم تقل لي اترك سلاحك، أينما رأيت عدوك ، فأحيانًا يُمكن إحراز النصر رغم كثرة العدو، كما هو الحال عند حربنا معكم".

بعد أن استمع القيصر إلى كلمات الباشا بإعجاب عظيم، قال: "عظيم قائد مثلك لا يؤخذ سيفه، احمل سيفك هنا وفي روسيا، ولسوف ترى أنك تستقبل في روسيا استقبال مشير روسي"، رفض الباشا طلب القيصر لذهب إلى روسيا، وقال: "بل أذهب إلى إسطنبول وإلى سلطاني العظيم"، وهناك قوبل بهتاف وحفاوة عظيمين من الشعب وأطراه السلطان عبد الحميد قائلًا: "أقبل يا عزيزي عثمان، بارك الله فيك أيها البطل العظيم".

- عبرة

يا شباب، هذا موقف ينبض بعزة الإيمان، ورسوخ اليقين في قلوب العظماء في تاريخنا الحديث، ففي سير هؤلاء الأسود المغاوير النور وشعاع الذي يضيئ لنا ظلمات الليل البهيم، فحياتهم مدرسة تربوية سامية عالية، ترسم لنا منهجًا كاملًا كريمًا في جميع جوانب الحياة، تحلق بنا ناحية الفردوس المرجو في الدنيا والآخرة.

يا شباب، هكذا كان أبطال الإسلام أعزَةَ باعتزازهم بدينهم، واهتمامهم بأمور إخوانهم المسلمين، فليس من شأن المؤمن الحق أن ينام قرير العين هادئ البال، وأن ينعم بالطيبات والأمن والرحلة وجنود المسلمون يقتَلون ويشرَّدون ويعذبون، وتُملأ بهم السجون، وينالون فيها أنواع الإذلال والتعذيب، ولقد كان عثمان باشا رحمه الله تعالى صورة مشرقة في وسط الركام أبتْ إلا أن تلقى الله عز وجل مقبلة غير مدبرة، فرحمه الله رحمة واسعة، وجعل مسيره هذا طريقًا له إلى الجنة.

لقد نفد الرصاص مني يا جدتي

إن السر في عظمة المقاتل الذي يقاتل في سبيل إعلاء كلمة لا إله إلا الله أنه أحرص على الموت مثل حرص أعدائه على الحياة، وكان هذا هو السر في عظمة هذا البطل المغوار، فإن من يرى المجاهدين وهم يقاتلون لا يستطيع أن يصدق نفسه من أول وهلة، فهو يرى رجالًا لا يقاتلون من أجل الفوز والنصر فحسب، بل يقاتلون من أجل الفوز بالشهادة فكل منهم يبحث عن الجنة أينما كانت، وكيفما كان الطريق إليها شاقًا وصعبًا وشعارهم في ذلك الله والجنة، لذا يجب علينا أيها الأخوة أن يكون شعارنا دائمًا الله والجنة.

كانت الدولة العثمانية قد خرجت خاسرة من الحرب العالمية الأولى منهوكة القوى بعد أن فقدت فيها الملايين من خيرة شبابها، هذه الحرب التي لم تكن الدولة العثمانية مستعدة لها لا من الناحية الاقتصادية؛ ولا من الناحية العسكرية، بل دفعتها إليها حماقة جمعية الاتحاد والترقي، فبعد أن تراجعت الجيوش العثمانية على كل الجبهات القتال، بدأت جيوش الحلفاء بالاستيلاء على المدن العثمانية المهمة، ومن هذه المدن كانت مدينة أزمير، وكان من نصيبها دخول الجيش اليوناني إليها واحتلاله لها.

بدت طلائع الجيش اليوناني في يوم ١٤ مايو ١٩١٩م من التقدم نحو المدينة، وانتشر الخبر في المدينة انتشار النار في الهشيم، وقد نزل الخبر على المسلمين نزول نصل خنجر حاد في القلب، وكانت كل أسرة تبكي على شهيد لها، على ابن أو على زوج، أو على أب استشهد في جبهات بعيدة فوق رمال لاهبة، أو فوق جبال باردة.

والآن ها هم الأعداء يقتحمون عليهم مدينتهم والله وحده هو الذي يعلم أي دماء جديدة ستسيل تحت أحذية جنود الأعداء.

أما أحياء اليونانيين القاطنين في أزمير منذ مئات السنوات فقد عم فيها الفرح والحبور، أجل كان هذا هو رد الجميل عندهم، لقد عاشوا مئات الأعوام في أمن وفي طمأنينة في ظل الدولة العثمانية، لم يتعرض أحد إلى عقيدتهم أو دينهم، وقد أعفوا من الخدمة العسكرية فتفرغوا للتجارة، وأصبحوا من أغنى الطوائف في الدولة العلية، بعد كل هذا الإحسان إليهم ها هم يردون إلى الدولة العثمانية؛ وإلى الشعب المسلم الذي آواهم، ها هم يفرحون ويستعدون للاحتفال بقدوم الغزاة المحتلين، لقد أخرجوا الأعلام اليونانية التي كانوا قد خبؤوها في صناديقهم، وأخرجوا أجمل ملابسهم لأن يوم غد يوم عيد لهم، عيد استقبال الجنود اليونانيين.

لكن بعد أن أرخى الليل سدوله اجتمع نفر من شباب أزمير بعيدًا عن الأنظار في مقبرة اليهود يتباحثون في هذه المصيبة الجديدة القادمة، كان من بينهم شاب مغوار هو الصحفي حسن تحسين الذي ألقى عليهم كلمة مؤثرة والدمع يسيل من عينيه، قال في الأخير: "يا إخواني، إنهم يريدون إلحاق منطقة أزمير باليونان، لن نعطي أزمير لهم، سنقاتل يا إخواني ولن نستسلم لهم أبدًا.. أجل سنقاتل ولن نستسلم لهم".

في صباح اليوم الثاني دخل الجيش اليوناني مدينة أزمير، وكانت الأقلية اليونانية قد اصطفت على جانبي الطريق، وقد رفعوا الأعلام اليونانية، وكان على رأس هؤلاء المستقبلين خريستوس

توموس أعلى رجل دين مسيحي رتبة في مدينة أزمير، وثاني رجل دين مسيحي في الدولة العثمانية، أي يأتي مباشرة بعد البطريرك الموجود في إسطنبول.

استمر جنود الاحتلال في مسيرتهم هذه وسط هذه الهتافات وهذه الحفاوة من الأقلية اليونانية حتى وصلوا إلى موقف الترامواي في منطقة قوقار يالي، وفجأة انطلق من بين الجموع الحاشدة شاب كالسهم وصوب مسدسه إلى الجندي اليوناني الحامل للعلم اليوناني في مقدمة الجيش وأطلق عليه رصاصة واحدة فأرداه قتيلًا ثم ولى هاربًا.

كان هذا هو الصحفي الشاب حسين تحسين، وما أن تخلص الجنود اليونان من تأثير المفاجأة حتى هرع المئات منهم وراء الشاب، ثم طوقوا المنطقة وبدؤوا يضيقون الخناق عليه.

وأخيرًا حاصروه في أحد الأزقة الضيقة، وقد أطلق عليهم الرصاص وقاومهم في منتهى البسالة؛ وقتل منهم الكثير حتى انتهى الرصاص معه، فانهال عليه وابل من رصاص الجنود.

كانت هناك امرأة مسنة تشاهد من نافذة غرفتها ما يجري أمامها، فقد كان حسن تحسين واقفًا قرب نافذتها، وعندما انهال الرصاص على الشاب الفدائي شهقت المرأة وبكت، سمعها حسن فحول بصره إليها وشاهدها وهي تبكي من أجله فقال لها وهو يتهاوى على الأرض: "لقد نفد الرصاص مني يا جدتي؛ كوني شاهدة لي يوم القيامة!".

لم يكتف الجنود بمئات الطلقات التي مزقت جسد هذه الشاب الفدائي، بل تقدموا إليه وأخذوا يطعنونه بحرابهم حتى شفوا غليلهم منه، كان هذا الصحفي الشاب أول شهيد سجله التاريخ في اليوم الأول من دخول اليونانيين إلى أزمير، وكان استشهاد هذا الشاب هو أول شرارة للثورة التحرير في أزمير.

- عبرة

يا شباب، إن الناس يذلون أنفسهم، يقبلون الدنية في دينهم ودنياهم، لواحد من أمرين: إما أن يصابوا في أرزاقهم، أو في آجالهم، والغريب أن الله قطع سلطان البشر على الآجال والأرزاق جميعًا، فليس لأحد إليها من سبيل، فالناس في الحقيقَة يستذلهُم وهْم نشأ من أنفس مريض بالحرص على الحياة، والخوف على القوت، والناس من خوف الذل في ذل، ومن خوف الفقر في فقر، مع أن الإسلام بني حقيقة التوحيد على الصلة بالله تبارك وتعالى فيما ينوب ويروع، واليأس من الناس فيما لا يملكون فيه على الله بتًا، ولا يقدمون نفعًا ولا ضرًا.

أسدان من عصر النبوة

نحن الآن مع شابان حديثة أسنانهما، بل قل إن صح التعبير، هما أسدان في صورة شابين وسيمين، كل منهما يحمل سيفه البتار، يخوض المعركة بقلب جسور، لا يهابا الموت، بل هما يبحثان عنه؛ ويسعيان إليه، غايتهما واحدة هي الفوز بجنة الرحمن، هدفهما واحد هو العثور على الطاغية المتكبر مهما كان الثمن، لا بُد من بتر رأسه وسحقه تحت الأقدام، أين هو هذا الطاغية من جموع قريش!

وهما برغم ما قاما به من بطولة فائقة، وشجاعة منقطعة النظير، وإطاحتهما للكثير من رقاب المشركين في العراك يوم بدر الكبرى، إلا أن ضالتهما المنشودة التي يبحثان عنها لا تزال غائبة عن أعينهما، فهما يريدان أن يشفيا غليلهما ويطفئا نارهما برأس الطاغية المتكبر .

لا بُد من قتل ذلك الثعبان المتخم البغيض، فلقد تنامى إلى سمعيهما ما قد فعله هذا الطاغية للمسلمين في مكة، وبلغهما أيضًا أنه قد سب رسول الله ﷺ وآذاه، كيف يجرؤ هذا الطاغية أن يسب أحب الناس إلى قلوبهم، من الذي يجرؤ أن يشير بكلمة نابية في حق النبي العظيم ﷺ، الذي جاء بالهدى ودين الحق، إن باطن الأرض خير لهما من ظهرها إن تركاه يهنأ بعيش، أو تسقط على وجهه القبيح شبه ابتسامه.

إنه رسول الله ﷺ الذي نفديه بقلوبنا وأرواحنا، نفديه بآبائنا وأمهاتنا، أليس هو الذي أخرجنا من ظلمات الجهالة إلى نور الإيمان، أليس هو من يأمرنا بالمعروف وينهانا عن المنكر، ويدعونا للخير، وينهانا عن الشر، بعد أن كنا نتخبط في جاهلية جهلاء، لا نفرق بين الغث والسمين، أو بين الجيد والرديء، فلقد كنا نأكل الميتة، ونشرب الخمور، ونرتكب الفواحش، ونسئ الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فلما ابتعثه الله إلينا، واستضاءت قلوبنا بنور اليقين، صرنا لدين الله أنصارًا، تقطع أجسادنا وتخطفنا الطير؛ ولا تصل لرسول الله شوكة يشاكها أو كلمة يكرهها.

نحن هنا نعيش سويًا في هذه السطور مع قصة من أعظم قصص البطولة والتضحية في التاريخ، إنه أعظم المشاهد يوم بدر، ألا هو مشهد نهاية الطاغية أبو جهل بن هشام فرعون هذه الأمة على يد أسدين من أسود الأنصار هم معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعوذ بن عفراء رضي الله عنهم أجمعين، ولكي نعرف قدر هاذين الصحابيين وكيف تربيا في أعظم مدرسة عرفتها الدنيا، يجب علينا أن نسلط الضوء قليلًا على ما قام به أبو جهل حتى يحدث القتال في بدر.

كان أبو جهل هو المحرض الأول للمشركين لخوض معركة بدر، فهو الذي قام بتسعيرها فكأن أول من احترق بنارها، فلقد أوشك المشركون يوم بدر أن يرجعوا بعد أن اطمأنوا على أموالهم مع أبو سفيان الذي استطاع أن يحتال لنفسه ويفلت من بين قبضة المسلمين، لكن الطاغية الأحمق أبو جهل أرعد في كبرياء وغطرسة قائلًا:

"والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، فنقيم بها ثلاثًا فننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف لنا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا"، ورغم ذلك انسلخت بني زهرة من الجيش المكي ولم تعبأ بما قاله أبو جهل وعادوا إلى مكة.

ثم هو يحاول مرة أخرى تحريض قريش على خوض العراك، عندما عاد عمير بن وهب بفرسه،

والذي كان مكلفًا بالتسلل إلى قلب الجيش الإسلامي والتجسس عليه لمعرفة أعدادهم، ومدى قوتهم.

فقال عمير: "لقد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضخ يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليسمعهم منفعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجل منكم، فإذا أصابوا منكم أعداءكم، فما خير العيش بعد ذلك، فروا رأيكم".

فهل حكم أبو جهل عقله، واقتنع بما قاله عمير، لا، قد عزم عزمًا أكيدًا على خوض العراك، حينئذ قامت معارضة جديدة في الجيش المكي، فقد تكلم حكيم بن حزام وعتبة بن ربيعة وطلبوا بالعودة إلى مكة بدون قتال، لكن أبو جهل أصبح أكثر تصميم على خوض العراك، واندفع بالجيش ناحية بدر.

وهناك عند بدر التحم الجيشين في معركة طاحنة، حتى جاء دور بطلا قصتنا، والذي يعتز القلب بهما كلما استرجع سيرتهما، ووقف عند هذا المشهد العجيب، والذي ينم عن مدى إيمانهما العميق الراسخ وحبهما لرسول الله ﷺ، ومدى غيرتهما على شخصه الكريم أن يمسه أحد بسوء، فانظروا وتأملوا هذا الشهد الرائع العجيب كما جاء في كتب السيرة والتراجم:

قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : إني لفي الصف يوم بدر إذ التفت، فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن، فكأني لم آمن بمكانهما، إذ قال لي أحدهما سرًا من صاحبه: "يا عم، أرني أبا جهل"، فقلت: "يا ابن أخي، فما تصنع به؟"، قال: "لقد علمت أنه كان يؤذي رسول الله ﷺ في مكة كثيرًا، والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا"، فتعجبت لذلك، ثم غمزني الآخر سرًا من صاحبه، وقال لي مثل ما قال صاحبه.

يا سادة، لقد كانت لهذه العنجهية التي أبدها أبو جهل، قد فجرت في قلوب أسدان الأنصار معوذ ومعاذ بركانا من الغضب لله ولرسوله، فأقسم أن يفجع قريشًا بسيدها وزعيمها أبو جهل في بدر، فإن كان الموت دون ذلك، فهي الشهادة التي يدق بها المرء أبواب الجنة.

فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يتهادى بين الجموع بكبرياء وصلف، فقلت: "ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألاني عنه"، ويندفعان إليها كالإعصار الجارف، فيضربه معاذ بن عمرو ضربة بالسيف فيقطع ساقه، فيعاجله عكرمة بن أبي جهل، وكان لا يزال على الكفر، بضربة سيف تقطع يده.

ويثور الدم في عروق معوذ، وهو يرى الدم ينفر من يد معاذ بن عمرو، فيندفع نحو أبو جهل، فيضربه بسيفه ضربة تقعده عن الحراك، ويكاد يجهز عليه، لولا أن تكاثرت عليه سيوف صناديد قريش، وقد هالها ما حل بسيدها، فتثخن بمعوذ الجراح، حتى يتهاوى شهيدًا في سبيل الله، بعد أن انتقم لرسوله القائد ﷺ من فرعون هذه الأمة أبو جهل، وقد جاء إليه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وقد كان أبو جهل بآخر رمق له فقتله.

- عبرة

يا شباب، إن ما جرى من هذين الغلامين الأنصاريين من طموح إلى خوض أخطر مغامرة في قتال جيش المشركين وهو الوصول إلى قائد الجيش أبي جهل الذي كان محميًا بفرسان عشيرته وعلى رأسهم ابنه الشجاع عكرمة رضي الله عنه ، لهو الإيمان والحب الكبير لرسول الله ﷺ، وهكذا

يكون الحب الصادق، فينبغي علينا أن نغرس في أولادنا سيرة هؤلاء المغاوير العظام، وبذلك نضمن لأنفسنا، ولأمتنا العزة والكرامة والشموخ في دار الدنيا، وفي الآخرة جنات النعيم.

يا سادة، لقد كان الدافع إلى مغامرة الغلامين هو ما سمعاه من أن أبا جهل كان يسب الرسول القائد ﷺ، وهكذا تبلغ محبة الصحابة رضي الله عنهم ، بينما كان الشباب الآخرون في قبائل العرب وغيرهم يهيمن على قلوبهم التفكير في مجالات إشباع الشهوات، وتُعمر مجالسهم بالتنافس في الملذات الدنيوية.

يا سادة، إن ما قام به معاذ بن عمرو بن الجموح رضي الله عنه حينما واصل الجهاد ويده مقطوعة، فلما أصبحت هذه اليد المتدلية بجلدتها عائقًا له دون بذل الجهد في القتال تمطى عليها حتى طرحها.

سبحان الله أما كان يكفي هذا الغلام أن قُطعت يده في سبيل الله تعالى؟!

أما كان في هذه الإصابة مندوحة له عن موصلة الجهاد؟!

أما كان يحق له أن ينزوي في ناحية من نواحي العسكر يعالج جراحه؟!

بلى، كان يحق له ذلك، ولكنه كان يحمل روحًا عالية، وهمة سامية، كان يحمل همَّ حماية هذا الدين العظيم، وحماية الرسول القائد ﷺ والمؤمنين، وما كان له والحال هذه أن يقدَم حماية جسده على حماية هذه المبادئ السامية، وإن نفسه لتهون في سبيل إعلاء كلمة الله عز وجل.

بطولة خالدة

نسى الناس الكثير من أبطال الإسلام العظماء، وحتى التاريخ نسي كثيرًا منهم أيضًا، ولكن المثني بن حارثة رضي الله عنه كان من بين القادة العظماء الذين يذكرهم الناس دومًا ولا ينسونهم أبدًا، كما أنه شرف بأعماله الخالدة صفحات التاريخ، فاسمه نابه في كل مصادر التاريخ وعلى كل لسان، لما وقد كان له أعظم الأثر في فتوح فارس، ويذكر له التاريخ بكل فخر أنه أول مسلم هاجم الدولة الساسانية التليدة.

ولعلك أيها القارئ الكريم قد نزع بك الشوق إلى سماع طرف من أخبار هذا الفارس المغوار، والوقوف على بعض عجائبه؛ فإليك شيئًا منها كما جاءت في كتب السير والتراجم، فتعالوا بنا لنعيش سويًا هذه السطور مع هذا الموقف الرائع، والبطولة النادرة.

لما حدث للمسلمين ما حدث يوم الجسر، أصبح الجيش الإسلامي قلة مع المثنى بن حارثة رضي الله عنه ، فكتب أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب إلى أبو عبيد بن الجراح رضي الله عنه قائد جبهة الشام يأمره بإرسال الجنود مرة أخرى إلى العراق، لكن في ذلك الوقت كانت المعارك مع الروم أكثر سخونة من معارك العراق.

وكان جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قد رغب في جمع قبيلة بجيلة لخوض حرب على جبهة العراق، فاجتمع له منهم ألفان وبعث بهم إلى المثني، فاجتمع عند المثنى عشرة آلاف مقاتل.

و لما علم قادة الفرس بذلك بعثوا مهران الهمذاني بجيش من الفرس لمواجهة المسلمين، لما علم المثنى بتحرك جيش مكون من مائة ألف مقاتل إليه عبأ جيشه وسار فيهم يحثهم على القتال، وكان يقول لأهل كل راية: «إني لأرجو أن لا تؤتى العرب اليوم من قبلكم»، لما رضي المثنى عن استعداد جيشه لخوض معركة طاحنة: قال: «إني مكبر ثلاثًا فتهيؤا ثم احملوا في الرابعة».

فلما كبر أول تكبيرة أعجلهم أهل فارس بهجوم كاسح، ولم يكن من عادة الفرس هذا الاندفاع في أول المعركة، ولكن لعل ما حصلوا عليه يوم الجسر من هزيمة المسلمين خفف مما وقر في نفوسهم من هيبة المسلمين والرعب منهم.

وهكذا بدأت المعركة بهذا الهجوم وقد صمد له المسلمون واستمروا معهم في صراع مرير، والمثنى إلى جانب اشتراكه في القتال يراقب جيشه بدقة حتى إنه رأى خللًا في بعض صفوفه أرسل إليهم رجلًا وقال: «إن الأمير يقرأ عليكم السلام ويقول: لا تفضحوا المسلمين اليوم»، فقالوا: «نعم»، وقاموا بهجوم معاكس رد الفرس عنهم.

لما رأى المثنى ركود الحرب وعدم تفوق المسلمين بشكل حاسم دعا بعض فرسانه الأبطال فحمل بهم على قلب القوات الفارسية حتى تخلخل نظم جيش الفارسي، وقد أزال قائدهم نحو الميمنة، وقد ارتفع الغبار والمجنبات في الميمنة والميسرة تقتتل، لا يستطع أحد أن يحقق النصر لا المسلمون ولا الفرس.

فلما انتهى المثنى من الهجوم الكاسح على قوات القلب، وتم قتل قائدهم على يد المثنى، وتم إبادة قوات القلب تمامًا، قامت المجنبات بهجوم قوية على مجنبات الفرس، وجعلوا يردون الفرس على أدبارهم، فسابقهم المثنى إلى الجسر فسبقهم وقطعه، وأخذ الأعاجم، فافترقوا بشاطئ الفرات، واعتورتهم خيول المسلمون حتى قتلوهم، وتم إبادة معظم الجيش، ولم يبق منهم إلا الشريد.

وقد ندم المثنى على مسابقة الفرس وقطع الجسر عليهم وقال: «لقد عجزت عجزة وقى الله المسلمين شرها، بمسابقتي إياهم إلى الجسر وقطعه، حتى أحرجتهم، فإني غير عائد فلا تعودوا»، وكان المثنى يقصد من هذا أن قطع الجسر منع العدو من الفرار فألجأ العدو إلى الاستماتة في القتال دفاعًا عن أنفسهم، فإنه حينما يشعر الإنسان بأنه مقتول لا محالة فيبذل كل طاقته للدفاع عنه نفسه، وهذا يكلف الجيش المقابل جهودًا ضخمة في محاولة القضاء عليه، ولكن الله وقى المسلمين شر هذا الخطأ.

- عبرة

يا سادة، إن في اعتراف المثنى بن حارثة رضي الله عنه بهذا الخطأ، وهو الرجل الذي بلغ في هذه المعركة أوج النصر والشهرة لدليل على قوة إيمانه، وتجرده من حظ النفس، وإيثار مصلحة المسلمين، وهكذا يكون العظماء، وكان المثنى هذا للجيش، الذي رأى بعض أفراده في خطة المثنى هذه براعة وعظمة لكونها بلغت في النكاية بالعدو وإرهابهم مبلغًا عظيمًا، ولربما تأسى به بعض القادة في أمثال هذه المعركة، فأراد المثنى باعترافه بهذا الخطأ أن يزيل هذا الفهم من النفوس، وما قد يتبعه من التأسي به في التنفيذ، وهذا قمة التجرد لهذا المؤمن التقي.

ولقد أعاد هذا النصر المؤزر الذي حازه المسلمين في معركة البويب هيبتهم العظيمة في قلوب الأعداء، وعفَوا به على كل آثار إصابتهم في معركة الجسر، فلله در هؤلاء الأبطال، وما أعظم غناءهم عن الإسلام والمسلمين.

فارس القادسية الباسل

ليست الرجولة قوة البدن، أو ضخامة الصوت، أو كثرة المال، بل الرجولة مواقف وأخلاق، بذل وعمل، سعي وجد، كفاح وتضحية، صبر وثبات، الرجولة إيجابية وتأثير في حياة الناس، إنها روح تغلى في قلب صاحبها تدفعه دومًا إلى المعالى فلا يقنع بالدون يومًا، فهو لا تثقله قيود الشهوات والسيئات، فإن الرجل العظيم السمين العاري عن الإيمان لا يزن عند الله يوم القيامة جناح بعوضة، وأما المؤمنون فإنهم يوزنون بما في قلوبهم من إيمان، فالرجل قد يكن ضئيل الجسم وهو عند الله أثقل في الميزان من الجبال، ونحن الآن مع رجل من هؤلاء الصنف من الرجال.

في موقعة القادسية برزت مواقف بطولية تستحق الذكر والثناء، ومغامرات وبطولات للأبطال الإسلام، ومن البطولات التي جرت من أبطال الإسلام في اليوم الثالث من أيام القادسية، هذا المشهد الخالد العظيم للمجاهد العظيم شبر بن علقمة رحمه الله، فتعالوا لنرى هذا الموقف البطولي الكبير.

لما كان ثالث أيام القادسية – وهو يوم عماس – خرج بطل من أبطال الجيش الفارسي حتى إذا كان بين الصفين هدر كالأسد ونادى بأعلى صوته: «من يبارز؟»

فخرج له رجل من المسلمين يقال له شبْر بن علقمة - وكان قصيرًا صغير الجسم – فقال: «يا معشر المسلمين قد أنصفكم الرجل»، فلم يجبه أحد ولم يخرج إليه أحد من أبطال الإسلام وصناديدهم، فقال: «أما والله لولا أن تزدروني لخرجت إليه».

فلما رأى أنه لا أحد يخرج إليه، أخذ سيفه وترسه وتقدم نحو هذا الفارس الساساني العملاق، فلما رآه الفارسي هدر كالأسد، ثم نزل إليه فاحتمله، ثم جلس على صدره، ثم أخذ سيفه ليذبحه، ومقود فرسه مشدود بمنطقته، فلما استل السيف حاص الفرس حيصة فجذبه المقود فقلبه عنه، فأقبل شبر بن علقمة عليه وهو يسحب فافترشه، فعجل الجيش الفارسي يصيحون به إلا يقتله، فقال شبْر: «صيحوا ما بدا لكم، فوالله لا أفارقه حتى أقتله وأسبله، فقتله وسلبه».

- عبرة

يا شباب، هكذا رأينا هذا الرجل المؤمن الذي تضاءلت فيه عناصر الكفاءة الحربية المادية، فهو قصير ضعيف الجسم، ومن كانت هذه حاله لا يدخل مجالات الحرب الشاقة كالمبارزة حيث تتطلب هذه المجالات أجسامًا قوية طويلة، ولكنه لما رأى خلو ذلك المكان من أبطال الإسلام دفعه إيمانه الصادق إلى التصدي لذلك المبارز الفارسي العملاق مع معرفته سلفًا بنقص كفاءته في هذا الميدان، ولكن عزَ عليه أن يتبختر ذلك الفارسي بين الصفين ولا يبرز له أحد.

وفي ذلك تقوية لموقف الأعداء وتوهين لموقف المسلمين، برز له ثقة بالله تعالى وتوكلًا عليه، وحمل معه ما يستطيعه من الأسباب المادية، وفوض ما ينقص منها لمولاه عز وجل، فنصره تعالى بجنود لا يراهم وإن كان يؤمن بهم، فنفرت الفرس بأمر الله تعالى وسبحت صاحبها إلى حتفه المنتظر، وكان في ذلك إنقاذ لهذا المؤمن وتمكين له ليقضي على عدوه.

وهكذا دائمًا يا سادة، فإن الله تعالى مع أوليائه المؤمنين إذا صدقوا معه، فإن هذا الخبر فيه أبلغ الدلالة على ذلك، ولا يخطرنَّ بالبال أن هذا الأمر جرى بشكل طبيعي وأسباب لا علاقة لها ينصر الله تعالى لأوليائه، فإنه لو كان هذا الأمر معتادًا ويجري في حياة الناس لأعدَ ذلك الفارسي للأمر عدَته ولم يفرط في أمر يكون سببًا في هلاكه.

فدائية الإسلام الأولى

في تاريخ النساء مواقف حافلة بالبطولات والتضحيات، ولكن بطلتنا أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه تفوق النساء جميعًا، فهي من فضليات النساء العربيات، وأشجع نساء الإسلام؛ وأثبتهن جأشًا؛ وأعظمهن تربيةً للولد على الشهامة وعزة النفس والإباء والتضحية في سبيل العقيدة، لقد عاشت أسماء أكثر أيامها الأخيرة مع ابنها عبد الله بن الزبير رضي الله عنه ، وشاركته حياته العاصفة، وكُف بصرها في آخر حياتها، ولكنها ظلت حاضرة الذهن، عامرة القلب بالإيمان والإخلاص والصلابة في الحق.

وثمة موقف – ما أروعه من موقف – سجلت فيه أسماء صفحة مجيدة من الدفاع عن الحق والتضحية بكل عزيز في سبيل ربها، إنها صفحة كُتبت بمداد الحق، وسُطرت في تاريخ بدم الشهداء، ولقد بغلت به أسماء أسمى ما تبلغه النفس البشرية في معارج البذل والفداء، ذلك الموقف مع ابنها عبد الله بن الزبير رضي الله عنهم أجمعين، إنه موقف من مواقفها الإيمانية العظيمة، إنه موقف يعبر عن صدق إيمانها، وحسن تصرفها في الأمور العصيبة، فتعالوا بنا لنعيش سويًا في رحاب هذا المشهد الأسطوري لفدائية الإسلام الأولى.

لم يقف جهاد السيدة أسماء عند ما بذلته في الهجرة من تضحية ومخاطرة في سبيل نصرة رسول الله وصاحبه أبي بكر، بل امتد هذا الجهاد إلى ما بعد الهجرة بحضورها بعض الغزوات تسقي العطشى، وتداوي الجرحى، وتثير الحمية في نفوس المقاتلين، وفي يوم اليرموك كان لها أكبر الأثر في انتصر المسلمين.

عاشت أسماء عيشة راضية، وأسهمت بجهد مشكور في نصر الإسلام بالكلمة الطيبة والوعظ البليغ، والجهاد في سبيل الله، وتمضى الحياة بحلوها ومرها على الكريمة بنت الكريم، حتى تشهد اليوم الذي استشهد فيه عبد الله بن الزبير، بعد أن امتد سلطانه على الحجاز واليمن والعراق وخراسان.

غير أن سلطانه بدأ ينحسر ويتلاشى، وأحاطت به جنود الحجاج بن يوسف وهو في مكة المكرمة، وأحجار المنجنيق تنهمر ثمانية أشهر عليه من كل مكان، وكانت الفرصة سانحة أمامه لطلب الأمان أو الفرار، ولكن أني له ذلك وقد عرفته البلاد بطولها وعرضها بالشجاعة والثبات والإقدام، وأمه أسماء فدائية الإسلام الأولى، وها هي أمه قد قاربت المائة وعقلها ما يزال يشع بالحكمة وفصل الخطاب.

لقد كانت أسماء دائمًا خلف ولدها تؤازره في محنته، وتدفعه إلى ساحة المعارك دفعًا بكلامها الذي يلهب المشاعر، ويستنهض الهمم، ويشحذ العزائم، وقالت له حين شكا إليها خذلان الناس له بخروجهم إلى الحجاج يطلبون منه الأمان وفيهم ولداه حمزة وخبيب قولًا سديدًا سجله التاريخ لها في أنصع صفحاته.

فقد دخل عبد الله على أمه أسماء وكان قد تخطى السبعين من عمره يبث إليها شكواه؛ ويستشيرها في أمره؛ ويستأنس برأيها، قائلًا: «يا أماه خذلني الناس حتى أهلي وولدي، ولم يبق معي إلا اليسير، من لا دفع له أكثر من صبر ساعة من النهار، وقد أعطاني القوم ما أردت من

الدنيا فما رأيك؟»،

يا سادة، حقًا إنه موقف محرج يدعو إلى اليأس من النصر والإشارة بالاستسلام وطلب الأمان، والمساومة على أكبر قسط من المغانم، ولكن السيدة أسماء أخلفت ما كان يُظنُ من مثلها في هذا الموقف.

فقالت: «يا بني، أنت أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق؛ وتدعو إلى حق فاصبر عليه؛ فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك يلعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت أردت الدنيا فلبئس العبد أنت؛ أهلكت نفسك وأهلكت من قتال معك»، وإن قلت: «كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت؛ فليس هذا فعل الأحرار، ولا أهل الدين، كم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن لك، والله لضربة بالسيف في عز أحب إلى من ضربة بسوط في ذل».

فقال: «يا أماه، أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني»، هنا قالت أسماء قولتها المشهورة التي جرت مجرى الأمثال: «يا بني إن الشاة لا يضرها السلخ بعد الذبح، يا بني امض على بصيرتك واستعن بالله عز وجل».

فدنا منها فقبل رأسها وقال: «هذا والله رأيي، والذي قمت به داعيًا إلى الله، ولكني أحببت أن أطلع على رأيك فيزيدني قوة وبصيرة مع قوتي وبصيرتي»، وقد أشرقت أسارير وجهه وقال: «بُوركت من أم وبوركت مناقبك الجليلة، فأنا ما جئت إليك في هذه الساعة إلا لأسمع منك ما سمعت والله يعلم أنني ما وهنت ولا ضعفت، وهو الشهيد على أنني ما قمت بما قمت به حبًا في الدنيا وزينتها، وإنما غضبًا لله أن تستباح محارمه، وها أنا ذا ماض إلى ما تحبين، فإذا أنا قتلت فلا تحزني عليَ، وسلمي أمرك لله»، قالت: «إنما أحزن عليك لو قتلت في باطل».

ثم قال: «كوني على ثقة بأن ابنك لم يتعمد إتيان منكر قط، ولا عمل بفاحشة قط، ولم يجر في حكم الله، ولم يغدر في أمان ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد ولم يكن شيء عنده أفضل من رضا الله عز وجل، لا أقول ذلك تزكية لنفسي، فالله أعلم مني بي وإنما قلته لأدخل العزاء على قلبك»، فقالت: «الحمد لله الذي جعلك على ما يحبُ وأحبُ».

ثم قالت: «اللهم ارحم طول جوعه وظمأه في هواجر المدينة ومكة وهو صائم، اللهم ارحم بره بأبيه وبي، اللهم إني قد سلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت؛ فقابلني في عبد الله بثواب الصابرين الشاكرين»، ثم أخذته إليها فاحتضنته لتودعه واعتنقها ليودعها – وكانت قد كف بصرها في آخر عمرها كما ذكرنا – فوجدته لابسًا درعًا من حديد؛ فقالت: «يا بني، ما هذا لباس من يريد الشهادة!».

فقال: «يا أماه، إنما لبسته لأطيب خاطرك وأسكن قلبك»، فقالت: «لا يا بني، انزعها عنك، فذلك أشد لحميتك، وأقوى لوثبتك، وأخف لحركتك، ولكن البس بدلًا منها سراويل مضاعفة، حتى إذا صرعت لم تنكشف عورتك؛ فنزعه وجعل يلبس بقية ثيابه، ويتشدد وهي تقول: «شمر ثيابك»، وجعل يتحفظ من أسفل ثيابه لئلًا تبدو عورته إذا قتل، وجعلت تذكره بأبيه الزبير، وجده الصديق، وجدته صفية بنت عبد المطلب، وخالته أم المؤمنين عائشة، ثم خرج من عندها فكان ذلك آخر عهده بها رضي الله عنه .

ولما قتل عبد الله بن الزبير ارتجت مكة بكاءً عليه، وجاءت أمه إليه وهو مصلوب؛ فدعت له طويلًا، والدمع محتبس في عينها من شدة الحزن والأسى؛ فإن شدة الحزن تجمد الدمع في

العين، كما هو معروف، وكيف لا تحزن وقد قتل ابنها ظلمًا.

- عبرة

يا أيتها الأخوات المؤمنات، إن سيرة فدائية الإسلام الأولى أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه نموذج حي لما ينبغي أن تكون عليه المرأة المسلمة في عقيدتها وشجاعتها؛ ومجاهرتها بالحق؛ وحسن تبعلها لزوجها؛ والقيام على تربية أولادها؛ ومحافظتها على شرفها وعفافها؛ فهي نعم القدوة لكل امرأة مسلمة تنشد الكمال والحق والخير.

إن في سيرتها وسيرة مثيلاتها لمتسع للقول والكتابة والخطابة، فمال بال نسائنا المسلمات المتعلمات لا يعرفن إلا شهيرات الغرب، ولا يكدن يكتبن أو يتحدثن عن شهيرات النساء في الإسلام إلا قليلًا مع أن في الإسلام من النساء الكوامل، ولا سيما في الصدر الأول مالا يوجد في أمة من أمم الأرض، ولو أن موقفًا من مواقف السيدة أسماء وقفته امرأة من نساء الغرب لحظيت بالثناء والإكبار من الكثير منا، ولتحدث عنها المتحدثون والمتحدثات وأظبوا في الحديث.

يا أيتها الأخوات الكريمات، يا لأسماء من أم خالدة تحث ابنها على الاستشهاد في سبيل الحق، وتحفزه إلى مواصلة القتال، وقد علمت أنه لن يعود من ساحة القتال حيًا، وأنه لن يبقى لها في الحياة بعد مصرعه أحد، ولكن الحق أقوى من غريزة الأمومة في نفسها، إنها باسم الحق تدفع ابنه دفعًا إلى الموت في سبيله، وتعلن أنها بريئة منه وهو فلذة كبدها إذا تقاعس وآثر الحياة الدنيا، فكيف ينكص عن رسالته وقد دفع أصحابه حياتهم فداء لها، ولا غرو فهي بنت الصديق أبي بكر وهو صاحب الرسول الكريم ورفيقه في هجرته إلى المدينة.

يا أيتها الأخوات المؤمنات، إن هذا الموقف التاريخي الفدائي هو نبت موقفها من أبيها ومن رسول الله في رحلتهما الكبرى التي تغير بها وجه التاريخ - وهو يوم الهجرة - ، لقد أعادها موقفها ذاك بكل جليل من المواقف، وأمدتها روح النبي ﷺ وصاحبه بفيض من القوى الروحية: قوة الإيمان والإصرار والثبات على المبدأ التي تزلزل دونها كل القوى المادية، فالقتل عند أسماء خير من العيش على مذلة، وطالما أن الموت حق ولا بقاء لحي، فإن ضربة بالسيف في عز أحب من ضربة بالسوط في هوان.

الأمير الشجاع

إنَّ الحديث عن مواطن البطولة الإسلامية في عصور الحروب الصليبية أمر يطول، ولن يفي بذلك إلا أسْفار ضخمة، وبحسبي أني في هذا الكتاب أستعرض بعض هذه المواطن تمجيدًا للذكرى، وتلمسًا للعبرة، واستحثاثًا للهمم والعزائم على الائتساء، ولقد كان أبطال السلاجقة هم الصفوة المختارة لتحمل الصدمات الأولى للإعصار الصليبي على بلاد الإسلام، فضربوا لنا أروع المثال في البطولة والتضحية والصبر والمصابرة.

وأجبوا علينا بتألقهم في ميادين الكرامة والشرف أن نهتم بدراسة سيرتهم؛ لننهج نهجهم بقدر طاقتنا في نصرة الدين؛ وإعلاء كلمة الله في الأرض مهما كلفنا ذلك من جهد وتضحية، ومن هؤلاء الأبرار المجاهدين بطل هذه السطور طغتكين أمير دمشق السلجوقي، ولو رحت أستقصي لكم أخبار بطولات هذه العملاق العظيم، لطال الكلام، وضاق المقام؛ لذا رأيت أن أعرض لكم قصة واحدة من قصص بطولاته، وهي تخبركم عما عداها، فتعالوا بنا لنعيش سويًا في رحاب هذا المشهد الأسطوري من حياة هذا الأسد المغوار.

في عام ٤٩٩ هجرية بنى الأمير الصليبي بلدوين الأول ملك بيت المقدس حصن بينه وبين دمشق نحو يومين، فخاف أمير دمشق طغتكين من شرور ذلك، فسار إلى الصليبيين بجيش دمشق، والتقوا واقتتلوا أشد قتال، فانهزم أميران من عسكر دمشق فتبعهما طغتكين وقتلهما، وانهزم الصليبيون إلى حصنهم فاحتموا به.

فقال طغتكين في الجند: "من أحسن قتالهم وطلب مني أمرًا فعلته له، ومن أتاني منكم بحجر من حجارة الحصن أعطيته خمسة دنانير على كل حجر".

فبذل الجنود نفوسهم في القتال وصعدوا إلى الحصن وخربوه، وحملوا حجارته إلى طغتكين فوفى لهم بما وعدهم، وأمر بإلقاء الحجارة في الوادي، وأسروا من بالحصن، فأمر بهم فقتلوا كلهم، واستبقى الفرسان أسارى، وكانوا مائتي فارس، ولم ينج ممن كان في الحصن إلا القليل.

- عبرة

يا سادة، هذا وإننا لنجد في هذا الخبر صورًا من الحزم الذي اتصف به الأمير طغتكين، وذلك في الاهتمام بجهاد الصليبيين لإزالة ذلك الحصن الذي اتخذوه وقاية لهم ليحتموا به إذا أغاروا على دمشق، فقام بجهاد ذلك الأمير الصليبي حتى هزمه، وهدم ذلك الحصن، ثم فيما أقدم عليه من قتل ذينك الأميرين الذين خانا الأمانة وفرَا إلى دمشق، وهذه الصورة قل أن يوجد لها نظير في تاريخ الحروب، وهي تعطي دروسًا قوية بليغة للقادة والجنود حتى لا يفروا يوم الزحف فيحدثوا الفشل والخلل في صفوف الجيش.

وأخيرًا في الطريقة التي سلكها ذلك الأمير في هدم ذلك الحصن، حيث إنه لم يكن فيما يظهر عنده شيء من آلات الرمي الثقيلة كالمجانيق فوجه أفراد جيشه بالإغراء المذكور ليقوموا بهدم ذلك الحصن، فأنجزوا تلك المهمة بكثرة العدد وتضافر الجهود، وهذا يدل أيضًا على قوة وشجاعة وحزم هذا الأمير وعلو تفكيره الحربي.

شيخ المجاهدين

إن الإيمان بالله درجات أعلاها أن يكون المؤمن مستجيبًا لله ورسوله، مجاهدًا في سبيله، لا يخشى في الله لومة لائم، ولا يبالي بما أصابه في نصرة الدين مهما اشتدت وطأته، وقويت حدته؛ فالإيمان هو الاعتقاد الوطيد الراسخ، الذي لا يتطرق إليه شك وتهتريه شبهة، ولا يعوقه عن الفرار إلى الله عائق، ولا يحول بينه وبين مواصلة الكفاح في سبيله إلا الموت.

ونحن نعيش سويًا في هذه السطور مع بطل من أبطال الإسلام ظل ثابتًا على إيمانه ويقينه وجهاده وإحسانه؛ حتى مات شهيدًا سعيدًا دفاعًا عن مدينته حلب، نعم إنه الشيخ المغوار نائب مدينة حلب الشهباء توران شاه الأيوبي رحمه الله، فتعالوا بنا لنستمتع بهذه الملحمة الأسطورية لهذا الأمير البطل.

بدأ جيش التتار الجرّار في التحرك من قواعده في همدان في اتجاه بلاد الشام، واستطاع في طريقه دخول مدينة نصيبين بدون مقاومة تذكر، ثم اتجه غربًا ليحتل مدن حران ثم الرها ثم مدينة إلبيرة - كل هذه المدن جنوب تركيا -، فكان على هولاكو أن يخترق كل هذه المدن التركية لينزل على مدينة حلب من شمالها، وبذلك يطمئن بعدم وجود أي جيوب مقاومة إسلامية في ظهره.

استمرت هذه الاختراقات التترية للأراضي الفارسية ثم العراقية ثم التركية ثم السورية عامًا كاملًا وهو عام ٦٥٧ هجرية، وصل هولاكو إلى المدينة السورية الكبير حلب في المحرم من سنة ٦٥٨ هجرية، وأطبقت الجيوش التترية على المدينة المسلمة من كل الجهات، ولكن حلب رفضت التسليم لهولاكو، وصمم أهلها على المقاومة.

وتزعم المقاومة في المدينة المجاهدة توران شاه عم الناصر يوسف الأيوبي - أمير حلب ودمشق حفيد صلاح الدين بطل موقعة حطين – ولكنه كان مجاهدًا من طراز فريد وليس خائنًا كابن أخيه، ونصبت المجانيق التترية حول حلب، وبدأ القصف المتوالي من التتار على المدينة، وبالطبع كان الخائن الناصر يوسف يربض بجيشه بعيدًا في مدينة دمشق.

وفي هذه الأثناء حدث حادث أليم ومفجع، إذا سقطت مدينة ميافارقين تحت أقدام التتار بعد الحصار البشع الذي استمر عامًا ونصف، ثمانية عشر شهرًا متصلة من النضال والكفاح البطولي لهذه المدينة الباسلة، واستشهد أميرها البطل الكامل محمد الأيوبي بعد كفاح مرير.

اشتد القصف التتري على حلب، وقد زادت حماسة التتار بقتل الكامل محمد؛ وسقوط ميافارقين، وفي ذات الوقت خارت قوى المسلمين في مدينة حلب نتيجة الضرب المكثف، وهبوط المعنويات لمقتل الأمير البطل الكامل محمد.

استمر الحصار التتري لمدينة حلب سبعة أيام فقط، ثم أعطى التتار الأمان لأهلها إذا فتحوا الأبواب دون مقاومة، ولكن زعيمهم المجاهد توران شاه قال لهم: "إن هذه خدعة، وإن التتار لا أمان لهم ولا عهد، ولكنهم كانوا قد أحبطوا من سقوط ميافارقين، وعدم مساعدة أميرهم الناصر يوسف لهم، وبقائه في دمشق، وتركه إياهم تحت حصار التتار لهم، وهذا الإحباط قاد الشعب إلى الرغبة في التسليم، واتجه عامتهم إلى فتح الأبواب أمام هولاكو، ولكن قائدهم توران

شاه وبعض المجاهدين رفضوا التسليم، واعتصموا بالقلعة داخل المدينة، وصمموا على الموت وعدم التسليم.

فتح الشعب الحلبي الأبواب للتتار بعد أن أخذوا الأمان، وانهمرت جموع التتار داخل المدينة، وما إن سيطروا على محاور المدينة حتى ظهرت النوايا الخبيثة، ووضح لشعب حلب ما كان واضحًا من قبل لمجاهدهم البطل توران شاه، ولكن للأسف كان هذا الإدراك متأخرًا جدًا!

لقد أصدر هولاكو أمرًا واضحًا بقتل جميع المسلمين في حلب وترك النصارى، وهذا ولا شك خيانة متوقعة، والخطأ هو خطأ الشعب الذي بنى قصورًا من الرمال، وهكذا بدأت المذابح البشعة في رجال ونساء وأطفال حلب، وتم تدمير المدينة تمامًا، ثم خرب التتار أسوار المدينة لئلا تستطع المقاومة بعد ذلك.

ثم اتجه هولاكو بقواته لحصار القلعة التي في داخل حلب، وكان بها توران شاه والمجاهدين، واشتد القصف على القلعة، وانهمرت السهام من كل مكان، ولكنها صمدت وقاومت، بسبب بسالة شيخ المجاهدين توران شاه الذي كان لا يكل ولا يمل في تحفيز المجاهدين على المقاومة، وقد كان رحمه الله يضرب المثل بنفسه في تحمل مشاقة الجهاد رغم إنه قد تخطى الثمانين من عمره.

وبعد أربعة أسابيع متصلة من القصف، انهارت جدران القلعة تمامًا، وقتل جميع المجاهدين ماعدا توران شاه الذي ظل يقاوم حتى تم القبض عليه، ثم إعدامه هولاكو بعد ذلك عند أبواب مدينة دمشق حتى يبث الرعب في قلوب أهلها، حتى لا يفكر أحد منها في المقاومة، وقد نجح في ذلك وتم تسليم دمشق بدون مقاومة.

- عبرة

يا شباب، إن أبطال الإسلام في المعارك تجدهم يقدمون أرواحهم ودماءهم فداء لدينهم، لا ينتظرون جزاءً ولا شكورًا، منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر الشهادة على أحر من الجمر، هؤلاء الأبطال المغاوير يجبُ أن تبقى سيرتهم محفورة تتناقلها الألسنة، يرويها الرواة جيلًا بعد جيل، ونحن كشباب لهذه الأمة الرائدة نحب تاريخ هؤلاء الأبطال العظماء، فمطلوب منا أن نعيش سيرة هؤلاء الأبطال في كل وقت وحين نستلهم من سيرتهم لتبقى خالدة في قلوبنا، ولنعيش لديننا كما عاشوا ونضحي من أجله كما ضحوا.

البطل المصلوب

من بواعث البطولة الكبرى الحب، فكم سجل التاريخ في أسفاره من بطولات المحبين وتضحياتهم، قصصًا تستلين القلوب القاسية، وتستدر الدموع العاصية، والحب أنواعٌ، لكن أسمى ضروبه سموًا، وأرفعها رفعةً، وأخصبها عطاءً، الحب في الله عز وجل، ولو جمعنًا ما وعاه تاريخنا من بطولات الحب في الله، لحظينا بديوان من القصص العبق بطُيوب الإيمان، المتألق بنور العقيدة.

ولعل أروع مثل على هذا الحب وبطولاته، ما روته كتب التراجم والسَير عن خبيب بن عدي رضي الله عنه ، فلقد ظفرت به قريشٌ بعد أُحُد، فعزمت أن تنكل به أشد التنكيل وأقساه، انتقامًا لقتلاها الذين غيبهم القليب يوم بدر الكبرى، فتعالوا بنا لنتعرف على قصة الشهيد المصلوب من كتب السير وتراجم.

جاء نفرًا من القارة، وعضل، وهما بطنان من بطون الهون بن خزيمة قدموا على رسول الله صلى الله وعليه وسلم، وذكروا أن فيهم إسلامًا، وطلبوا منه ﷺ أن يبعث معهم من يعلمهم القرآن الكريم، ويفهمهم الإسلام، فبعث لهم الرسول ﷺ سرية مؤلفة من عشر رجال، وأمر عليهم عاصم بن ثابت رضي الله عنه .

فانطلقوا بهم، فلما كانوا بين عسفان ومكة غدر القوم بهم، واستصرخوا عليهم بني النضر وحيًا من هذيل ليغدروا بهم، فأتوهم بقريب من مائة، ولحقوا بهم عند سفح الجبل، وأحكموا حولهم الحصار، ودعوهم لتسليم أنفسهم بعد أن أعطوهم عهد مؤثقًا ألا ينالهم منهم سوء، والتفت العشرة إلى أميرهم عاصم بن ثابت، وانتظروا بما يأمر، فإذا هو يقول: «أما أنا، فو الذي بعث محمد بالحق، لا أنزل في ذمة مشرك»، ثم قال: «اللهم أَخبر عنا نبيك»، وشرع الرماة المئة يرمونهم بالنبال، فأصيب أميرهم عاصم، واستشهد معه ستة رجال، ونادوا الباقين أن لهم العهد والميثاق إذا هم نزلوا.

فنزل خبيب بن عدي، وزيد بن الدَثنة، وعبد الله بن طارق رضي الله عنهم ، فقد رأوا ألا فائدة من مناوشة الغادرين ومقاومتهم، ووثقوا بالأمان الذي عرضه عليهم الهذليون، فاستسلموا، فأسرهم هؤلاء الأفاكون وأوثقهم كتافًا ولم يرعوا لهم حرمة، فرأى عبد الله بن طارق رضي الله عنه بداية الغدر، فندم لاستسلامه، فقرر أن يموت حيث مات عاصم وإخوانه وقال: «إن لي بهؤلاء أسوة»، فتكاثر الجبناء عليه حتى قتلوه، ولحق بركب أصحابه الشهداء حيث أراد، وهكذا قضى ثمانية من أعظم المؤمنين إيمانًا، وأبرُهم عهدًا، وأوفاهم لله وللرسول ذمة، وحاول خبيب وزيد أن يخلصا من وثاقهما، ولكنه كان شديد الإحكام.

وقادهما البغاة إلى مكة حيث باعوهما لمشركيها، ودوَى في الآذان اسم خبيب بن عدي، وتذكر بنو الحارث بن عامر قتيل بدر، تذكروا ذلك الاسم جيدًا، وحرَّك في صدورهم الأحقاد فسارعوا إلى شرائه، ونافسهم على ذلك بغية الانتقام منه أكثر أهل مكة ممن فقدوا في بدر آباءهم وزعماءهم، وأخيرًا تواصوا عليه جميعًا، وأخذوا يعدُونه لمصير يشفي أحقادهم، ليس منه وحده، بل من جميع المسلمين، ووضع قوم آخرون أيديهم على صاحبه زيد بن الدثنة رضي الله عنه وراحوا يصلونه هو الآخر عذابًا.

أسلم خبيب قلبه وأمره ومصيره لله رب العالمين، وأقبل على نسكه ثابت النفس، رابط الجأش، معه من سكينة الله التي أفاءها عليه ما يذيب الصخر، ويلاشي الهول، فقد كان الله معه، وكان هو مع الله.

وفي يوم من الأيام حمل المشركون إلى خُبيب نبأ مصرع أخيه زيد بن الدثنة، ظانين أنهم بهذا يسحقون أعصابه، ويذيقونه ضعف الممات، وما كانوا يعلمون أن الله الرحيم قد أنزل عليه سكينته ورحمته، وراحوا يساومونه على إيمانه، ويلوحون له بالنجاة إذا هو كفر بمحمد، ومن قبل بربه الذي آمن به، ولكنه كانوا كمن يحاول اقتناص الشمس برمية نبل.

أجل كان إيمان خبيب كالشمس قوة، وبعدًا، ونورًا، كان يضيء كل من التمس منه الضوء، ويدفئ كل من التمس منه الدفء، وإذ يئسوا مما يرجون، قادوا البطل إلى مصيره، وخرجوا به إلى منطقة التنعيم حيث يكون هناك مصرعه.

وما إن بلغوه التنعيم حتى استأذنهم خُبيب في أن يصلي ركعتين، وأذنوا له ظانين أنه قد يجري مع نفسه حديثًا ينتهي باستسلامه، وإعلان الكفران بالله وبرسوله، وصلى خُبيب ركعتين في خشوع وسلام، وتدفقت في روحه حلاوة الإيمان، فود لو ظل يصلي ويصلي، لكنه التفت صوب قاتليه، وقال لهم في هدوء الأصفياء المخلصين: «أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طولت جزعًا من القتل لاستكثرت من الصلاة وزدت» - وكان أول من سن ركعتين عند القتل -.

وبعد أن صلب المجرمون من قريش وكفارها خبيبًا على الخشبة وهو مصلوب مظلوم، شهر ذراعيه نحو السماء وقال: «اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك، اللهم إنه ليس أحد هنا يبلغ رسولك عني السلام فبلغه أنت عني السلام وبلغه ما يُصنعُ بنا».

نظر المجرمون وأكابر قريش إلى خبيب في شماتة وتشف فتوجه بوجهه إلى السماء وقال: «اللهم أحصهم عددًا، واقتلهم بددًا، ولا تغادر منهم أحدًا».

ولعله لأول مرة في تاريخ العرب يصلبون رجلًا ثم يقتلونه فوق الصليب، ولقد أعدُوا من جذوع النخل صليبًا كبيرًا أثبتوا فوقه خبيبًا وشدوا فوق أطرافه وثاقه، واحتشد المشركون في شماتة ظاهرة، ووقف الرماة يشحذون رماحهم، وجرت هذه الوحشية كلها في بطء مقصود أمام البطل المصلوب، لكنه لم يغمض عينيه، ولم تزايل السكينة العجيبة المضيئة وجهه، وبدأت الرماح تناوشه، والسيوف تنهش لحمه، وهنا اقترب منه أحمد زعماء قريش وقال له: «أتحبُ أن محمدًا مكانك، وأنت سليم مُعافى في أهلك؟»، هنا لا غير انتفض خبيب كالإعصار، وصاح في قاتليه: «والله ما أحب أني في أهلي وولدي، معي عافية الدنيا ونعيمها، ويُصاب رسول الله بشوْكه».

نفس الكلمات العظيمة الشاهقة التي قالها صاحبه زيد بن الدثنة وهم يهمون بقتله، نفس الكلمات الباهرة الرائعة الصدعة التي قالها زيد بالأمس القريب، يقولها خبيب اليوم مما جعل أبا سفيان - وكان لم يُسلم بعد -، يضرب كفًا بكف ويقول: «والله ما رأيت أحدًا يحب أحدًا كما يُحب أصحاب محمد محمدًا».

كانت كلمات خبيب هذه إيذانًا للرماح وللسيوف بأن تبلغ من جسد البطل غايتها فتناوشته في جنون ووحشية حتى مات.

- عبرة

يا شباب، استشهد خبيب بن عدي رضي الله عنه بعد أن ترك آثارًا وضيئة في جبين التاريخ، مات خبيب ميتة الشهداء، ومما لفت الانتباه في سيرة هذا البطل أن قاتليه وساجنيه قد أسلموا ونعموا بدين الله كما كان ينعم هو في نعيم الإسلام فقد أسلم أبو سفيان ومعاوية وعقبة بن الحارث وسعيد بن عامر وغيرهم ممن شهد مقتله رضي الله عنه ؛ فقد أسلم قاتلوه وتركوا آثارًا طيبة في تاريخ رجالات الإسلام، وفتحوا الدنيا بعلمهم وشجاعتهم، وصاروا من الأخيار ومن قادة الأمم ومن أمراء المؤمنين، ومن أئمةَ الزهد.

يا إخوة، هذا مشهد من مشاهد الإيمان والفداء، حيث تعلو النفوس الزكية عن الاستجابة لرغبات الأجسام، فتضرب الأمثلة الحية للموازين العادلة، والمفاهيم العالية، فما في الأرض جميعًا من متاع لا يساوي شيئًا في جانب الهداية إلى الصراط المستقيم، والبقاء على قيد الحياة مطلب رخيص إذا قورن بالثبات على الإيمان، والاستشهاد في سبيله، وقد جاء هذا المعني في كلام خبيب رضي الله عنه ، عندما جعلوا يقولون له: «ارجع يا خبيب»، فقال: «لا أرجع أبدًا»، فقالوا: «أمام واللات والعزى لئن لم تفعل لنقتلك»، فقال: «إن قتلي في الله لقليل».

إن الذي يمد رجله لا يمد يده

من آثار الإيمان على حياة الناس، أنه يكسب العزة التي تجعل الإنسان يمشي نحو هدفه مرفوع القامة والهامةَ، لا يحني رأسه لمخلوق، ولا يطأطئ رقبته لجبروت، أو طغيان، أو مال، أو جاه، فهو سيد في الكون هذا، وعبد لله وحده، ولا غرو إذا رأينا مؤمنًا مثل الشيخ سعيد الحلبي باشرت قَلبه بشاشة الإيمان، وأضاء فكره آيات القرآن، يُقف أمام الطاغية إبراهيم باشا في سطوته وجنوده غير مكترث له ولا عابئ به، حتى يمر أمامه فلم يبدل جلسته، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد الماتع.

دخل إبراهيم باشا ابن محمد على حاكم مصر المسجد الأموي، في وقت كان فيه عالم الشام الشيخ سعيد الحلبي يلقي درسًا في المصلين، ومر إبراهيم باشا من جانب الشيخ الحلبي، وكان مادًا رجله فلم يحركها، ولم يبدل جلسته، فاستاء إبراهيم باشا، واغتاظ غيظًا شديدًا، وخرج من المسجد، وقد أضمر في نفسه شرًا بالشيخ.

وما أن وصل قصره حتى حف به المنافقون من كل جانب يزينون له الفتك بالشيخ الحلبي الذي تحدي جبروته وسلطانه أمام الناس، وما زالوا به يؤلبونه حتى أمر بإحضار الشيخ مكبلًا بالسلاسل.

وما كاد الجند يتحركون لجلب الشيخ حتى عاد إبراهيم باشا فغير رأيه، فقد كان يعلم أن أي إساءة للشيخ ستفتح له أبوابًا من المشاكل لا قبل له بإغلاقها.

وهداه تفكيره إلى طريقة أخرى، ينتقم بها من هذا الشيخ العنيد، وقال في نفسه: «لآتينه من باب لطالما أُتي طلبةَ العلم من هذا الباب»، وهي طريقة الإغراء بالمال، فإذا قبله الشيخ فكأنه يضرب عصفورين بحجر واحد، يضمن ولاءه، ويسقط هيبته في نفوس المسلمين، فلا يبقى له تأثير عليهم.

وأسرع إبراهيم باشا فأرسل إلى الشيخ ألف ليرة ذهبية، وهو مبلغ يسيل له اللعاب في تلك الأيام، وطلب من وزيره أن يعطي المال للشيخ على مرأى ومسمع من تلاميذه ومريديه.

وانطلق الوزير بالمال إلى المسجد، والشيخ يجلس بين تلاميذه، واقترب من الشيخ وهو ما زال يلقي درسه، فألقي السلام، وقال للشيخ بصوت عال سمعه كل من حول الشيخ:

«يا سيدي هذه ألف ليرة ذهبية يري مولانا إبراهيم باشا أن تستعين بها على أمرك».

نظر الشيخ نظرة إشفاق نحو الوزير، وتبسم تبسم المغضب، وقال له بهدوء وسكينة المؤمن: «يا بني عد بنقودك سيدك، وردها إليه، وقل له إن الذي يمد رجله لا يمد يده».

- عبرة

يا سادة، ربما يكون الشيخ رحمه الله في تلك اللحظة لا يملك ليرة ذهبية واحدة، لكن كنز الإيمان أعظم وأغلى من أن يباع بألف ألف ليرة، ليس بألف ليرة فقط ، بل بجميع ما في الأرض من كنوز، فإن للعزة أثر إيماني يظهر لصاحبه الحق، ولا يخشى دون الله أحدًا، وهكذا هم

المؤمنون.

إن هذا المشهد يؤكد أن انتصار الحق والإيمان في عالم الواقع يكون بعد انتصارهما في عالم الفكرة والعقيدة، وقبل السلوك بالضرورة، كما تؤكد الصلة، والترتيب بين هذين الانتصارين فلا بُد من الانتصار في عالم الضمير قبل الانتصار في عالم الواقع، ولا يعلو أصحاب الحق في الحياة إلا بعد أن يعلو الحق في قلوبهم على ما عداه، من طمع وشهوة، وحب للمادة، وخلود في الأرض، لا بُد أن يتجسد الحق والإيمان في المشاعر والفكر، قبل أن يتحرك في الجوارح، والسلوك.

{فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}

(تم الكتاب بحمد الله)

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

فهرس..

اهداء..
مقدمة..
بطل الشام أرجواش
شهيد بسيف رستم
الفدائي الجسور
جئتُ أحمل رأسي بين كتفي
المغاوير البواسل
القائد العبقري
الشهيد الذي خاض البحر
شجاعة فوق الخيال!
العلم الرباني
أحياهم الله بالجهاد
أسد ميافارقين الثائر
السلطان الذي ألقى بخوذته على الأرض
السلطان المجاهد
الشيخ الجبل
بطل في مستنقع الأذلاء!
مهمة انتحارية
عملة نادرة
واحجاجاه

المهمة المستحيلة

الأسد المغوار

المغامرة الفاشلة

الأمير الباسل

المجاهد البطل

المجاهدة الصبور

قاهرة الروس

حامل راية الإسلام

بطل حتى النهاية

إنها لله والجنة

الفارس الشجاع

الشيخ الأسد

أموت ولا أكذب

المجاهد الصادق

بطل القادسية

نهاية عشاق الشهادة

الشهيد دفين الملائكة

الشهيد الغاضب على أبيه

شهيد أجنادين المغوار

الشهيد الصابر المهاجر

الشهيد الممزق الأشلاء

الشهيد الذي حماه ربه

لست منا بل عدونا

صاحب النقب

الرجل الأسطوري

المهمة المستحيلة

شيخ لا يخشى إلا الله

رجل الأقدار

نالت الرضوان

العجوز المجاهدة

امرأة بألف رجل

امرأة أيقظت أمة

بطولة امرأة

نهاية الطاغية

أمير حلب المجاهد

العلماء الربانيين

أين الذين يريدون الجنة؟!

الأسد المجاهد

الأمير الشهيد

أقسمت أن أجاهد في سبيل ديني

اللهم عافني حتى أنتقم

الهزائم منك يا إسماعيل

الشهيد المسلوخ

السلطان أقل من القط

دفاعًا حتى الموت

بطل على محفة الموت

الأسود المغاوير

أسد اندونيسيا الثائر

الشهيد الفدائي

الحنين إلى الشهادة

الفتيان الأبطال

الشهيد المهاجر إلى ربه

بطل بألف فارس

بطل الريف

نمر الصحراء

أعظم ملحمة في العصر الحديث

لقد نفد الرصاص مني يا جدتي

أسدان من عصر النبوة

بطولة خالدة

فارس القادسية الباسل

فدائية الإسلام الأولى

الأمير الشجاع

شيخ المجاهدين

البطل المصلوب

إن الذي يمد رجله لا يمد يده